تاريخ ملوك العرب الشعراء

إعداد
علي المصري

٢



دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تاريخ
ملوك العرب الشعراء

تاريخ
ملوك العرب الشعراء

إعداد

علي المصري

الجزء الثاني



دار الكتاب العربي



الطبعة الأولى
١٤٢١ ـ ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م


دار الكتــاب العــربي / بيروت - لبنان

دمشق: الحلبوني ـ هاتف ٢٢٣٥٤٠١
القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١
تلفاكس ٣٩١٦١٢٢
لبنان ص.ب ٣٠٠٤٣ هاتف ٠٣/٦٥٢٢٤١

محتوى الجزء الثاني

الباب الثالث
عصر بني أمية

ويتضمن :

الفصل الأول
خلفاء الأسرة السفيانية «العنابسة»

١ ـ معاوية بن أبي سفيان ١٩ ق هـ ـ ٦١ هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٨٠ م .

٣ ـ معاوية الثاني بن يزيد ٤١ ـ ٦٤ هـ/٦٦٢ ـ ٦٨٤ م .
٤ ـ ويأتي بعدهم عبدالله بن الزبير ١ ـ ٧٣ هـ/٦٢٢ ـ ٦٩٢ م .

الفصل الثاني

خلفاء الأسرة المروانية «الاعياص»

١ ـ مروان بن الحكم بن أبي العاص ٢ ـ ٦٥ هـ/٦٢٣ ـ ٦٨٥ م (مدة حكمه ٩ أشهر ١٨ يوماً) .
٢ ـ عبد الملك بن مروان ٢٣ ـ ٨٦ هـ/٦٤٢ ـ ٧٠٥ م .
٣ ـ الوليد بن عبد الملك ٥٠ ـ ٩٦ هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥ م .
٤ ـ سليمان بن عبد الملك ٥٤ ـ ٩٩ هـ/٦٧٢ ـ ٧١٧ م .
٥ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان ٦١ ـ ١٠١ هـ/٦٨٠ ـ ٧٢٠ م .
٦ ـ يزيد بن عبد الملك ٧١ ـ ١٠٥ هـ/٦٨٨ ـ ٧٢٤ م .
٧ ـ هشام بن عبد الملك ٧٢ ـ ١٢٥ هـ/٦٩٠ ـ ٧٤٣ م .
٨ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٨٨ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٦ ـ ٧٤٤ م .

حياته . .

شعره . .

أ ـ شعره الغزلي

ب ـ خمرياته

جـ ـ أغراضه الشعرية الأخرى

د ـ لمحة عامة في شعر الوليد

٩ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك ٨٦ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٤ ـ ٧٤٤ م .
١٠ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ٩٠ ـ ١٢٧ هـ/٧٠٧ ـ ٧٤٤ م .
١١ ـ مروان بن محمد بن مروان ٧٢ ـ ١٣٢ هـ/٧٠٠ ـ ٧٥٠ م .

الباب الثالث
عصر بني أمية

ويتضمن :

١ ـ البيئة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

٢ ـ وصول الأمويين إلى الحكم .

٣ ـ شيعة آل البيت .

٤ ـ حركة السيدة عائشة وطلحة ، والزبير .

٥ ـ الحزب الأموي .

٦ ـ الحكم الأموي .

٧ ـ خلفاء معاوية .

٨ ـ الدواوين في عهد الأمويين .

٩ ـ أسباب زوال الدولة الأموية .

الفصل الأول
خلفاء الأسرة السفيانية «العنابسة»

١ ـ معاوية بن أبي سفيان ١٩ ق هـ ـ ٦١ هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٨٠ م .

٢ ـ يزيد بن معاوية ٢٦ ـ ٦٤ هـ/ ٦٤٥ ـ ٦٨٣ م .

٣ ـ معاوية الثاني بن يزيد ٤١ ـ ٦٤ هـ/٦٦٢ ـ ٦٨٤ م .
٤ ـ ويأتي بعدهم عبدالله بن الزبير ١ ـ ٧٣ هـ/٦٢٢ ـ ٦٩٢ م .

الفصل الثاني

خلفاء الأسرة المروانية «الاعياص»

١ ـ مروان بن الحكم ٢ ـ ٦٥ هـ/٦٢٣ ـ ٦٨٥ م .
٢ ـ عبد الملك بن مروان ٢٣ ـ ٨٦ هـ/٦٤٢ ـ ٧٠٥ م .
٣ ـ الوليد بن عبد الملك ٥٠ ـ ٩٦ هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥ م .
٤ ـ سليمان بن عبد الملك ٥٤ ـ ٩٩ هـ/٦٧٢ ـ ٧١٧ م .
٥ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان ٦١ ـ ١٠١ هـ/٦٨٠ ـ ٧٢٠ م .
٦ ـ يزيد بن عبد الملك ٧١ ـ ١٠٥ هـ/٦٨٨ ـ ٧٢٤ م .
٧ ـ هشام بن عبد الملك ٧٢ ـ ١٢٥ هـ/٦٩٠ ـ ٧٤٣ م .
٨ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٨٨ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٦ ـ ٧٤٤ م .
٩ ـ يزيد بن الوليد بن عبدالملك ٨٦ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٤ ـ ٧٤٤ م .
١٠ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ٩٠ ـ ١٢٧ هـ/٧٠٧ ـ ٧٤٤ م .
١١ ـ مروان بن محمد بن مروان ٧٢ ـ ١٣٢ هـ/٧٠٠ ـ ٧٥٠ م .

عصر بني أمية

ويتضمن :

١ ـ البيئة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي
٢ ـ وصول الأمويين إلى الحكم
٣ ـ شيعة آل البيت
٤ ـ حركة السيدة عائشة وطلحة والزبير
٥ ـ الحزب الأموي
٦ ـ الحكم الأموي
٧ ـ خلفاء معاوية
٨ ـ الدواوين في عهد الأمويين
٩ ـ أسباب زوال الدولة الأموية

عصر بني أمية

١ ـ البيئة السياسية والاجتماعية في العصر الأموي ...

يعود الأمويّون بنسبهم إلى أُمَيَّةَ بن عبد شمس بن عبد مَنَافِ بن قُصَيٍّ بن كِلابٍ. وكان لقُصَيّ[1] بن كلاب هذا شأنٌ كبير في تاريخ مكَّة. فقد انتهت إليه حجابةُ البيت الحرام، إضافة إلى السقاية والرفادة واللواء والندوة. ولما مات قام بأمره في قومه بنوه، وظهر من هؤلاء البنين؛ بنو عبد مناف، فنافسوا الباقين ولاسيما بني عبد الدار على مابأيديهم[2].

وكان أولاد عبد مناف أربعة؛ المطلب ونوفل وهاشم وعبد شمس. وقد آلت سِدانة البيت بعد وفاته إلى أصغر أبنائه هاشم، بينما كان لعبد شمس وهو الأكبر، تدبير أمور السياسة والحرب[3]. وتمتَّع أميةُ بن عبد شمس بنفوذ واسع في

---

(١) قصي: هو الجد الخامس للرسول ﷺ.
(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ٣٢٩ لزيدان.
(٣) قيام الدولة الأموية لبدوي عبد اللطيف طبعة ٤ شبرا ١٩٤٨.

قومه لكثرة ماله وولده. فقد أعقب حرباً، وأبا حرب، وسفيان، وأبا سفيان، وعمْراً، وأبا عمرو، وكان يقال لهؤلاء الأبناء العنابس أي الأسُودُ، كما أعقب العاص وأبا العاص، والعيص وأبا العيص، وهؤلاء يدعون الأعياص، وأعياصُ قريش كرامها[1].

وكما كان هؤلاء الأبناءُ أسيادَ قريش وكرامها، فقد أعقبوا رجالاً كانت لهم السيادة والقياة في الجاهلية والإسلام، ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية، وابنه معاوية رأس الدولة الأموية. ومن ولد أبي العاص ابن أمية، الحكم وهو جدُّ الخلفاء الأمويين الذين جاؤوا بعد ابنه مروان بن الحكم الخليفة الأموي الرابع ورأس الأسرة المروانية. ومن ولده أيضاً عفّان الذي أعقب ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفّان، رضوان الله عليهم.

وكان النبيُّ ﷺ لَحَظَ بثاقب فكره تلك الميزات العظيمة في بني أمية، فأسند اليهم أعمالاً خطيرة، لأن كلاً مُيسَّرٌ لما خُلق له - كما قال هو نفسه عليه السلام - واستعان بكفاءاتهم وضعاً للحق في نصابه، وعرفاناً بامتياز أفراد هذا البيت.

وقد جاء هذا الإسناد أشبه بترشيح - على حدِّ التعبير الحديث - غير مقصود، وقد يكون مقصوداً - لما سيناط بهم في مستقبل الأمر من شؤون الأمة في شكل ولاية، ثم إمارة، ثم خلافة، ثم ملك عضوض، ثم إمبراطورية إسلامية تضم رقعة هائلة من الأرض.

---

(١) المرجع السابق.

ـ لوحظ أن النبيَّ ﷺ،ولّى مكة بعد فتحها شاباً من بني عبد شمس، هو عتّاب بن أُسَيْد.

ـ وكان قبل ذلك قد أمر أن يذاع في الجيش الفاتح لمكة على أثر دخوله أم القرى «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» . وهو تشريف غير مدافَع لهذه الشخصية الأموية البارزة حيث كوفئ بين بيتها والبيت العتيق الذي جاء عنه في هذا البلاغ أن «من دخله فهو آمن» .

ـ وكان ابنه معاوية أحد كتبة الوحي للنبي ﷺ. وهو من عرف بعد ذلك بالحلم والسياسة والدهاء. وهو واضع الدستور الخلقي الملخّص في هذه الجملة: «إني لاأحملُ السيفَ على من لاسيفَ معه، وإنْ تكُنْ إلا كلمة يشتفي بها مشتفٍ جعلتها تحتَ قدمي ودبر أذني». وهو القائل أيضاً، وهو يملي المادة الثانية من هذا الدستور: «لو كانَ بيني وبين الناس شعرة ماانقطعت، إنّ شدّوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها».

ـ وقدم أبو بكر الأمويين في خلافته؛ فولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية قيادة أحد الجيوش التي أرسلها لفتح بلاد الشام.

ـ ولم تغفَل عينُ عمرَ بن الخطاب عن ملاحظة امتياز الأمويين كما لاحظها صاحباه العظيمان، فولّى يزيد بن أبي سفيان جهة بلاد الشام، وولى أخاه معاوية جهة أخرى فيها. ولما مات يزيد ضم عمرُ هاتين الجهتين إلى معاوية فأدار شؤونهما حتى مات عمر. وكان عمر في خلافته يفرش في بيته فراشاً لايجلس عليه إلا العباس ابن عبد المطلب، وأبو سفيان بن حرب، ويقول: هذا عم رسول الله، وهذا شيخ قريش.

ـ أما عثمان بن عفان الأموي فقد فتح لهم باب التقدم على مصراعيه، فزاحموا الناس بمناكبهم في زمنه، وتقدموا حتى صارت مكانتهم مرموقة. ولعل هذا العمل من عثمان رضي الله عنه كان نتيجة إحساس الفرد بمزايا نوعه، لامن وحي إيثار الأقارب على غيرهم بالولاية والمناصب، كما زعَم بعض ناقدي أعمال هذا الخليفة الذي ميّزه النبي ﷺ بالمصاهرة مرتين، كما ميّز أفراداً من قبيلته بالتقديم[1].

وهكذا تمتّعت هذه العشيرةُ الأمويّة على مرِّ الأيّام بالشرف والمال، الأمر الذي أوصل أبناءها إلى سدّة الخلافة، بعد صراع مرير ضد بني هاشم بن عبد مناف، ويبدو أنَّ الصراع على السيادة بين الهاشميّين والأمويّين كان قديما، ويعود على مايذكرُ بعضُ المؤرخين إلى تلك المنافرة التي حصلت بين أميّة بن عبد شمس وعمِّه هاشم بن عبد مناف، وأدّت إلى إجلاء أميّة عن مكّة مدّة عشر سنوات، بعد أن غلبه هاشم على أمره[2] وعقب ذلك في طبيعة الحال خصومة استمرّت بين العشيرتين طيلة العهدين الراشديّ والأمويّ، وساعدت في إيقاد النيران بين الطرفين المتصارعين على الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفّان.

وأمّا من الناحية الاجتماعية ، فإننا لا نكاد نصل إلى عصر بني أمية ، حتى نجد أن المجتمع العربي قد خطا خطوات واسعة في ميدان التحضر والتمدن . إذْ أصبحت مكة والمدينة مركزيت مهمين للغناء والثروة والشعر . والحجاز وبواديها وأسواقها حلبة للشعراء الغزليين والمداحين .

---

(١) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموري للباحث الاستاذ محمد حسن عواد الصفحة ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) ويذكر بعض المؤرخين أن أمية ترك مكة عشرين عاماً، انظر تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان ٢٦/١ .

وعلى الرغم من انتقال مركز الخلافة من المدينة إلى الكوفة في العراق إبان خلافة علي رضي الله عنه ، وانتقالها إلى دمشق بدءاً من خلافة معاوية رضي الله عنه ومن خلفه في الأسرة الأموية ، ظلت المدينة ومكة مستقراً ودار سكنى لأكثر طوائف الأسر العربية عراقة ونسباً ، إذ رقت حواشيها ، ودمثت أخلاقها ، وشفت حياتها ، نتيجة لعوامل التطور والامتزاج ، وأهمها :

١ ـ الثراءُ الهائل الذي خلفه الصحابة الأوائل لأبنائهم مما اجتنوه من الفتوحات فيما جاورهم من ممالك ، حيث عادوا محمَّلين بالمجوهرات وأكداس من الذهب والفضة . فابتنوا القصور ، والدارات الفخمة ، وتفننوا بزخرفتها وتجميلها[1] وفرشها بأفخم الأثاث والرياش .

٢ ـ قامَ على خدمة تلك القصور والدارات أفواجٌ من الرقيق الأجنبي[2] الذي جلبوه من مختلف الممالك والأقطار التي وصلت إليها الفتوحات .

وأُكثِرَ من هؤلاء الخدم كثرةً مفرطة ، حتى أنهم يروون عن الزبير بن العوام أنه جمع في قصره وحده أكثر من ألف عبد وأمة[3] .

٣ ـ أسرف المدنيون جميعهم باستعمالاتهم للطيوب من مختلف الأصناف ، والألوان ، وأكثروا من أصناف المآكل والمشارب كثرة لا عهد لهم بمثلها .

ورفلت نساؤهم بالثياب ، والحرير الموشى بخيوط الذهب والقصب[4] ، وبالَغْنَ باتِّخاذ صنوف المجوهرات والحلي ، وأكثرن من استعمال الجواري القادمات

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ١٤/٢٥٤ .
(٢) الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ١/٣٧٨ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الأغاني ٩/٢٦٢ .

يحملْنَ معهُنَّ ريح الحضارة والمدنية ، لتجميلهِنَّ وتزيينهنَّ وإعدادهن وخدمتهن .

٤ ـ ومن الطبيعي في مجتمع كهذا المجتمع المترف المتحضر الغارق بالنعيم ، أن يكثُرَ الشبابُ العاطل عن العمل ، ولابد له والحالة هذه من أن يجدَ ما يُنفقُ فيه أموالَه ويقطع أوقات فراغه الطويلة في شيء من اللهو ومسرات الحياة . فأولعوا بالغِناء ، وكلِفوا به ، وتفنَّنوا فيه ، فشجَّعوا المغنِّين والمغنِّيات المحلِّيين ، واستقدموا الجواري القيان من البلدان المفتوحة لهذا الغرض ، فتشكلت جوقات وبرعت مواهب أحكمت قواعد هذا الفن[1] حتى أننا نستطيع أن نقول أنه ظهرت قواعدُ بدايات فنِّ الغناء العربي الذي بدا جلياً في كتاب يونس الكاتب الذي ينسب إليه وضع أول كتاب في الغناء والأغاني ، ونسبتها إلى أصحابها . وفي موسوعة الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ، حيث قسموا الغناء إلى ضروب ومقامات وجعلوا للأصوات ستة ضروب ، هي : الثقيل الأول ، والثقيل الثاني ، وخفيف الثقيل ، والرمل ، وخفيف الرمل ، والهزج . وميزوا مجرى الصوت فيها بحسب الأصابع[2] .

واكتمال هذه النظرية على أيدي الرقيق الأجنبي يؤكد أنها تأثرت تأثراً واسعاً بألحان الفرس والروم .

٥ ـ ونشط خلفاء الدولة الأموية على إغراق أهل هذه المدينة بسيول من أموال الفتوحات التي يجنونها ، ليشغلوا ساكنيها بالنعم والترف ، إبعاداً لهم عن دست الخلافة ، وسلطان الحكم . وتروي بعض الأخبار أن دار عبدالله بن جعفر

---

(١) الأغاني ١/٢٧٨ .
(٢) الأغاني ١/٣٨ دار الكتب .

تحولت إلى شبه مسرح للمغنين والمغنيات ، يؤمّها الناس للاستمتاع بهذا الفن الرفيع المستحدث[1] .

في هذا الجو المترف لمعت أسماء براقة في سماء الغناء العربي في المدنية من أمثال طويس ، وسائب خاثر ، ومعبد ، وابن عائشة ، ومالك الطائي ، وعطّرد . وأما أشهر المغنيات فعزة الميلاء ، وجميلة ، وسلامة القس ، وحبابة ، وسلّامة الزرقاء وغيرهن وغيرهن[2] .

ولن ننسى كيف افتتحت دورٌ خصصت للسماع كدور الأوبيرا اليوم ، يؤمّها شباب المدينة كل مساء يزجون أوقاتهم فيها . ومن أشهر تلك الدور دار جميلة التي كانت تزخر بالمغنين والمغنيات حيث تقدم أنواع الأغاني على اختلاف أصواتها . مفردة ، أو على شكل جوقات ، ومصحوبة بالرقص والموسيقى في أكثر الأوقات . ويُعدِّدَ أبو الفرج صاحب الأغاني من ذلك في أغانيه العشرات[3] .

وكان يطفوا على سطح مثل هذا المجتمع كثير من الشخصيات الطفيلية من أصحاب النوادر والفكاهات يلونون بها جلسات الناس ويكسونها بطرف محببة فيها من النوادر والحكايات المضحكة ما يسري عن النفوس ويدخل إليها البهجة والسرور ، ويفعم القلوب بلذائذ الحياة وأنسها . وقد اشتهر من بينهم أشعب الذي برع في إضحاك الناس والترويح عنهم[4] .

---

(١) المسعودي ٣/٣٨٥ .
(٢) الأغاني ٨/٣٢١ وما بعدها .
(٣) الأغاني ٨/١٨٦ وما بعدها .
(٤) الأغاني في طبعة الساسي ١٧/٨٣ .

ولمع في سماء هذا المجتمع كوكبة من النساء الفاتنات المثقفات ، فقد افتتحْنَ بيوتهنَّ للشعراء والأدباء كما نسميه اليوم (بالصالونات الأدبية) .

فقُدنَ المرحَ النظيف ، والظَرفَ الطاهر الرافه ، فعمِلنَ بذلك على تهذيب الأذواق ، ورِقَّة الحواشي ، وتنقية المجتمع من شوائبه وأكدارِه ، وأكَّدنَ أن الحياة ثمينةٌ وتستحق أنْ تُعاش .

ومن بين هاتيك النسوة عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين[1] وقد ترجم الأصفهاني للأخيرة كثيراً من الصفحات ، وصور فيها جمالَها وبهاءها ووقارها وأخْذَها بأسباب الزينة ، حتى أنها عُرفت بتصفيفٍ لجمة شعرها ، كانت النسوة يقلدْنَها فيه ، بل كان من الرجال من يُحاكيها في جمتها[2] .

وكانت ظريفةً مزّاحة خفيفةَ الروح شائقة التحدث رائقة المزاج . ناعمة الحديث يختلف على مجلسها الشعراء فينشدونها . وهي تحفظ لهم ، ويُحكّمونها بينهم فتحكم لهم ، كما ويؤم مجلسَها المتفكهون من أصحاب الملح والنوادر كأشعب لإضحاكها وإدخال السرور على قلبها والبهجة لنفسها . وتفسح كذلك في مجلسها للمغنين والمغنيات .

ولم يقصر الأمراء والخلفاء الأمويون أنفسهم في منافسة الآخرين من أبناء قومهم ، وها هم يبتنون القصور والضياع التي تنعم بأبهة السلطة وصولجان الخلافة . ومكة لم تكن لتقل في هذا الثراء عن المدينة ، وهو ثراء استتبع بناء

---

(١) الأغاني ساسي ١٤/١٥٧ وما بعدها .
(٢) تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي للدكتور شوقي ضيف ص ١٤٢ .

القصور المشيدة ، تختال جمالاً وبهاءً وأبهة ، فهذا معاوية بن أبي سفيان أول خلفاء بني أمية يأمر ببناء دورٍ له فيها لقبت بالرقط لاختلاف ألوانها ، إذْ أحضر لها البنائين من بلاد فارس[1] .

واستمر إسهام الأمويين هذا في عهد الولاة والأمراء والخلفاء الأمويين . ومما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه حين أراد أن يحج ، كتب إلى خالد القسري عاملها عليها أن يجري له عيناً من الماء العذب إلى الكعبة . فصنع هذا بركة في أصل «ثبير» بحجارة منقوشة ، وأسال منها الماء إلى المسجد الحرام في قصب (أنابيب) من رصاص انتهى بفوارة تسكب الماء في نافورة رخام بين الركن وزمزم[2] .

ولم تغرق مكة في دور وقصور وعيون فحسب بل لقد أخذت تغرق إلى آذانها في الترف والنعيم ، فإذا نفر من أهلها يأكلون في صحاف الذهب والفضة ويشربون في جامات من الزجاج وغير ذلك . ويرفلون بثياب الخزّ والسندس والديباج والحلل الموشاة من كل صنف ولون[3] .

وعلى نحو ما رأينا أهل المدينة يشغفون بالغناء كان أهل مكة جميعاً مشغوفين به حتى فقهاؤهم وقضاتهم[4] وتبعَ ذلك موجةٌ واسعة من المرح مِنْ خير مَنْ يمثلها

---

(١) الأغاني ٣/٢٨١ .
(٢) شوقي ضيف ١/١٤٥ عن اليعقوبي ٢/٣٥١ .
(٣) الأغاني ٥/٦٦ .
(٤) الأغاني ١/١٥٧ وما بعدها .

شاعر يسمى الدارمي . واشتهر في هذا المجتمع المرح فتيات وسيدات شريفات لهن أثر بالغ في رقة الأذواق ورهافة الأحاسيس ، مثل الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث الأموية(1) وكان لها قصر عظيم تعقد فيه ندوات يؤمها المغنون والشعراء .

لقد أعدَّ هذا الترف كله في المدينة ومكة على تعلق جمهور الشعراء في فن الغزل والحب . ولم يشذ عن ذلك إلاّ الشاعر المكي عبيدالله بن قيس الرقيات الذي يعلق بالهجاء لبني أمية والمديح لابن الزبير ، إلى أن صار الحكم للأمويين فأصبح من مداحي عبدالملك بن مروان وأخيه عبد العزيز والي مصر ، وأبو الخليفة عمر بن عبد العزيز .

وقد أكثر الشعراء من شعر الغزل كالعرجي الذي ملأ سماء الحجاز غزلاً مشبوباً ، إلاّ أن أشهر شعراء الغزل قاطبة عمر بن أبي ربيعة المخزومي الذي لم يقُلّ إلاّ في شعرِ الغزل .

هذا في مكة والمدينة ، فكيف الأمرُ في بلاطات الأمويين وداراتهم في دمشق ، ومتنزهاتهم ورياضهم في بساتين المزة ووادي بردى والغوطة !!؟

---

(1) الأغاني ١/١٢٢ و١/٢٠٩ ومواضع متفرقة .

٢ ـ وصولُ الأمويين إلى الحكم..

أتاح وصولُ عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه إلى الخلافة، الفرصة أمام الأمويِّين للإمساك بزمام الأمور في الدولة الإسلامية، وتولِّي مناصبها الرفيعة، وجني ثمارها الذهبية. وقد بلغوا في السلطة حداً جعل مروانَ بن الحكَم الذي استولى على قلب عثمان وسمعه يعتبرُ الخلافةَ مُلكاً لبني أمية، لذلك خاطب من جاء يطالبُ عثمانَ بتغيير سياسته في الرعية بقوله: جئتم لتنزِع ملكنا من أيدينا، والله لئن رُمْتمُونا ليَمرَّنَّ عليكم مِنَّا أمرٌ لايسرُّكم، ولاتحمدون غبَّ رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فإنَّا والله مانحنُ بمغلوبين على ما في أيدينا[1].

فالأمويون «بيت حجازي ممتاز، وطَّنَ أركانَ الملك العربي في بلاد الشام والجزيرة العربية وما حولَها، فانقادت إليه العرب والعجمُ، طائعة معتزّة لأنها تشعر أنها تجمع عنفوانَها كلَّه تحت رايته العزيزة. ولِانتساب هذا البيت إلى الحجاز وإلى عبد مناف دَخْلٌ أصيل في اعتزاز العرب بهذه الدولة اللامعة.

وقلما يستطيع أن يضبطَ مقاييسه كاتبٌ يغلبه الانفعال، أو كاتب يكتب تحت تأثير ظرفٍ خاص، تدير أفكاره فيه سياسةٌ معينة أو مصلحةٌ عاجلة.

وقد تباينت أحكام النقاد على بني أمية وعصرهم، فتكونت معارض شتى للآراء، بعضُها واضح، وبعضها غامض، وفي بعضها تفصيل، وفي غيره إجمال. ولكن الباحث المحلِّل الذي يرتفع بموازينه ومسابِره عن مطارح الأهواء وبواعث

---

(١) قيام الدولة الأموية ٨٤ بدوي عبد اللطيف.

الانفعال، هو الذي يخرج من الميدان ظافراً بنتيجة ترضي الضمير الفني، ولاتعقّ الواقع الذي يُدركه الباحث المتعمق حقّ إدراكه، ويضل في فهمه صاحب النظر السطحي وصاحب النظر المدخول.

ويقول الأستاذ عباس محمو العقاد: إن الأمويين يمثلون الملك العادل القوي وهي قوة أوحاها الظرف السياسي الذي عاشوا فيه، وأكّدها أنهم أناس عمليون، وقد احتاجوا إلى القوة في عصر الاعتزاز بالقومية وبعصبية القبيلة، فاستعملوها ألزم ماتكون، لإقرار العزَّة العربية التي كان يتناوشها المتناوشون، فلا يكون لها استقرار إلا على أيدي الأمويين: تلك العزة التي صورها سليمان بن عبد الملك في رده على أعرابي بسط لسانه في نقد حكومتهم، فأجابه: أما وأبيك ياأعرابي، لاتزال العرب بسلطاننا لأكناف العز متبوئة، ولاتزال أيامنا بكل خير مقبلة. ولئن ساسكم ولاة غيرنا، لتحمدنَّ مِنّا ما أصبحتم تذمون.

وكانت نتيجة هذه القوة أن أصبح أمرُ الدولة الإسلامية كما وصفه ابن خلدون: «حريزاً مجتمعاً، ونظاماً ممتداً في الإتساع، وعصبية بني عبد مناف واحدة غالبة على سائر مُضر، فلم ينبض عرق من الخلاف إلا ماكان من بدعة الخوارج المستميتين في شأن بدعتهم، ولم يكن ذلك لنزعة ملك ولارئاسة، ولم يتمَّ أمرهم لمزاحمتهم العصبية القوية»[1].

وهذا ماحدا بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يبسط الحكم أمام هذا العنصر المتفوق مدارج الحكم والسلطة.«ارجعوا إلى منازلكم فإنّا والله مانحن بمغلوبين على ما في أيدينا[1].»

(١) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي للباحث محمد حسن عواد صفحة ٣٥ - ٣٧.

وهكذا ثار المسلمون في الأمصار على عثمان، بدافع من الشعوبية أولا، والطائفية ثانياً واليهودية ثالثاً بزعامة عبد الله بن سبأ اليهوديّ اليمنيّ الذي أظهر الايمان وأبطنَ الحقدَ والكيد للإسلام والعرب، وتمكن بعض الغوغاء ممن ذكرنا، من الوصول إلى المدينة المنوَّرة عاصمة الخلافة ومحاصرة بيت الخلافة، ثم اقتحام البيت وقتل صاحبه الخليفة وكتاب الله في حجره.

وكان قتل الخليفة عثمان بن عفّان شؤماً على المسلمين، فقد ابتدأ به عصرٌ انقسم المسلمون فيه شيعاً وأحزاباً تتطاحن فيما بينها، بتشجيع من الفرس واليهود والشعوبيَّة، فتسيل الدماء، ويعم الظلم، وتمسُّ المقدَّسات. ومن هذه الأحزاب والشيع :

٣ ـ شيعةُ آل البيت ..

وهم الذين كانوا يرون أن عليَّ بن أبي طالب أحقُّ الناس بالخلافة، ويحتجون لذلك بأحاديث نبويّة نصَّت على إمامة عليٍّ وولايته، كما يحتجُّون بقرابته من رسول الله ﷺ، ومنزلته في الإسلام وهي منزلة تشهد أيضاً بما كان لعليٍّ من علم ومعرفة وحكمة وبُعد نظر وشجاعة وحزم.

وكان من الطبيعي أن يكون عليٌّ، بعد مقتلِ عثمان، رضي الله عنهما، قبلةَ أنظارِ المسلمين الذين سارعوا إلى داره يمدُّون إليه أيديهم يبايعون. فيمتنع في بادىء الأمر، ثم يعودُ فيقبل بهذه المسؤولية العظيمة، وهو في موقف دقيق جداً؛ الأمصارُ في ثورة وغليان، وقتَلةُ عثمان من ذوي النفوذ، وكذا المطالبون بالاقتصاص من قتلَته، وعليٌّ شيخٌ هاشميّ يبتغي الطاعة من أمراء أمويِّين مكِّنوا لأنفسهم بالأصقاع البعيدة ، بالمؤيِّدين والأموال ، (وهكذا صار عليٌّ رضي الله عنه) ، فقد غاب بعض الصحابة من المهاجرين والأنصار عن المدينة وقت البيعة ، وكان بينهم

سعد بن أبي وقاص ، وعبدالله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة وحسَّان بن ثابت وغيرهم ، إضافة إلى بني أمية[1] .

وهكذا صار عليٌّ خليفةً على المسلمين، وصار عليه أن يعيدَ الأمور إلى مثل ماكانت عليه أيام الشيخين أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما، ولكنْ هيْهاتَ ذلك فقد كانت بقيَّةُ الأحزاب والجماعات تحول دون ذلك.

٤ ـ حركة السيدة عائشة وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام ..

وبدأت هذه الحركة في مكّة، وكانت غايتها الظاهرة المطالبة بدم عثمان. وكان علي عندما بلغته أنباء هذه الحركة، قد أرسل يدعو للإلفة والجماعة، ويعظم أمر الفرقة، ويوضح دقَّة الموقف، وعِظم الخطر الذي يتهدّدُ المسلمين، إذا لم يعودوا على اختلاف أحزابهم إلى حظيرة الطاعة، ويعينوه على البلاء الذي عمَّ الجميع.

ولكنَّ جماعةَ عائشة ومن معها اتهموا عليّاً بأنّ له ضِلعاً في مَقتل عثمان، أو على أقل تقدير أنه قعدَ عن نصرته، وكان في مقدوره ردُّ الناس عنه، والواقع أنّ ماكان يحمي قتلةَ عثمان هو انتسابهم إلى أكثر القبائل والعشائر العربيّة التي أظهرت التعصُّب لهم، واستعدَّت للحيلولة دون الوصول إليهم.

واستقرَّ رأيُ السيدة عائشة ومن معها على مناهضة علي ومناوأته، فقصدوا البصرةَ بجموعهم وانتصروا على عاملها من قبل علي. وكان الخليفةُ علي قد سار للقائهم وكادَ الطرفان أن يصلا إلى حلٍ سِلمي، إلا أنّ المنافقين واليهود لما رأوا أن الصلح قاب قوسين أو أدنى، أُسقط في أيديهم، واهتبلوها فرصةً لاتمام إشعال نار الفتنة، وتأجيج شحناء الحقد بين الطرفين، بدأوا هُمْ بالهجوم وإشعال نار القتال

(١) لايعني ذلك ان بيعته لم تكن صحيحة، فقد دانت له جميع الأقاليم ماعدا الشام.

والفتنة، فالتقى الجمعان في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ، ودارت معركة طاحنة، قادتها السيدة عائشة من على ظهر جملها، فسمِّيت بموقعة الجمل، وفيها انتصر عليٌّ، وأسِرتْ أمُّ المؤمنين، وقتل طلحةُ ثم الزبير، إضافة إلى ألوف المسلمين.

٥ ـ الحزب الأموي ..

هو الحزب الذي ترأسه معاوية بن أبي سفيان، وتألَّف من بني أمية أنفسهم، ومن أهل الشام الذين استطاع معاويةُ خلال ولايته عليهم أيَّام عمر وعثمان استمالتهم واكتساب محبَّتهم وثقتهم.

وكان عليٌّ بدأ خلافته بعزل ولاة عثمان، قناعةً منه بأنَّهم كانوا من أسباب الثورة التي عمَّت الأمصار[1] وأطاحت بالخليفة. ولم يكن أمام هؤلاء الولاة إلا الطاعة، إذ كيف يمكن رفض أوامر الخليفة الذي كان يتمتَّع بتأييد المسلمين في البلدان والأمصار كافة؟ وهكذا دان لعلي أمرُ العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس وخراسان والحرمين. . . إلا الشام والجزيرة وثغورهما، فقد وقف فيها معاوية موقف الرافض لبيعة عليٍّ، وحجَّتهُ في ذلك حجَّة السيدة عائشة وطلحة والزبير؛ تسليم قتلة عثمان الذين كان عليٌّ، حسب زعمهم، قد آواهم وحماهم.

(١) ثارت الكوفة على الوليد بن عقبة والي عثمان، ثم على سعيد بن العاص الذي تلاه والياً من قبل عثمان. ولم تكن الحال في البصرة أقل اضطرابا، فقد ثار أهلها على أبي موسى الأشعري، ثم ثاروا على عبد الله بن عامر الذي شملت إمارته أعمال البصرة والبحرين. وكان الحال في مصر والمدينة يشبه ماكان عليه في العراق، وقد جاهر الناس بنقد سياسة الخليفة والتبرم من أعماله والاستجابة إلى دعاة الثورة. انظر قيام دولة الأمويين لبدوي عبد اللطيف ٣٤.

وسارت بين علي ومعاوية سفارات عدة لم تسفرّ عن نتيجة تُجنّب المسلمينَ قتال بعضهم البعض، وهكذا التقت جيوش عليٍّ بجيوش معاوية في سهل صفّين - على الحدود السورية العراقية اليوم وعلى شاطىء الفرات الأيمن بين الرقة ومسكنة - سنة ٣٧هـ، ودارت رحى معركة هائلة كاد النصر فيها يُحالف جند علي لو لم يفاجأ هؤلاء بجند الشام يرفعون المصاحف ويطلبون التحكيم، حقناً لدماء المسلمين من الطرفين.

وأدرك عليٌّ أنَّ رفعَ المصاحف خِدعةٌ يَبغي بها عدوُّه تجنُّبَ هزيمةٍ عسكرية محقَّقة، واكتساب الوقت للعمل على شقِّ الصفوف. فحاول إقناع من انطلت عليهم الحيلة من جند العراق، بالمضي قُدماً في محاربة عدوِّهم، ولكنَّ هؤلاء لم يقنعوا، وأصرُّوا على الموادعة وقبول التحكيم. ورأى الخليفة علي بوادر الانقسام تظهر في جيشه، وعلم أنَّه إنْ مضى في الإصرار على القتال خسر وحدة صفوفه، فلم يرَ بُداً من القبول بوقف القتال وهو يعلم أنَّه كان، قاب قوسين أو أدنى من النصر.

وهكذا اتفق الطرفان على هدنة يُحكِّمان خلالها حكمين؛ حكم يمثِّل أمير المؤمنين، وآخر لأمير الشام، يجتمعان بعد ستّة أشهر في أذرح من دومة الجندل شرقي الأرن، وذلك لتوسطها بين الكوفة والشام.

كان ذلك كله لمصلحة معاوية الذي جعله التحكيم نداً للخليفة حتى في صحيفة العقد الذي تمَّ الاتفاق فيه على شروط الهدنة، حيث جاء اسم عليٍّ عارياً من لفظة أمير المؤمنين. ثم جاء حكم الحكمين في مصلحة معاوية أيضاً، فقد قضىٰ بعزل علي ومعاوية، مما زاد في إضعاف علي ومساواته بمعاوية الذي انصرف إليه أهل الشام بعد الحكم وسلموا عليه بالخلافة[1].

(١) انظر قيام دولة الأمويين صفحة ١٠٨ ومابعدها لبدوي عبد اللطيف

٦ ـ الحكم الأموي ..

ومضى معاوية بعد التحكيم في سياسته الهادفة إلى إضعاف علي، فاستولى بواسطة جيشٍ كان على رأسه عمرو بن العاص على مصر، ثم وجه النُعمانَ بن بشير إلى عين التمر فاستولى عليها، وأرسل سفيان بن عوف للإغارة على هيت والأنبار والمدائن، كما بعث عبد الله بن مسعدة الفزاري إلى تيماء ومكة والمدينة، وعبد الله بن الحضرمي إلى البصرة، والضحاك بن قيس إلى بواديها، أما بسر بن أرطاة فاستولى على الحجاز عام ٤٠هـ وبايع أهل مكة والمدينة لمعاوية(١).

وهكذا انقلبت الأمور رأسا على عقب، فبعدما كان علي مسيطراً على مختلف البلدان الإسلامية باستثناء الشام، صار أميرُ الشام يسيطر على كل هذه البلدان باستثناء العراق الذي بقي يدين لعلي بالولاء. ثم جاء غدر الخوارج بعلي ليزيد في بؤس الهاشميين، وسعد بني أمية.

وحدثت المفاجأة التي كان القصد منها تصفية علي ومعاوية وعمرو بن العاص، ولم يذهب ضحيتها إلا علي، بويع إثرها الحسن بن علي بالخلافة، ولكنه نظر فيما آل إليه أمر المسلمين من التفرقة وانتشار الفتن، ورأى، مصيباً، أنه ليس في مقدوره قتال معاوية، فتنازل له عن الخلافة، وصالحه على شروط ارتضاها الطرفان، وسلَّم إليه الكوفة سنة ٤١هـ وارتحل إلى المدينة.

ثم أقبل المسلمون من كل حدب وصوب يبايعون معاوية، حتى سُمِّيَ العام الحادي والأربعون للهجرة، وهو العام الذي بدأت فيه دولة بني أمية، عام الجماعة. وقد حكم معاوية، خليفة على المسلمين حتى وفاته سنة ٦٠هـ. وكان

---

(١) المرجع السابق ١٠٤ .

اثناء حكمه أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده من أهل الشام والعراق والحجاز، رغم أن توريث الحكم لم يكن معروفا عند العرب[٢].

لقد استطاع معاوية برأيه الصائب، ودهائه العبقري، وحلمه النادر، أن يكون نموذجاً فذاً لرجل الدولة الذي يجيد استمالة القلوب واخضاع العقول. ومما يؤثر عنه قوله: لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولاأضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ماانقطعت.

٧ ـ خلفاء معاوية ..

خَلَفَ يزيدُ أباه معاوية الذي كان عهدَ إليه بالخلافة من بعده، وأخذ له البيعةَ من المسلمين كافةً، ولم يتخلّفْ عن ذلك إلا نفرٌ قليل من أهل المدينة، كان منهم الحسينُ بن عليٍّ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن الزبير العوّام، وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب.

وكان معاوية يُرشّح يزيدَ للإمارة، فولاه الحجَّ مرتين، وولاه الصائفةَ[٤] وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأوّل مرة، وكان يدرّبه بذلك على الحكم، ويعلّمه أفانينَ السياسة، ولكنه لم يستطع رغم ذلك أن يتّصِفَ بدهاء أبيه وحنكته، فشهد عهدُه نتيجة لذلك ثورات عِدّة، واجهها بالحديد والنار، فمسَّ المقدَّسات، ولم يعبأ بشرفِ قرابةٍ وقداسةِ مكان!.

وكان يزيد قد طلب من واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، أَخْذَ

---

(١) الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية للدكتور محمد جمال الدين سرور ٩٦ دار الفكر العربي ١٩٦٠ .

(٢) الصائفة: الغزو أثناء الصيف.

الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا(١) ولكن الوليد لم يعمد إلى تنفيذ أوامر يزيد بالسرعة المطلوبة، مما أتاح لكلٍّ من الحسين وابن الزبير فرصة الخروج إلى مكَّة.

وشرع أهلُ الكوفة،وهم شيعة أهل البيت يفاوضون الحسين في الخروج إليهم لمبايعته، وتتابعت كتبهم إليه حتى اقتنع، فخرجَ متوجهاً إليهم في قِلّة من أهله وأنصاره،ولكن عاملَ يزيد على العراق عبيد الله بن زياد بن أبيه كان له بالمرصاد، فلما علم بخروجه أرسلَ جيشاً على رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص، فالتقى بالحسين في محرم سنة ٦١هـ في كربلاء الواقعة إلى الشمال الغربي من الكوفة، وهو في جماعته التي لم تكن تزيد عن مئتي نفس، فدارت معركةٌ غيرُ متكافئة استشهدَ فيها الحسين، وحُزَّ رأسه الشريف وحُمل إلى يزيد(٢).

وبعد ذلك بمدة ثار أهل المدينة المنورة على يزيد نتيجة لما حُدِّثوا عن معيشته التي تتنافى مع تعاليم الدين الحنيف وسيرة الخلفاء الراشدين،فأعلنوا خلعَه، ومبايعةَ عبد الله بن حنضلة الغسيل. فلجأ يزيد إلى الشدة والعنف،وأعد جيشاً ضخماً جعل عليه مسلم بن عقبة المرِّي. فزحف مسلم بجيشه والتقى بأهل المدينة وذلك سنة ٦٣هـ في الحرة الواقعة إلى الشمال الشرقي مما يلي المدينة فوضع السيف فيهم، وقتل الكثير من أشراف قريش والأنصار، ومن ضمنهم عبد الله بن حنضلة، ثم أباح المدينة لجنده ثلاثة أيام عملا بوصية يزيد(٣).

بعد هذه الوقعة سار الجيش الأموي إلى مكَّة لقتال عبد الله بن الزبير العائذ بالبيت، كما سمَّى نفسه، والذي بايعه أهل مكَّة والتفوا حوله، إضافة إلى خلق

(١) الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ١٠٥ نقلا عن ابن الأثير ٤ : ٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٣ وتاريخ العرب (مطول) ٢٥٣/١ .
(٣) الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ١٠٧ .

كثير من أهل المدينة. وأحاط قائد جند الشام آنئذ الحُصَينْ بن نُمَيْرٍ السَكُونيّ بمكة سنة ٦٤هـ، ونصب على جبل أبي قبيس المواجهة للكعبة المشرفة، المجانيق التي أحرقت شرارة من نيرانها أستار الكعبة وسقفها(١).

وبينما كان القتال محتدما بين الطرفين، جاء من يخبر بوفاة يزيد وتولية ابنه معاوية الثاني، وانقسام الأمويين على أنفسهم، فتوقف القتال، وعاد جند الشام إلى دمشق، فاغتنم عبد الله ابن الزبير فرصة تضعضع صفوف الأمويين فلقب نفسه أمير المؤمنين ودعا إلى بيعته.

ولقيت دعوة عبد الله هذه قبولا من المسلمين، فاتّسع نطاقها وشملت المدينة والبصرة والكوفة، كما تبعه المصريون الذين أرسل إليهم عبد الرحمن بن جحدم الفهري والياً من قبله.

وكان مروان بن الحكم تولى الخلافة الأموية بعد موت الخليفة الثالث معاوية بن يزيد، فسار على رأس جيش كبير إلى مصر، واستردّها من عامل ابن الزبير، وأخذ البيعة فيها لنفسه، ثم قفل راجعا إلى دمشق للقضاء على ثورة ابن الزبير.

وما لم يستطعه مروان بن الحكم الذي توفّي قبل مرور سنة على توليه الخلافة، قام به ابنه عبد الملك بن مروان الذي تولّى الحكم سنة ٦٥هـ، فاستردّ العراق من مصعب بن الزبير، ثم وجّه قائده الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الحجاز، فحاصر مكّة مدّة ستة أشهر ونصف وضربها بالمجانيق. حتى ملّ أهلها القتال، وتخلّفوا عن ابن الزبير الذي اضطرّ أخيرا للقتال وحيدا، فقتل وحزّ رأسه وأرسل إلى عبد الملك بالشام إيذانا بانتهاء الثورة.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٥ .

هذه الثورة التي كادت تقضي على خلافة الأمويين، وبلغ صاحبها سنة ٧٣هـ من القوة حداً كاد أن يدفع عبد الملك بن مروان إلى مبايعته[1].

وبقي أمام عبد الملك بن مروان خوارج العراق الذين ناهضوا الأمويين بعد مقتل مصعب بن الزبير. فرماهم بالقائد المظفر المهلب بن أبي صفرة. وأمير العراق الحجاج بن يوسف، فوقعت الهزائم في صفوف الخوارج وضعف شأنهم ولاسيما بعد مقتل شبيب بن يزيد زعيم الخوارج الصفرية سنة ٧٧هـ[2].

لقد كان عبد الملك قوياً في حكمه، عميقاً في فهمه، وطّد دعائم الملك بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان له الناس واجتمعت عليه الكلمة. وحين احتضر بعد إحدى وعشرين سنة من حكمه عام ٨٦هـ بكى ابنُه ووليُّ عهده الوليدُ، فقال له: ماهذا؟ أتحن حنين الأمة؟! إذا أنا مِتُّ فشمِّرْ واتزرْ والبسْ جلدَ النمر، وضعْ سيفَكَ على عاتقك، فمن أبدى ذاتَ نفسه لك فاضرب عنقَه، ومن سكت مات بدائه[3].

وعمل الوليدُ بهذه الوصية بعد موت أبيه عبد الملك، فكان جبّارا ممسكاً بمملكته بيدٍ حديديَّةٍ لاترحم الخارجين. ونتيجة لهذه السياسة. ولتلك التي انتهجها والده من قبل، نعمَتْ الامبراطورية العربية الإسلاميّة بالاستقرار، وصار بالإمكان متابعة الفتوحات الخارجية، والإصلاحات الداخلية.

فعلى صعيد الفتوحات برزت أسماء فاتحين عظام شرفوا التاريخ بصفحات ماجدة ستظلُّ خالدةً على العصور، كقتيبة بن مسلم الذي احتلت جيوشه بخارى

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٥ .
(٢) تاريخ الامم الاسلامية للخضري ٢٥٩ .
(٣) المرجع السابق .

وسمرقند وخوارزم وفرغانة، ومحمد بن القاسم الذي تابع فتوحاته في الهند واجتاز السند وبلغ حيدر أباد، وموسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين تابعا فتوحات الغرب فوقعت الأندلس بقيادتهما في القبضة الإسلامية.

أما على الصعيد الداخلي فقد شيَّد الوليد الجامع الأمويَّ بدمشق، والمسجد الأقصى بالقدس، وأعاد بناء جامع المدينة المنوَّرة، واهتمَّ بطرق المواصلات، وبناء المستشفيات[1].

وخلف الوليد سنة ٩٦هـ أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان تقيًّا فصيحا مؤثراً للعدل، محبًّا للغزو، فاستبشر به العامة لأنه أزاح عمال الجور والعسف الذين كانوا في عهد أخيه الوليد، وأطلق الأسارى، وأخلى السجون، وتابع الفتوحات، فحاصرت جيوشه القسطنطينية، وفتح جرجان وطبرستان وسردينية ومدينة الصقالبة. ولعل أفضل ماقام به هو جعله ولاية العهد لعمر بن عبد العزيز بن مروان[2].

وكان عمر بن عبد العزيز، خليفة الأمويين الثامن، خامس الخلفاء الراشدين بزهده وتقواه، وتسامحه مع النصارى والموالي، وميله إلى الاصلاح، حتى قال فيه المحدث سفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي وعمر بن عبد العزيز[3] رضوان الله عليهم أجمعين.

وقال الزاهد مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك زاهدٌ، وإنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها[4].

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٠ وقارن بتاريخ الامم الاسلامية للخضري ٥٨٥ .
(٢) انظر المرجع السابق.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٢ عن سنن أبي داود .
(٤) المرجع السابق.

وكتب بعض عمال عمر إليه: إن مدينتنا قد خربت، فإن رأي أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمُّها به فعل. فكتب إليه عمر: إذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم، فإنه مرمَّتُها، والسلام.

وهكذا اتَّجهت سياسة عمر إلى الإصلاح، فقام ببناء الخانات(١) في البلدان القاصية لإقراء(٢) المسلمين المارين، وأبطلَ مغارمَ كثيرة كانت استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف، وأخذ نفسه بتقشُّفٍ شديد، فكان مصرفُه كلَّ يومٍ درهمين، واقتصر من النساء على امرأة واحدة هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان(٣).

وكان سليمان بن عبد الملك عهدَ بالخلافة إلى أخيه يزيدَ بنِ عبد الملك بعد عمرَ بن عبد العزيز، فلما توفِّي هذا سنة ١٠١هـ وآلت الخلافة إلى يزيد، تلاشت هالةُ التقوى التي أحاطت بالخلافة، ذلك أن يزيد كان أوَّلَ من عُرِف من بني أميَّة بالشراب، وتزجيةِ الوقت في مجالسة القيان، وكان رغم انصرافه إلى اللهو، قد قام ببعض الإصلاحات، فوحَّدَ الإدارة في مكَّة والمدينة، وأصلح ديوان القبائل في مصر(٤).

وتلى يزيدَ بعد وفاته سنة ١٠٥هـ أخوه هشام بن عبد الملك الذي يُعدُّ من خيرة خلفاء بني أمية، وقد عرف بعفَّته وحلمه، وفي عهده بلغت الامبراطوريَّة الإسلاميَّة أقصى اتِّساعها، فدقَّ المسلمون أبواب بواتييه في فرنسا بقيادة أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقي، واستمر حكم هشام حتى سنة ١٢٥هـ، وبعده لم يشهد الأمويون خلفاءَ عظاماً، فقد تلاه على الخلافة الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك

(١) الخانات: دور الضيافة.
(٢) إقرام: إكرام استضافة.
(٣) تاريخ الامم الاسلامية للخضري ٥٩٠ .
(٤) المرجع السابق صفحة ٦٠٠ .

الذي عاش في قصره بالبادية منصرفا إلى اللهو والشعر والخمر حتى رماه الناس بالكفر، فخُلِعَ وقُتل بعد سنة تقريباً ١٢٦هـ. وجاء بعده يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك وكان يسمى يزيدَ الناقص، لأنه نقَّص من أعطيات الناس مازاده الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك وردَّها إلى ماكانت عليه أيّام هشام. وكانت أيّام يزيد قليلة، مليئة بالفتن والثورات التي اشتعلت في حمص وفلسطين والأُردن وبعض أقطار المشرق.

ثم بويع إبراهيمُ بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن الوليد، فلم يتمَّ له الأمر، فكان يُسَلَّمُ عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة. وكان مروان بن محمَّد بن مروان ابن الحكم والياً على الجزيرة وأرمينية، فثار على الوضع القائم في دمشق، وقَدِمَ بجيوشه إلى الشام، فاستولى على قِنسِّرين وحمص ثم دمشق التي بايعه أهلُها بالخلافة بعد فرار إبراهيم منها، وذلك سنة ١٢٧هـ.

وكانت مدَّة مروان بن محمد التي استمرت حوالي ست سنوات ، مملوءة بالفتن والإضطرابات ، فقد أوقع بالخوارج وقضى على خليفتهم الضحَّاك بن قيس الشيباني، وهزم أهل حمص وأهل الغوطة وأهل فلسطين بعد وقائع هائلة. وشغلته هذه الفتن الكثيرة عمّا كان يُعدّه بنو العباس في خراسان ، فكانت أعظم مساعد لهم ، فمدُّوا سلطانهم إلى العراق ، ثم واقعوا بقيادة عبدالله بن علي العباسي ، مروانَ بن محمد على نهر الزاب ، فأنزلوا بالأمويين هزيمة حاسمة سنة ١٣٢ هـ ، وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر ، إلى أن القى القبض عليه بقرية بوصير المصرية ، فقتل في السنة نفسها ، وبقتله أنتهت أيام الدولة الأموية ، وابتدأ عصر الدولة العباسية .

وإذا كان لنا كلمة أخيرة في سياسة بني أمية ، فإنا نقول إن الأمويين لم يتركوا

وسيلةٌ يمكن إتّباعها في إخضاع الناس لهم ، واجتذاب تأييدهم إلا اتّبعوها ، حتى بتنا نسمعُ أحاديثَ منسوبةً إلى النبي ﷺ تنذر الناس بخلافة بني أمية وتتحدث عن فضل معاوية بن أبي سفيان ، ومن ذلك ما رواه الترمذي بإسناد رجل قام إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين . فقال الحسن بن علي : لا تؤنّبْني رحمكَ الله ، فإن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت سورة : ﴿إنا أعطيناك الكوثر . . .﴾ ونزلت ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر﴾[1] يملكها بعدك بنو أمية يا محمد .

وعلّق الترمذي على ذلك بقوله : هذا حديث غريب لا نعرفه إلاّ من حديث القاسم[2] ، وهو ثقة ، ولكن شيخه مجهول . وقال الحافظ أبو الحجاج المزي : هو حديث منكر ، وكذا قال ابن كثير[3] .

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، والطبراني في الكبير عن عبد الملك بن عمير الذي قال : قال معاوية : مازلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ : يا معاويةُ إذا مَلكتَ فأحسنْ[4] .

وعن العرباض بن سارية أنّه سمع النبيَّ ﷺ يقول : اللهمَّ عَلِّمْ معاويةَ الكتاب والحساب وَقِهِ العذاب[5] .

وسواء أصحَّ ما سبق أم لم يصحَّ فإنّه من الواضح أن ذلك كان من شأنه

(١) المراد في هذه الرواية أن الله تعالى يذكر محمداً ﷺ بأنه أنعم عليه وعلى بني هاشم قومه ، أكثر مما أنعم على بني أمية ، فإعطاء محمد ﷺ الكوثر ، وإنزال القرآن عليه في ليلة القدر خير من الأشهر الألف التي هي مدة خلافة بني أمية .

(٢) يريد القاسم بن الفضل المدني .

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣ ـ ١٤ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٢ .

(٥) المرجع السابق .

إضعاف مقاومة الناس لبني أميّة ، وتأكيد مبدأ الحق الإلهيّ الذي نادت به السياسة الأموية ، وقد ارتكزت فيه على وجوب طاعة المسلمين لبني أميَّة ، لأن إرادة الله تعالى اقتضت نصرتهم علي بني هاشم ، وردَّد الشعراءُ في قصائدهم هذا المبدأ ، كمثل ما في قول الأخطل :

أَعْطَاهُمُ اللهُ جَدّاً يُنْصَرُونَ بِهِ ... لاَ جَدَّ إلَّا صغير ، بَعْدُ ، مُحْتَقَرُ[1]

وقوله أيضاً :

وَيَوْمَ صِفِّينَ وَالأَبْصَارُ خَاشِعَةٌ ... أَمدَّهُمْ إِذْ دَعَوْا مِنْ رَبِّهِمْ مَدَدٌ[2]

ولم يكتفِ الأمويُّون بوسائل الإقناع الدينيّ لإستمالة الناس ، بل لجأوا إلى إغراقهم بالأموال والنِعم التي أخذت تَنصبُّ على فتيان قريش خاصَّة ، لصرفهم عن السياسة والحكم ، وإلهائهم بملّذات الدنيا ونعيمها ، الأمرُ الذي أوجدَ تياراً من اللهو جرفَ معه بعض المسلمين ، فسكنوا القصور ، وأقتنوا الجواري ، متأثّرين بحضارة الأمم المغلوبة وأساليب حياتهم .

بهذا العرض الموجز تتضح لنا سياسةُ الأمويين التي حكموا بها المسلمين ، وهي سياسة قامت على مبدأ الترغيب والترهيب الذي استنَّه معاويةُ لمن بعده من الخلفاء ، والذي يلخصه قوله لزياد بن أبيه : إنه ليس ينبغي لي ولا لك أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة ؛ أن نلينَ جميعاً فتمرحَ الناس في المعصية ، أو نشتدَّ جميعاً فنحملَ الناس على المهالك ، ولكن تكونُ للشدَّة والفظاظة ، وأكونُ للّين والرأفة[3] .

---

(١) الجد : الحظ ويشير الشاعر إلى أن الله منحهم تأييده فنصرهم على أعدائهم .
(٢) انظر ديوان الأخطل .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٨ .

٨ ـ الدواوين في عهد الأمويين ..

كانت الدواوين في عهد بني أمية ثلاثة: ديوان الجند ، وديوان الخراج ، وديوان الرسائل .

أمّا ديوان الجند . . فإنه منذ وضع كان بالعربية ، وكان هذا الديوان يحصرُ جندَ كل إمارة وأعطياتهم وكلّ ما يختصُّ بهم ، فهو ما يمكن أن نسمّيه ديوان الحربية .

وأمّا ديوانُ الخراج . . فإنه كان في العراق باللغة الفارسية ، وفي بلاد الشام باللغة الرومية ، وفي مصر باللغة القبطية ، لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من شعوب تلك اللغات الثلاث . فلما ولّى الحجّاج العراق استكتب صالح بن عبد الرحمن ، فنقل الديوان من الفارسيّة إلى العربيّة ، وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يمتدح صالحاً ، أما ديوان الشام فإن الذي نقله إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبدالله بن عبد الملك أمير مصر للوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ . وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حسابات الدولة من دخل ومصرف .

وأمّا ديوان الرسائل . . فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال في الإمارات المختلفة والثغور ، وكان هذا بالعربية من بدايته . وكان يتبع له ديوان الخاتم وهو الديوان الذي تختم فيه الكتب الموجهة بعد أن تكتب ، وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم ، خاتم الخلافة[1] .

---

(١) تاريخ الأمم للخضري ٦٤٢ .

٩ ـ أسباب زوال الدولة الأموية ..

١ ـ ولاية العهد . . ذلك أنّ بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين ، يلي أحدهما الآخر كما فعل مروان حين عيَّن عبدَ الملك ثم عبدَ العزيز ، وكما فعل عبدُ الملك حين ولَّى الوليدَ ثم سليمانَ ، وكما فعل سليمانُ حيث ولي عهدَه عمرَ بن عبد العزيز ثم يزيدَ بن عبد الملك ، وكما فعل يزيدُ هذا حين ولي هشاماً ثم الوليدَ ابنه . وفي كل مرة كان ولي العهد الأول يحاول عزلَ الثاني وتولية ابنه مما تسبَّبَ بإنشقاقات داخل البيت الأموي .

٢ ـ إحياء العصبية الجاهلية . . وما سببتهُ من حروب طاحنة بين القيسية واليمنية . ومنها ما كان في عهد مروان بن الحكم في معركة مرج راهط .

٣ ـ تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءَهم في أمر قوَّادهم[1] .

٤ ـ والأهمُّ من هذا كله الشعوبِّيةُ العرقيّة وعلى رأسها الفرس ، والشعوبية الدينية ، والدعوات السريّة لآل البيت والعباسيين .

---

(١) المرجع السابق ٦٤٩ .

الفصل الأول

خلفاء الأسرة السفيانية «العنابسة»

١ ـ معاوية بن أبي سفيان ١٩ ق . هـ ـ ٦١ هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٨٠ م .

مدة حكمه ٤١ ـ ٦١ هـ «عشرون عاماً ونيف»

٢ ـ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ٢٦ ـ ٦٤ هـ/ ٦٤٥ ـ ٦٨٣ م

مدة حكمه ٦١ ـ ٦٤ هـ «أربع سنوات»

٣ ـ معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ٤١ ـ ٦٤ هـ/ ٦٦٢/ ٦٨٤

مدة حكمه ٦٤ ـ ٦٤ هـ (٣ أشهر)

٤ ـ ويأتي بعدهم عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي ١ ـ ٧٣ هـ/ ٦٢٢ ـ ٦٩٢ م

مدة حكمه ٦٤ ـ ٧٣ هـ (تسع سنوات)

معاوية بن أبي سفيان ١٩ ق . هـ ـ ٦١ هـ/ ٦٠٠ ـ ٦٨٠ م

هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مَنَاف ، ولد بمكّة قبل الهجرة بتسعَ عَشْرَةَ سنةً ، وفي يوم الفتح كانت سِنُّهُ ثلاثاً وعشرين سنةً ، وفي ذلك اليوم دخل في الإسلام مع مَنْ أَسلم ، وأصبح بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول الله ﷺ[1] وفي خلافة أبا بكر ولّاه قيادة جيشٍ مدداً لأخيه يزيد بن أبي سفيان ، وأمره أنْ يلحق به ، فكان غازياً تحت إمرة أخيه ، وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرنة وجبيل وبيروت . ثم وَلّاهُ عمر بن الخطاب الأردُنَّ ، ولما توفي أخوه يزيد وَلّاهُ عمر عمل يزيد بدمشق وما معها . وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشّامَ كُلَّها، ومازال والياً عليها حتى استشهد عثمان وبويع عليٌّ بالمدينة. فرفضَ مبايعته . وبعد صفين وما آل إليه أمرُ التحكيم بايعَ أهلُ الشام معاوية بالخلافة ، فصارَ معاوية إمامَ أهل الشام ، وعليٌّ إمامَ أهل العراق . ولما قُتل عليٌّ سَلَّم ابنهُ الحسنُ بن علي الخلافةَ إلى معاوية ، وحينئذ اجتمع على بيعته أهلُ الشام والعراق ، وسمّي ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة ، لإتّفاق

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٣٣ .

كلمة المسلمين بعد الفرقة ، فيكون ابتداء خلافته العامّة في ربيع الأول سنة ٤١ هـ وكانت بيعته ببيت المقدس[١] .

وبدت مخايل الذكاء على معاوية منذ أن كان طفلاً ، فكان يروي الشعر ويحبُه مُذْ كان غلاماً في الجاهلية ، ونشأ متأدباً وأصبح فيما بعد كاتباً للنبي في المدينة قبل مكة . ويروون عن حصافته وعن دهائه منذ صباه الشيء الكثير ، فقد جاء في الصفحة ٦٤ ـ ٦٥ من كتاب أنباء نجباء الأنباء : «أن العباس بن عبد المطلب كان نديماً لأبي سفيان على شراب ، فلما أخذت الخمرة منهما أخذا بالمفاخرة ، وتناقلا فيها ، إلى أن قال العباس إلى أبي سفيان : نافرني إلى فتاك هذا فإنه نجيب .

فقال : قد فعلت . وكانت أُمُّه هندٌ بنت عتبة تسمع . فاغتنمت الفرصة وأنشأت تقول مخاطبة ابنها معاوية :

اقْضِ فَـدَتْـكَ نَـفْسي لآلِ عَـبْـدِ شَـمْسِ[٢]
فَـهُـمْ سَرَاةُ الحُـمْسِ عَـلَى قَـدِيـم الحَـرْسِ[٣]

وهي ترمي إلى دفعه أن يفضِّل عبدَ شمس على هاشم ، ولكنَّهُ لدهائه أجابها شعراً ، جاعلاً الاثنين بمرتبة واحدة ، كحدَّي السيف ذي الحدين ، فقال مخاطباً أُمَّهُ :

صَـهْ يـا ابْـنَـةَ الأَكَـارِمْ فَـعَـبْـدُ شَـمْسٍ هَـاشِـمْ
هُمَـا بِـرَغْـم الـرَّاغِـمْ كَـانَـا كَـغَـرْبَيْ صَـارِمْ[٤]

فلمَّا سمع العباس وأبو سفيان مقالةَ معاوية ـ الفتى ـ ابتدراه أيُّهما يتناوله قبلَ

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ١١/٣ .
(٢) عبد شمس هو جد الأمويين الأكبر ، وأخو هاشم جد الهاشميين .
(٣) الأحمس : الشديد الصلب في القتال . الحرس بسكون الراء : الدهر جمع أحرس .
(٤) غربي صارم : حدي السيف .

صاحبه ، وتعاوراه[1] ضماً وتقبيلاً وتفدية[2] وافترقا راضيين .

وكان تقديم عثمان بن عفان للأمويين من أكبر الأمور الممهدة التي أدت بالخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان الأموي رضي الله عنه .

وقد وصف عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه آل أمية بن عبد شمس وصفاً عاماً عندما سئل عنهم فقال : «إنهم أشدنا حجزاً[3] وأطلبنا للأمر لا ينال فينالونه» وهو وصف صادق يقوله منافس خطر ونقّاد عظيم» .

ووصف ابن عباس معاوية ، وهو أحد أفذاذهم البارزين فقال : «سما بشيء أَسرَّه ، واستظهر عليه بشيء أعلنه ، فحاول ما أسر بما أعلن ، فناله . وكان حلمه قاهراً لغضبه ، وجوده غالبا على مَنْعِه ، يصل ولا يقطع ، ويجمع ولا يُفرِّق ، فاستقام له أمره ، وجرى إلى مدته» .

ووصف ابنه يزيد فقال : «كان في خير سبيله ، وكان أبوه قد حكمه ، وأمره ونهاه ، فتعلق بذلك ، وسلك طريقاً مذلّلة»[4] .

وفي رواية نقلها أبو علي القالي في أماليه ، كانت هند بنت عتبة ، وهي تُرقِّصُ ابنها معاوية رحمه الله ، في طفولته ، وهي تترسم مستقبله وتشيمه فتقول :

إنَّ بُـنَـيَّ مُـعْـرِقٌ كَـريـمُ   مُحَـبَّـبٌ في أَهْـلِهِ حَـلـيـمُ
لَـيْسَ بِـفَـحَّـاشٍ وَلَا لَئِـيـمِ   وَلَا بِـطُخْـرُورٍ وَلَا سَئُـومِ[5]

---

(١) تعاوراه : تبادلاه أو تعاقبا عليه .
(٢) وتفديه : أي يفديانه بالأب والأم .
(٣) أشدنا حجزاً : أشدنا صبراً .
(٤) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي للباحث محمد حسن عواد ٢٨ ـ ٢٩ .
(٥) الطخرور : إذا لم يكن جلداً ولا كثيفاً يعني الغيم .

صَخْـرُ بَنِي فِهْـرٍ بِـهِ زَعِيـمُ   لَا يُخْلِفُ الـظَّنَّ وَلَا يَخِيـمُ[1]

ومعاوية أوَّلُ من تزيَّى بزِيِّ الملوك من الخلفاء ، وقد جعل الحكمَ بعده وراثةً ، والناظر لحال سياسة الناس في عهده يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الراشدين قبل الفتنة ، فقد كانت الناس تُساسُ بالقانون الشرعي تماماً ، يأخذ كل إنسان ما له ويعطي ما عليه .

وعندما ملك معاوية : وآلت إليه الخلافة ، وأصبح بلاطُه موئلاً للأدب والشعراء ، وقد نُسِبَ إليه أنَّه قال : اجعلوا الشعرَ أكبرَ همِّكم وأكثرَ دأبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفِّينَ ، وقد أُتيت بفرس أغرّ محسجل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوي ، فما حملني على الإقامة إلا أبياتُ عمر بن الإطنابة :

أَبَـتْ لِي هِمَّتِي وَأَبَى بَـلَائِـي   وَأَخْـذِي الحَمْدَ بِـالثَّمَنِ الرَّبِيـحِ
وإِقْحَـامِي عَـلَى المَكْـرُوهِ نَفْسِي   وَضَرْبِي هَـامَةَ البَـطَلِ المُشِيحِ[2]
وَقَـوْلِي كُلَّمَا جَشَـأَتْ وَجَـاشَتْ   مَكَـانَكِ تُحْمَـدِي أَوْ تَسْـتَرِيحِي[3]
لأَدْفَـعَ عَنْ مـآثِـرَ صَـالِحَـاتٍ   وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحِيحِ

وقلتُ : اليوْمَ صَبْرٌ وغداً أَمْرٌ[4] .

وللدلة على حُبِّه للأدب والشعر ، ما يروى عن إذنه للناس مرةً إذْناً عاماً ، فلما حَفِلَ المجلس قال : أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب ، كل بيت قائم بمعناه ، فسكتوا . ثم طلع عبدالله بن الزبير ، فقال : هذا مِقْوَلُ العرب وعلاَّمتُها

(١) يخيم : يجبن . انظر الأمالي ١١٦/٢ .
(٢) انظر عيون الأخبار : ١٢٧ مع إختلاف في رواية وزيادة بيت خامس على الأربعة .
(٣) جشأت : فزعت .
(٤) المشيح : الشجاع .

أبو خُبيب !

قال : مهيم ؟

قال : أنشدني ثلاثةَ أبياتٍ لرجل من العرب ، كل بيت قائم بمعناه !

قال : بثلاثمئة ألف ؟

قال : وتساوي ؟

قال : أنت بالخيار ، وأنت وافٍ كاف .

قال : هات !

فأنشده للأَفْوَهِ الأودي :

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْناً بَعْدَ قَرْنٍ فَلَمْ أَرَ غَيْرَ خَتَّالٍ وَقَالِ[1]

قال : صدق ، هيه ؟

قال :

وَلَمْ أَرَ في الخُطُوبِ أَشَدَّ وَقْعاً وأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ

قال : صدق ، هيه ؟

قال :

وَذُقْتُ مَرَارَةَ الأَشْيَاءِ طُرّاً فَمَا طَعْمٌ أَمَرُّ مِنَ السُّؤَالِ

قال : صدق ، ثم أمر له بثلاثمئة ألف .

وجاء في الأمالي لأبي علي القالي ٢/٣١١ قال : وحدثنا أبو حاتم قال : حدثنا العتبي قال : مرض معاوية رحمه الله ، فأرجفَ به مصقلةُ بن هبيرة ،

(١) بلوت : خبرت . القرن هنا الزمن .

فحمله زيادٌ إلى معاوية وكتب إليه : إن مصقلة بن هبيرة يجتمع إليم مُرَّاقٌ(١) من أهل العراق ، يرجفون(٢) بأمير المؤمنين ، وقد حملته إلى أمير المؤمنين ليرى فيه رأيه .

فوصل مصقلةُ ومعاوية قد بَرَأَ ، فلما دخل عليه أخذ بيده وقال : يا مصقلة :

أَبْقَى الحَوَادِثُ مِنْ خَلِيلِـ ... ـكَ مِثْلَ جَنْدَلَةِ المَرَاجِمْ
قَدْ رَامَنِي الأَعْدَاءُ قَبْـ ... ـلَكَ فَامْتَنَعْتُ عَنِ المَظَالِمْ
صُلْباً إِذَا خَارَ الرِّجَا ... لُ أَبَلَّ مُمْتَنِعَ الشَّكَائِمْ

ثم جذبه فسقط .

فقال مصقلة : يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك بطشاً وحلماً راجحاً ، وكلأً ومرعى لِوليِّكَ ، وسُمّاً ناقعاً لعدوكَ . ولقد كانت الجاهلية فكان أبوكَ سيِّداً ، وأصبح المسلمون اليوم وأنت أميرهم .

فوصله معاوية وردَّه . فسئل ـ مصقلة ـ عن معاوية ، فقال : زعمتم أنَّهُ كَبِرَ وضَعُفَ ، والله لقد جبذني جبذةً كاد يكسر مني عِضْواً ، وغَمَزَ يدي غمزةً كادَ يَحْطِمُهَا !

وجاء في الحلة السيراء ١/٢٦ قوله : وقد ذكروا له شعراً كتب به إلى عبدالله بن الزبير يتهدَّدُه ويقول فيه :

رَأَيْتُ كِرَامَ النَّاسِ إِنْ كُفَّ عَنْهُمْ ... بِحِلْمٍ ، رَأَوْا فَضْلاً لِمَنْ قَدْ تَحَلَّمَا
وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَانَ عَفْواً بِقُدْرَةٍ ... فَذَلِكَ أَحْرَى أَنْ يُجَلَّ وَيُعْظَمَا

(١) المرَّاق : أهل الضلالة .
(٢) يرجفون : يشيعون الأخبار غير السارة من أرجف إرجافاً : خاض في الأخبار السيئة والفتن قصد أن يهيج الناس .

وَلَسْتُ بِذِي لَوْمٍ فَتُعْذَرُ بالَّذي أَتَيْتَ مِنَ الأَخْلَاقِ مَا كَانَ أَلْأَمَا
وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أَنَالَكَ بِالَّتِي كَرِهْتُ فَيُجْزِي الله مَنْ كَانَ أَظْلَمَا

وقد ردَّ ابن الزبير فيما ذكروا على هذه الأبيات بأبيات منها قوله :

أَغَرَّكَ أَنْ قَالُوا حَليمٌ بِقُدْرَةٍ وَلَيْسَ بِذِي حِلْمٍ وَلَكِنْ تَحَلَّمَا
وَأُقْسِمُ لَوْلَا بَيْعَةٌ لَكَ لَمْ أَكُنْ لأَنْقُضَهَا ، لَمْ تَنْجُ مِنِّي مُسَلَّمَا

ويروى أنه حين اشتدت علَّتُهُ قال لأهله : احشوا عينيَّ إثمدا وادهنوا رأسي ، ثم مَهّدَ[1] ، فجلس ، وأذِنَ للناس ، فسلموا قياماً ولم يجلس أحد . فلما خرجوا من عنده خالوه أصحَّ الناس . فقال معاوية عند خروجهم شعرَ أبي ذؤيب الهذلي :

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ
وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وذكر ابن رشيق له شعرا في رواية عن ابن الكلبي عن عبد الرحمن المدني ، قال : لما حضرت معاوية الوفاة جعل يقول :

إنْ تُنَاقِشْ يَكُنْ نِقَاشُكَ يَارَبِّ عذَاباً لَا طَوْقَ لِي بِالعَذَابِ[2]
أَوْ تَجَاوَزْ ، فَأَنْتَ رَبٌّ رَؤُوفٌ عَنْ مُسِيءٍ ذُنُوبُهُ كَالتُّرَابِ

وروى له أيضاً :

فَقَدْتُ سَفَاهَتِي وَأَرَحْتُ غَيِّي وَفِيَّ عَلَى تَحَلُّمِيَ اعْتِرَاضُ
عَلَى أَنِّي أُجِيبُ إِذَا دَعَتْنِي إِلى حَاجَاتِهَا الحَدَقُ المِرَاضُ

وروى أبو علي القالي في الجزء الثاني من الأمالي في الصفحة ٣٠٤ قال : وحدثنا أبو بكر قال : حدثنا أبو عثمان عن التوزي عن أبي عبيدة قال : أنشدني

---

(١) مهد : من المهاد وهو الفراش .
(٢) لا طوق : لا طاقة انظر العمدة ١/ ٣٥ .

رجل من ولد هشام بن عبد الملك لمعاوية بن أبي سفيان :

قَدْ عِشْتُ فِي الدَّهْرِ أَلْوَاناً عَلَى خُلُقٍ شَتَّى وَقَاسَيْتُ فِيهِ اللِّينَ وَالطَّبَعَا
كُلاًّ لَبِسْتُ فَلاَ النَّعْمَاءُ تَبْطِرُنِي وَلاَ تَعَوَّدْتُ مِنْ مَكْرُوهِهَا جَشَعَا
لاَ يَمْلأُ الأَمْرُ صَدْرِي قَبْلَ مَصْدَرِهِ وَلاَ أَضِيقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

وجاء في العُمْدَةِ في محاسن الشعر وآدابه ونقده ١/٣٥ شعرٌ لمعاوية بن أبي سفيان ، وهو من قوله أيضاً ، وهو لائقٌ به ، دالٌّ على صحة ناقله :

إِذَا لَمْ أَجُدْ بِالحِلْمِ مِنِّي عَلَيْكُمُ فَمَنْ ذَا الَّذي بَعْدِي يُؤَمَّلُ لِلْحِلْمِ ؟!
خُذِيهَا هَنِيئاً وَاذْكُرِي فِعْلَ مَاجِدٍ حَبَاكِ عَلَى حَرْبِ العَدَاوَةِ بِالسِّلْمِ

وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه ٣/٢٣٢ قوله : وقال معاوية حين حضرته الوفاة :

أَلاَ لَيْتَنِي لَمْ أَغْنَ فِي المُلْكِ سَاعَةً وَلَمْ أَكُ فِي اللَّذَاتِ أَعْشَى النَّوَاظِرِ
وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بِبُلْغَةٍ لَيَالِيَّ حَتَّى زَارَ ضَنْكَ المَقَابِرِ

وجاء في العقد الفريد ٣/١٨٠ قوله : وتمثل معاوية عند الموت بهذا البيت :

هُوَ المَوْتُ لاَ مَنْجَي مِنَ المَوْتِ وَالَّذي نُحَاذِرُ بَعْدَ المَوْتِ أَنْكَى وَأَفْظَعُ

ثم قال : اللَّهُمَّ فأَقِلِ العثرة ، واعفُ عن الزلّة ، وعِدّ بحلمِكَ على جهل من لم يرجُ غيرَك ، ولم يثق إلاّ بكَ ، فإنَّك واسعُ المغفرة . ياربِّ ! أين لذي الخطأ مهرب إلاّ إليك .

وهناك من زعم أنَّ معاوية وهو على فراش الموت قال :

فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلِكْنَا وَهَلْ بِالمَوْتِ يَالَلنَّاسِ عَارُ

وإن كان لنا من كلمة نقولها في هذا الصدد . فإن عهد معاوية كان من أزهى العصور التي سبقته تقدماً وتنظيماً وتعريباً ، ففي عهده أُحدِثَ البريدُ إذْ

قُسِّمَتُ الطرق إلى منازل،وفي كل منزلة دواب مهيأ لحملِ البريد وكُتبِ الخليفة إلى البلدان ، وهو أوَّلُ من اتَّخذَ ديوان الخاتَم ، وعرَّب الدواوين ، واستكملت الفتوحات ببلاد سجستان ٤٣ هـ وودان من برقة ، وكور من السودان ، وقوهستان ٥٠ هـ .

وعن الهيثم بن عدي قال : لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ويزيد غائبٌ ، دعا الضحاكَ بن قيس الفِهْريَّ ومُسلم بن عُقبة المُرِّيّ ، فقال : أبلغا عني يزيدَ وقولا له : انظرْ إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعِتْرتك ، فمن آتاك منهم فأكرِمْه ، ومن قعد عنك فتعاهدْه ، وانظرْ أهلَ العراق ، فأن سألوكَ عزلَ عامل في كل يوم فاعزلْه ، فإن عَزْلَ عامل واحدٍ أهونُ من سَلِّ مئة ألف سيْفٍ ، ولا تدري على من تكون الدائرة ، ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلْهم الشِّعارَ دون الدِّثار ، فإنْ رابَكَ من عدوك ريبٌ فارمِهِ بهم ، ثم اردُدْ أهلَ الشام إلى بلدهم ، ولا يقيموا في غيره فيتأدَّبوا بغير أدبهم . لست أخافُ عليكَ إلا ثلاثة : الحسينَ بن علي ، وعبدَالله بن الزبير ، وعبدَالله بن عمر . فأمّا الحسينُ بن علي ، فأرجوا أن يكفيكَه الله ، فإنه قتلَ أباه[1] وخذَلَ أخاه . وأما ابنُ الزبير ، فأنه خِبٌّ ضبٌّ[2] ، وإن ظفرت به فقطِّعه إرْباً إرْباً . وأما ابنُ عمر فإنه رجل قَدْ وقذَه[3] الورعُ ، فخلِّ بينه وبين آخرته يُخَلِّ بينكَ وبين دُنياكَ .

ثم أخرجَ إلى يزيدَ بريداً بكتاب يستقدمه ويستحثه ، فخرج مسرعاً .

وقد روى المسعودي في مروج الذهب أربعة أبيات من الشعر في قصة عبدالله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، حين وفد عليه ، وكان استشار

(١) الضمير في قتل وخذل عائد إلى لفظ الجلالة الله .
(٢) الخب : ضد الغر وهو الخدّاع . والضب : المراوغ .
(٣) وقذه : أنهكه .

عَمْرَو بن العاص ، فأشار عليه بقتله ، ولكن معاوية ، عفا عنه ، وقال ذلك :

أَرَى العَفْوَ عَنْ عُلْيَا قُرَيْشٍ وَسيلَةً   إلى الله في يَوْمِ العَصيبِ القَمَاطِرِ[1]
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلي الغَدَاةَ ابْنَ هَاشِمٍ   بِإِدْرَاكِ ثَأْرِي في لُؤَيٍ وَعَامِرِ[2]
بَلِ العَفْوَ عَنْهُ بَعْدَمَا بَانَ جُرْمُهُ   وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الجُدُودِ العَوَاثِرِ[3]
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفينَ جَمْرَةً   عَلَيْنَا ، فَأَرْدَتْهُ رِمَاحُ نَهَابِرِ[4]

نظر معاوية أثناء موقعة صفين إلى عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي معفراً بدمائه ، وكان على ميسرة جيش علي ، وأراد معاوية أن يمثل به ، فقال له عبدالله بن عامر وكان صديقاً لابن بديل : والله لا تركتك وإياه ! فوهبه إياه ، فغطاه بعمامته وحمله فواراه . فقال معاوية : قد والله واريت كبشاً من كباش القوم وسيداً من سادات خزاعة غير مدافع ، والله لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا ، ولو أنّا من جندل ، دون هذا الكبش ، وأنشأ يقول :

أَخُو الحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا   وَإِنْ شَمَّرَتْ يَوْماً بِهِ الحَرْبُ شَمَّرا
كَلَيْثٍ هِزَبْرٍ كَانَ يَحْمِي ذِمَارَهُ   رَمَتْهُ المَنَايَا قَصْدَهَا فَتَقَطَّرَا[5]

وقَدِمَ عمرُو بن العاص من مصر على معاوية في بعض الأيام ، فلما رآه معاوية ، قال :

يَمُوتُ الصَّالِحُونَ وَأَنْتَ حَيٌّ   تَخَطَّاكَ المَنَايَا لَا تَمُوتُ

فأجابه عمرو :

---

(١) القماطر : المظلم العابس .
(٢) لؤي وعامر : من أجداد قريش .
(٣) الجدود : الخطوط .
(٤) نهابر : مهالك . انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/١٧ - ١٩ .
(٥) المرجع السابق ٢/٣٩٨ .

فَلَسْتُ بِمَيِّتٍ مَـا دُمْـتَ حَيّـاً   وَلَسْـتُ بِمَيِّـتٍ حَـتّى تَمُـوتُ[1]

وحينما ظفر معاوية بجميل بن كعب الثعلبي وأسره ، وكان من سادات ربيعة وشيعة علي وأنصاره ، أمر معاويةُ أن تضرب عنقه : فقال : اللهمَّ اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك ، ولا لأنَّك ترضى قتلي ، ولكنْ قتلني على حُطام الدنيا ، فإن فعل فافعل به ما هو أهله ، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله .

فقال معاوية : قاتلك الله ! لقد سببتَ فأبلغت في السبِّ ، دعوتَ فبالغت في الدعاء ! ثم أمر به فأطلق ، وتمثَّل معاوية بأبيات للنعمان بن المنذر ، لم يقل غيرها ، فيما ذكر ابن الكلبي :

تَـعْـفُـوا المُلوكُ عَنِ الجَـلِيـ   ـلِ مِـنَ الأُمـورِ بِـفَـضْـلِهَـا
وَلَـقَـدْ تُـعَـاقِـبُ في اليَـسـ   ـيرِ وَلَـيْسَ ذَاكَ لِجَـهْـلِهَـا
إلَّا لِـيُـعْـرَفَ فَـضْـلُهَـا   وَيُخَـافُ شِـدَّةُ نَـكْـلِهَـا[2]

وذكر لوط بن يحي ، وابن دأب ، والهيثم بن عدي وغيرهم من نقلة الأخبار أن معاوية لما احتضر تمثل ، بقوله :

هُوَ المَوْتُ ، لَا مَنْجَى مِنَ المَوْتِ ، وَالَّذي   تُحَاذِرُ بَعْدَ المَـوْتِ أَدْهَى وَأَفْظَعُ

وذكر محمد بن إسحاق وغيره ، أن معاوية دخل الحمّام في بدء علته التي مات بها ، فلمّا رأى دثور جسمه ونحوله ، بكى وقال متمثلاً :

أَرَى اللَّيَـالي أَسْرَعَتْ في نَقْضي   أَخَـذْنَ بَعْضي ، وَتَـرَكْنَ بَعْضي
حَنَـيْنَ طُـولي ، وَحَنَـيْنَ عَـرْضي   أَقْعَدْنَني مِنْ بَعْدِ طُولِ نَهْضي[3]

ولما أزِفَ أمرُه ، وحان فراقُه ، واشتدت علّتُه ، وأيس من برئه ، أنشأ

---

(١) المرجع السابق ٣/٣٠ وتموت : حقها النصب وجاءت هكذا .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٣/٥٨ .
(٣) مروج الذهب للمسعودي ٣/٥٨ .

يقول :

فَيَالَيْتَنِي لَمْ أُغْنَ فِي المُلْكِ سَاعَةً ... وَلَمْ أَكُ فِي اللَّذاتِ أَعْشَى النَّوَاظِرِ
وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَينِ عَاشَ بِبُلْغَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى زَارَ أَهْلَ المَقَابِرِ

سبق أن قلنا إن معاوية بويع بالخلافة في شوال سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، ببيت المقدس ، وتوفي في رجب سنة إحدى وستين ، وله ثمانون سنة ، ودفن بدمشق بباب الصغير . فكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وثمانية أشهر[1] . وهو رأس الأسرة السفيانية الذين يسمون بالعنابسة .

ولما قتل عليٌّ ، بقي في نفس معاوية من يوم صفين على هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المِرْقالِ ، وولده عبدالله بن هاشم إِحَنٌ ، فلما استعمل معاوية زياداً على العراق كتب إليه ، أما بعد ؛ فانظر عبدالله بن هاشم بن عتبة ، فشُدَّ يَدَهُ إلى عُنُقِهِ ، ثم ابعثْ به إليَّ . فحمله زياد من البصرة مُقيَّداً مغلولا إلى دمشق ، وقد كان زيادٌ طَرَقَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فأُدخِلَ على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو ، هل تعرف هذا ؟

قال : لا .

قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صِفِّينَ :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلاَّ ... وَأَكْثَرَ اللَّومَ وَمَا أَقَلاَّ
أَعْوَرُ يَبْغِي أَهْلَهُ مَحَلاَّ ... قَدْ عَالَجَ الحَيَاةَ حَتَّى مَلاَّ
لاَبُدَّ أَنْ يَفُلَّ أَوْ يُفَلاَّ ... أَشُلُّهُم بِذِي الكُعُوبِ شَلاَّ
لاَ خَيْرَ عِنْدِي فِي كَرِيمٍ وَلَّى

فقال عمرو متمثلاً :

وَقَدْ يَنْبُتُ المَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣/١٠ .

دونك يا أميرَ المؤمنين الضبُّ المضبُّ ، فاشخب أوداجه على أسباجه ، ولا ترده إلى العراق ، فإنه لا يصبر عن النفاق ، وهم أهل غدر وشقاق[1] .

فرد عليه عبدالله بمقاله مفحمّة طويلة حتى حسمها معاوية فقال : إيهاً عنكما ، وأمرَ باطلاق عبدالله ، فقال عمرو لمعاوية :

أَمَـرْتُـكَ أَمْـراً جَـازِمـاً فَعَصَيْتَنِي ... وَكَانَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابنِ هَاشِمِ
أَلَيْسَ أَبُـوهُ يَـا مُعَـاوِيَـةَ الَّـذِي ... أَعَانَ عَلِيّاً يَـوْمَ حَزِّ الغَـلَاصِمِ
فَلَمْ يَنْثَنِي حَتَّى جَرَتْ مِنْ دِمَائِنَا ... بِصِفِّين أَمْثَالُ البُحـورِ الخَضَارِمِ
وَهَـذا ابْنُهُ وَالمَـرْءُ يُشْبِهُ شَيْخَـهُ ... وَيُوشِكُ أَنْ تَقْرَعَ بِهِ سِنَّ نَادِمَ

فقال عبدالله يجيبه :

مُعَاوِيَ إنَّ المَرْءَ عَمْراً أَبَتْ لَهُ ... ضَغِينَةُ صَدْرٍ غِشُّهَا غَيْرُ نَـائِمِ
يَرَى لَكَ قَتْلِي يا ابْنَ هِنْدٍ ، وَإِنَّمَا ... يَرَى مَا يَرَى عَمرٌو مُلوكُ الأَعَاجِمِ
عَـلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيـرَهُـمْ ... إِذَا مَنَعَتْ عَنْـهُ عُهُـودُ المُسَـالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّـينَ نُفْرَةٌ ... عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمٌ وابْنُ هَاشِمِ
قَضَى مَا انْقَضَى مِنها ، وَلَيْس الَّذِي مَضَى ... وَلَا مَا جَرَى إلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمِ
فَإِنْ تَعْفُ عَنِّي تَعفُ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ ... وَإِنْ تَـرَ قَتْلِي تَسْتَحِـلَّ مَحَـارِمِي

فرد عليه معاوية بأبيات مرت معنا ، مطلعها :

أَرَى العَفْوَ عَنْ عُلْيَا قُرَيْشٍ وَسِيلَةً ... إلى الله فِي يَوْمِ العَصِيبِ القَمَاطِرِ

إلحاق زياد بأبي سفيان . .

قال المسعودي : ولما هَمَّ معاوية بإلحاق زيادٍ بأبي سفيان أبيه ، وذلك سنة أربع وأربعين ، شهد عنده زيادُ بن أسماء الجرمازي ومالك بن ربيعة السلولي

(١) انظر تتمة الجند ١٧ ـ ٣/١٨ مروج الذهب .

والمنذر بن الزبير بن العوام أن أبا سفيان أخبر أنه ابنه، وأن أبا سفيان قال لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين ذُكر زيادٌ عند عمر بن الخطاب:

أَمَا والله لَوْلا خَوْفُ شَخْصٍ ... يَرَاني يَاعَلِيُّ مِنَ الأَعَادِي
لَبَيَّنَ أَمرَهُ صَخْرُ بنُ حَرْبٍ ... وَلَمْ يَكُنِ المُجَمْجِمُ عَنْ زِيَادِ
وَلَكِنِّي أَخَافُ صُرُوفَ كَفٍّ ... لَهَا نِقَمٌ وَنَفْيٌ عَنْ بِلادِي
فَقَدْ طَالَتْ مُحَاوَلَتِي ثَقِيفاً ... وَتَركي فِيهُمُ ثَمَرَ الفُؤَادِ[1]

ثم زادَ يقيناً إلى ذلك شهادةُ أبي مريم السلولي. وكان سبب ادِّعاء معاوية له فيما ذكره أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى قصةً يجدُها المتقصيٌ في الجزء الثالث من مروج الذهب للمسعودي. قال على أثرها عبد الرحمن بن أم الحكم، وقيل بل يزيد بن مُفْرِغ الحميري:

ألا أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بنَ حَرْبٍ ... مُغَلْغَلَةً عَنِ الرَّجُلِ اليَمَاني
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ عَفٌّ ... وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ: أَبُوكَ زَاني؟
فَأَشْهَدُ أَنَّ رِحْمَكَ مِنْ زِيَادٍ ... كَرِحْمِ الفِيلِ مِنْ وَلَدِ الأَتَانِ[2]

(١) مروج الذهب للمسعودي ١٤ - ٣/١٥ .
(٢) المرجع السابق ٣/١٧ .

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
٢٦ - ٦٤ هـ/٦٤٥ - ٦٨٣ م

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مَناف، وأمُّه ميسون بنتُ بَحْدَل الكلبي بن أُنيف بن دلجة بن قُنانة، أحدُ بني حارثة بن جَناب. وكُنيته أبو خالد، وكان آدَمَ جعداً مهضوماً أحورَ العينين، بوجهه آثارُ جُدري، حسنَ اللِّحية خفيفَها، وَليَ الخلافة في رجب سنة إحدى وستين، ومات في النصف من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، ودفن بِحُوَّارينَ خارجاً من المدينة، وكانت ولايتُه أربعَ سنين وأيّاماً.

تلقى يزيدُ البريدَ، فأَخْبَرَهُ بموت معاوية، فقال:

جَاءَ البَرِيدُ بِقِرْطَاسٍ يَخُبُّ بِهِ ... فَأَوْجَسَ القَلْبُ مِنْ قِرْطَاسِهِ فَزَعَا
قُلْنَا لَكَ الوَيْلُ مَاذَا في صَحيفَتِكُمْ ... قَالُوا الخَليفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِعَا
فَمَادَتِ الأَرْضُ أَوْكَادَتْ تَميدُ بِنَا ... كَأَنَّ أَغْبَرَ مِنْ أَرْكَانِهَا انْقَلَعَا
ثُمَّ انْبَعَثْنَا إلى خُوصٍ مُزَمَّمَةٍ ... نَرْمي العَجَاجَ بِهَا مَا نَأتلي سَرَعَا[1]

---

(١) خوص: جمع خوصاء يعني نوقا غائرة العيون من كثرة الأسفار. السرع: السريعة.

فَمَا نُبَالِي إِذَا بَلَغْنَ أَرْحُلَنَا ... مَا مَاتَ مِنْهُنَّ بِالْمَوْمَاةِ أَوْضَلَعَا[1]
أَوْدَى ابنُ هِنْدٍ وَأَوْدَى المَجْدُ يَتْبَعُهُ ... كَذَاكَ كُنَّا جَمِيعاً قَاطِنِينَ مَعَا
أَغَرُّ أَبْلَجُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِهِ ... لَوْ قَارَعَ النَّاسَ عَنْ أَحْلامِهِمْ قَرَعَا
لا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَى وَلَوْ جَهَدُوا ... أَنْ يَرْقَعُوهُ وَلا يُوهُونَ مَارَقَعَا[2]

قال ابنُ دأبٍ: لمَّا هلك معاوية، خرج الضحَّاكُ بن قيس الفِهرِيُّ وعلى عاتقه ثيابٌ حتى وقف إلى جانب المنبر، ثم قال: أيها الناس، إن معاوية كان إلْفَ[3] العرب وملكَها، أطفأ الله به الفتنةَ، وأحْيَا به السُّنَّة، وهذه أكفانُه، ونحن مُدْرجوه فيها ومُخلون بينه وبين ربِّه، فمن أرادَ حضوره صلاة الظهر فليحضُرْه. وصلَّى عليه الضحاك بن قيس الفهري.

ثم قدمَ يزيدُ من يومه ذلك، فلم يَقْدمْ أحدٌ على تعزيته، حتى دخل عليه عبدُ الله بن همَّامٍ السَّلولي، فقال:

اصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَةٍ ... وَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذي بِالْمُلْكِ حَابَاكَا
لا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الأَقْوَامِ قَدْ عَلِمُوا ... مِمَّا رُزِئْتَ وَلا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا
أَصْبَحْتَ رَاعِيَ أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمُ ... فَأَنْتَ تَرْعَاهُمُ وَاللهُ يَرْعَاكَا
وَفِي مُعَاوِيَةَ البَاقِي لَنَا خَلَفٌ ... إِذَا بَقِيتَ فَلا نَسْمَعْ بِمَنْعَاكَا

فافتتح الخطباء الكلام، ثم دخل يزيدُ فأقام ثلاثة أيَّام لايخرج للناس، ثم خرج وعليه أَثَرُ الحزن، فصعِدَ المِنْبَر، وأقبل الضحاك فجلس إلى جانب المنبر، وخاف عليه الحصْرَ.

---

(١) الموماة: الفلاة البلقع.
(٢) قال محمد بن عبد الحكم: قال الشافعي: سرق هذين البيتين من الأعشى الأخير وماقبله.
(٣) إلف: عمود.

فقال له يزيدُ: ياضحاك! أجئتَ تعلِّمُ بني عبد شمسٍ الكلام!؟[1]

ثم قام خطيباً فقال: الحمد لله الذي ماشاءَ صنع، من شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع. إنَّ معاوية بن أبي سفيان كان حبلاً من حبال الله، مدَّهُ الله ماشاءَ أن يَمُدَّهُ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعَه. فكان دون مَنْ قبلَه، وخيراً ممن يأتي بعده، ولا أُزكِّيه وقد صار إلى ربِّه، فإنْ يَعفُ عنه فَبِرَحْمته، وإنْ يُعَذِّبْه فبذنبه. وقد وَلِيتُ بعده الأمرَ، ولستُ أعتذر من جهل، ولا أَنِي عن طلب، وعلى رِسْلِكم، إذا كَرِهَ الله شيئاً غيَّرَهُ، وإذا أرادَ شيئا يَسَّرَهُ.

أولاده. . أعقب يزيدُ؛ معاويةَ وخالداً، وأبا سفيان، أُمُّهُم فاختةُ بنت أبي هاشم ابن عتبة بن ربيعة. وأعقب كذلك عبدَ الله وعمْراً، أُمُّهما أم كلثوم بنت عبد الله بن عباس. وله ابنة واحدة هي عاتكة[2].

وكان خالد بن يزيد أوّلَ من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء. وكان من رجال قريش البارزين في السخاء وقوة العارضة والفصاحة والخطابة والوجاهة[3].

وكان أستاذه القس هارون الإسكندري، وهو الذي نقل إليه علوم السريان والقبط والروم[4].

وروى الأصمعي عن أبي عمرٍو قال: أعرق الناس في الخلافة عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ أبوها خليفة، وجدها معاوية خليفة، وأخوها

---

(١) العقد الفريد ٣٧٣ - ٣٧٤.
(٢) العقد الفريقد ٤/٣٧٥.
(٣) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأمو ي للباحث محمد حسن عواد صفحة ٢٩.
(٤) المرجع السابق.

معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وأَرِبَّاؤُها[1]؛ الوليد وسليمان وهشام خلفاء[2].

وكانت فوق ذلك كله جدةً لخليفة شاعر هو الوليد بن يزيد الذي سبق أباها في هذا الميدان[3].

ولم ينقطع الشعر والأدب في هذه الدوحة بموت يزيد، فكان ابنه خالد عالما وشاعراً، وكانت عاتكة أديبةً، وكان عبد الله ناسكاً، ولم يكن في بني أمية أزهد من هذا، ولا أعلم من ذاك.

من ظلموه، ومن أنصفوه...

ليس بين الملوك أو الخلفاء في الإسلام مَنْ ظُلِمَ كيزيد بن معاوية، فقد تناولتْه أقلامُ بعض المؤرخين بالنقد والطعن بلغ حدَّ السبِّ والشتم والتجريح، لأسباب معروفة، ليس هو المسؤولُ عنها لوحده؛ قَمْعُ ثورة الحسين بن علي وقتله، والتغلُّب على ثورة عبد الله ابن الزبير وقتله، واستباحَ قُوَّادُه المدينة، وحاصروا مكّةَ وأضرموا النار في الكعبة.

وعلى الرغم مِمَّا قاله هؤلاء «لم يفتْهم أَنْ يذكروا عنه أنَّه كان بطلاً عظيما، وفارساً شجاعا، وشاعراً كبيرا. بل قد نَسب إليه بعضهم وقائع من البطولة ندر أن نُسِبَ مثلُها إلى أشهر الأبطال في الإسلام. ودافع عنه بعضهم فذكر عنه مايفيد أنه لم يكن راضيا عن قتل الحسين، وأنه حين أتاه مَنْ أخبره بقتل الحسين» كما روى رَوْحُ بن زِنْبَاع عن أبيه عن الغاز بن ربيعة الجُرشي قال: إنّي لَعِند يزيد بن

(١) أربّاؤها: مَنْ ربتهم وهم أولاد عبد الملك من غيرها وقامت هي بتربيتهم.
(٢) العقد الفريد ٣٧٦/٤ .
(٣) الملوك الشعراء ٤٧ .

معاوية. . وقدَّمَ وصفاً للموقف عند ورود النبأ مطولا. . قال: فدمعت عَيْنَا يزيدَ وقال: لقد كنت أقنع من طاعتكم[1] بدون قتل الحسين، لعن الله ابنَ سُمَّيةٌ أما والله لو كنتُ صاحبَه لتركْتُه، رحم الله أبا عبد الله وغفر له[2].

وروى صاحب العقد الفريد أن يزيد استشار بعض من حضره في أمر من بقي مَن جماعة الحسين حين أُتِيَ بهم إليه في السبْيِ، فأشار عليه النعمان بن بشير الأنصاري أن يصنع بهم ماكان يصنعه رسول الله ﷺ بهم لو رآهم في هذه الحالة، قال يزيد: صدقْتَ! خَلُّوا عنهم واضربوا عليهم القباب، وأمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج إليهم جوائز كثيرة. وقال: لو كان بين ابن مَرْجانةَ وبينهم نسبٌ ماقتلهم، ثم رَدَّهم إلى المدينة[3].

وفي رواية أخرى عن أبي الحسن المدائني، عن إسحاق عن إسماعيل بن سفيان عن أبي موسى عن الحسن البصري، قال: قُتِلَ مع الحسين ستة عشر من أهل بيته. والله ماكان على الأرض يومئذ أهل بيت يُشَبَّهون بهم. وحمل أهل الشام بناتِ رسول الله ﷺ سبايا على أحقاب الإبل. فلما أُدْخِلْن على يزيد، قالت فاطمةُ بنت الحسين: يايزيد! أبنات رسول الله ﷺ سبايا!؟

قال: بل حرائر كرام. ادخلي على بنات عمك تجديهنَّ قد فَعلْنَ مافعلْتِ.

قالت فاطمة: فدخلتُ إليهم فما وجدت فيهنَّ سُفْيَانِيَّةً إلا مُلْتَدِمَةً[4] تبكي[5].

---

(١) يخاطب ناقلي نبأ مقتل الحسين.
(٢) انظر العقد الفريد ٤/٣٨١ .
(٣) العقد الفريد ٤/٣٨٢ .
(٤) ملتدمة: من التدمت المرأة: ضربت صدرها في النياحة والعويل.
(٥) العقد الفريد ٤/٣٨٣ .

وجاء في حياة الحيوان الكبرى للدميري: أن يزيد بن معاوية لمّا سمع مقالة قاتلي الحسين، دمعت عيناه وقال: ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن مَرجانة والله لو كنتُ صاحَبه لعفوتُ عنه. ثم قال: رحم الله أبا عبد الله، ثم أمرّ بالذرية فأدخلوا دار نسائه[1].

ويروى أن المؤرخ الكبير الطبري ذكر في تاريخه مايفيدُ أن يزيدَ بن معاوية نظم شعراً وكتب به إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين، قال: وذكر الفضل بن عباس الهاشمي أن عبد الله بن محمد المِنقري حدَّثه عن أبيه قال: دخل عيسى بن دأبٍ على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخٍّ، فوجده خائفاً يلتمس عُذراً مِنْ قَتل مَنْ قُتل، فقال له: أصلح الله الأمير! أُنشدُكَ شعراً كتب به يزيدُ بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين ابن علي رضي الله عنه؟.

قال: أنشدني. فأنشدته، وقد اخترنا من القصيدة الأبيات التالية:

يَـاأَيُّهَـا الـرَّاكِبُ الغَـادِي لِـطِّيبِـهِ ... عَـلَى غَذَافِـرَةٍ في سَيْـرِهَـا قُحَمُ
أَبْلِغْ قُرَيْشاً عَلَى شَحْطِ المَزَارِ بِهَا ... بَيْنِي وَبَيْنَ حُسَيْنٍ، الله وَالرَّحِمُ
وَمَــوْقِفٌ بِفِنَــاءِ البَيْتِ أُنْشِـدُهُ ... عَهْدَ الإِلَهِ وَمَا تُرْعَى لَهُ الذِّمَمُ
عَنَّفْتُمُ قَــوْمَكُمْ فَخْــراً بِــأُمِّكُمُ ... أَمٌ حَصَـانٌ لَعَمْـرِي بَـرَّةٌ كَـرَمُ
هِيَ الَّتِي لايُـدَانِي فَضْلَهَا أَحَـدٌ ... بِنْتُ النَبِيِّ وَخَيْرُ النَّاسِ قَدْ عَلِمُوا

قال: فَسُرِّيَ عن موسى بن عيسى بعض ماكان فيه[2].

وقد كان معاوية أغزى في سنة خمس وأربعين سفيان بن عوف العامري، وأمره أن يبلغ الطوانة، فأصيب معه خلق من الناس، فعمَّ الناسَ الحزنُ بمن

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ١/٨٨.
(٢) تاريخ الرسل والملوك ٣/٥٦٥ - ٥٦٧.

أصيب بأرض الروم، وبلغ معاوية أنّ يزيد ابنه لما بلغه خبرهم وهو على شرابه مع ندمائه قال:

أَهْـونْ عَلَيَّ بِمَـا لاقَتْ جُمُـوعُهُمُ ... يَوْمَ الطُّوَانَةِ مِنْ حُمَّى وَمِنْ مُومِ[1]

إِذَا اتَّكَأْتُ عَلَى الأَنْمَاطِ مُرْتَفِقـاً ... بِـدَيْرِ مُـرَّانَ عِنْـدي أُمُّ كُلْثُـومِ

فحلف معاوية عليه ليغزُوَنَّ، وأردفَ به سفيانَ، فسميت هذه الغزاة؛ غزاة الرادفة، وبلغ الناس فيها إلى القسطنطينية،وفيها كما سيأتي مات أبو أيوب الأنصاري، ودفن على باب القسطنطينية، واسم أبي أيوب: خالد بن يزيد. وقيل غير ذلك: إنه مات سنة إحدى وخمسين غازياً مع يزيد، وقد أتينا على خبر هذه الغزاة، وما كان من يزيد فيها[2].

ويحدثنا هؤلاء الرواة عن جانب من فروسية يزيد وشجاعته أنّه غزا الصائفة حتى بلغ أسوار القسطنطينية، فكان جنده أوَّل جند في الإسلام بلغ أسوارها. ويقولون: إنّه لما نشبت الحرب قربها، نُظِرَ إلى قُبَّتين مبنيتين مكسوتين بالديباج، فإذا كانت الحملة للعرب ارتفعت من إحداهما أصوات الدفوف والطبول والمزامير، وإذا كانت الحملة للروم ارتفعت الأصوات من الأخرى. فسأل يزيد عنهما فقيل له: هذه بنت جبلة بن الأيهم، وتلك بنت ملك الروم، وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها،فقال يزيد: أما والله لأَسُرَّنَّهَا! ثم كف العسكر وحمل بنفسه حتى هزم الروم، فأحجزهم في المدينة، وضرب باب القسطنطينية بعمود حديد كان في يده فهشمه حتى انخرق[3].

---

(١) بعض النسخ ومن شوم.

(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣٣/٣ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري ٢٣٢٤/٣ .

وقد جاء في العقد الفريد أنه كان قد اصطحب في غزوته تلك ، الصحابي الجليل أبا أيُّوب الأنصاري ـ الذي كان يحمل راية النبي محمد ﷺ في المعارك ـ تبركاً بوجوده معه ، فلما ثقل عليه المرض أتاه يزيد عائداً فقال : ما حاجتك أبا أيوب ؟

فقال : أما دنياكم فلا حاجة لي فيها ، ولكن قدمْني ما استطعت في بلاد العدو ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح ، أرجو أن أكون هو[1] .

فلما مات في تلك الغزوة ، أمر يزيد بتكفينه وحمله على نعش ، فجعل قيصر يعجب من ذلك ، فأرسل يسأل يزيد ما هذا الذي أرى ؟ فأجاب يزيد : صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدِّمه في بلادك ، ونحن منفذون وصيَّته أو تلحقَ أرواحُنا بالله .

فأرسل إليه : العجب كلّ العجب ؛ كيف يدهى[2] الناس أباك وهو يرسلك . فتعمد إلى صاحب نبيِّك فتدفنه في بلادنا ؟ فإذا ولِّيت أخرجناه إلى الكلاب !

فقال يزيد : إني والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودعَ كلامي آذانكم ، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له ، لئن بلغني أنه نُبِش من قبره أو مُثِّل به ، لا تركت بأرض العرب نصرانياً إلّا قتلته ، ولا كنيسةً إلا هدمْتُها .

فبعث إليه قيصر : أبوك كان أعلمَ بك ، فوحقِّ المسيح لأحفظنَّه بيدي سنة .

---

(١) هكذا في الأصل والأصح أكونه .
(٢) يدهى ، ودهاه : نسبه إلى الدهاء .

ويقول صاحب العقد الفريد : فلقد بلغني أنه بني على قبره قبة يُسْرَجُ فيها إلى اليوم[1] . وأصبح ولياً فيما بعد عند العرب والروم والترك[2] .

ويزعم بعض المؤرخين أن يزيد بن معاوية كان أوَّل مَن اكتسب لقب فتى العرب في الإسلام[3] . وجاء في الأغاني أنه حين تولّى يزيد الخلافة بعد أبيه ، وثارت عليه المدينة ، وأخرجت بني أميَّة منها وسمع بالخبر ، وبإنسحاب أهل عشيرته منها ، نقم عليهم ، أنَّهم جبنوا ولم يقاتلوا ساعة من نهار[4] .

وقال فيه الضحَّاك بن قيس في مجلس معاوية : يا أمير المؤمنين !! إنه لابدَّ للناس من والٍ بعدك ، والأنفُسُ يُغدَى عليها ويُراح . وإنَّ الله قال : كلَّ يوم هو في شأن . ولا ندري ما يختلف به العصران ، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن مَعْدِنه ، وقَصْدِ سيرته ، من أفضلنا حِلْماً ، وأحكمنا علماً ، فَوَلِّهِ عهدَك ، واجعله لنا عَلَماً بعدكَ ، وإنَّا قد بلونا الجماعة والألفة فوجدناه أحقن للدماء ، وآمن للسبل ، وخيراً في العاجلة والآجلة[5] .

وقال فيه عمرو بن سعيد وهو من رجالات بني أمية المعدودين يخاطب قومه : أيها الناس ، إن يزيدَ أملٌ تأملونه ، وأجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع ، إذا صرتم إلى عدله وسعكم ، وإنْ طلبتم رفده أغناكم ، جذع قارح ، سوبق فسبق ، ومُوجِدَ فَمَجَد ، وقُورِعَ فَقَرَعَ[6] .

---

(١) يسرج : يوقد فيها السراج .
(٢) تاريخ العرب ١/٢٦٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الأغاني ١/١٤ .
(٥) العقد الفريد ٤/٣٦٩ـ ٣٧٠ .
(٦) المرجع نفسه .

ووصف عبدالله بن عباس معاوية ، فقال : كان حلمُه قاهراً لغضبه ، وجودُه غالباً على منعه ، يصلُ ولا يقطع ، ويجمعُ ولا يفرق ، فاستقام له أمره ، وجرى إلى مدته . قيل : فأخبرنا عن ابنه ، قال : كان في خير سبيله ، وكان أبوه قد أحكمه ، وأمره ونهاه ، فتعلق بذلك ، وسلك طريقاً مذلّلاً له[1] . وقال في مناسبة أخرى : إذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس .

كرمه ونجدته . .

ويروى عن كرمه ونجدته حكايات تتجاوز كلّ حدٍّ ، تدلُّ كلُّها على خلاله العربية النبيلة وشعوره الرقيق ، منها قصّة «سلاّمة» التي يرويها صاحب الأغاني[2] ومفادها أن هذه الجارية كانت تسكن المدينة ، وهي من أحسن الناس وجهاً وأتمّهن عقلاً ، أحبَّها كلٌّ من عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد ، وكانا يختلفان إليها فيروِّيانها الشعر ويناشدانها إياه . فعلقت الأحوصَ وصدَّت عند عبد الرحمن ، فعاتبَها ، وعاتبته وتلاحيا وتناشدا الشعر . فلما رآها قد أصرَّت على حبِّ الأحوص ، أضرب عنها . وأضمر المكيدة لهما ، فارتحل إلى الشام ممتدحاً يزيد بنَ معاوية ، وبعد أن أكرمه ، أدلى بمكيدته ليفرِّق بين الجارية والأحوص ، فذكر ليزيدَ خبرَ جارية خلّفها بالمدينة من أجمل الناس وأكملهم ، وأنها لا تصلح إلاّ أن تكون من خدم أمير المؤمنين .

فأرسل يزيدُ فاشتريت له وحملت إليه ، فوقعت منه موقعاً حسناً ، وفضلها على جميع جواريه . وقدم عبد الرحمن المدينة ، ومرَّ بالأحوص وقد افترسته الهمومُ ، فأراد أن يزيدَ إلى ما به ، فقال أبياتاً ذكر فيها الجارية التي أصبحت في دار الخليفة ، وليس للأحوص إلاّ أن يسلوَها ويعزيَ جراح قلبه ، فأمسكَ الأحوصُ

---

(١) العقد الفريد ٣٦٣/٤ .

(٢) انظ الأغاني ١٣٤/٩ - ١٣٦ .

عن جوابه ، ثم أرسل مع شابين من بني أمية قصيدة إلى الجارية يشكو بها لوعته . ولما اشتدَّ به الحنين وغلبه الشوق خرج بنفسه إلى يزيد ممتدحاً فأكرمه ، ودسَّت إليه الجارية خادماً ورشته ليدخله إليها . فأخبر الخادمُ يزيدَ ، فأمره أن يمضي بالرسالة ، ففعل ، وأدخل الأحوصَ إليها ، وجلس يزيدُ بحيث يراهما ويسمع كلامهما . وبعد أن بكيا وتناجيا دون أن تكون بينهما ريبة ، ثم ودَّعها وخرج .

فأخذه يزيد ودعا بها فقال : أخبراني عما جرى بينكما واصدقاني ، فأخبراه وأنشداه ما قالاه ، فلم يخرما حرفاً ولا غيَّرا شيئاً مما سمعه ، فقال له : أتحبُّها يا أحوصُ ؟ فأجابه وأنشده ، وسألها فأجابتْ وأنشدتْ . فقال يزيدُ : إنكما لتصفان حبّاً شديدا ، خُذها يا أحوص فهي لكَ ، ووصله بصلة سنيَّة ، وانصرف بها وبالجارية إلى الحجاز وهو من أقرِّ الناس عيناً .

وقصتهُ مع قيس بن ذريح لمَّا أهدرَ معاويةُ دمَه بعد أن شكاه أهل لُبنى ، تدل على أرقِّ المشاعر وأصفى الطباع ، فقال له : إنْ تشأ أكتبُ إلى زوج لبنى فيطلقها فأوزجكَ إياها .

فقال قيس : لا أريد ذلكَ ، ولكني أحب أن أقيم حيث تقيم من البلاد ، أتعرَّف أخبارها ، وأقنع بذلك منها . فأخذ له كتابَ أبيه بأن يقيمَ حيث شاء وأَحبَّ دون أن يعترض عليه أحد[1] .

وكان يزيدُ شهماً كريماً صاحبَ أريحية ، قال فيه نافع مولى عبدالله بن جعفر : فوالله ما رأيت فتى أشرف أريحية منه ، والله لألقى عليَّ من الكُساء الخزِّ والوشي وغيره ما لم أستطع حملهُ ، ثم أمر لي بخمس مئة دينار[2] .

---

(١) المرجع السابق ٢١١/٩ - ٢١٢ .
(٢) الأغاني ١٤٢/٨ .

وروى صاحب العقد الفريد : أن أشراف الحجاز كانوا يفدون عليه ، فيغنيهم عن السؤال ، ويأتيه عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو في جوده ونبله وكرمه محتده ، فيسأله يزيدُ : كم كان عَطَاؤك ؟ فيقول عبدالله : ألف ألف . قال : أضعفناها لك . فيجيب عبدالله : فداك أبي وأمّي ، وما قلتها لأحد قبلك . فيقول يزيد : قد أضعفناها لك ثانية . فيقال ليزيد : أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف ؟ فيقول : ويحكم ! إنما قد أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده فيها إلاّ عارية[1] .

وكان يزيد بن معاوية صاحب نجدة ونخوة ، يحمي المستجيرَ ، ويغيثُ الملهوف . ويصون من يلتجىء إليه ، ويفك العاني ـ ويجيزُ العفاةَ ، وينصف المظلومين ، ويمسح بيد العطف على ذوي الحاجات والمعوزين ، ولن نستطيع أن نتتبع أياديه البيضاء عند الخلائق .

استجار به الأخطل الشاعر من أمر الخليفة معاوية بقطع لسانه بجريرة هجوه الأنصار وغضب النعمان بن بشير ، فأجاره وحماه ، وقال يزيد في ذلك :

دَعَا الأَخْطَلُ المَلْهُوفُ بِالشَرِّ دَعْوَةً ... فَـأَيِ مُجِيبٍ كُنْتُ لَمَّا دَعَـانِيَـا
فَفَرَّجَ عَنْهُ مَشْهَدَ القَوْمِ مَشْهَدِي ... وَأَلْسِنَـةُ الـوَاشِـينَ عَنْـهُ لِسَـانِيَـا

فلما لم تقم البيِّنة على الأخطل كما طلب يزيد ، خلِّي سبيله ، فقال يمدح يزيد بقصيدة منها قوله :

وَإِنِّي غَدَاةَ اسْتَعْبَرَتْ أُمُّ مَـالِكٍ ... لَرَاضٍ مِنَ السُّلْطَانِ أنْ يَتَهَدَّدَا[2]
وَلَـوْلَا يَزِيـدُ ابنُ المُلُوكِ وَسَعْيُهُ ... تَجَلَّلْتُ حِدْبَاراً مِنَ الشَرِّ أَنْكَدَا[3]

---

(١) العقد الفريد ٢/٧٠ .
(٢) أم مالك : زوجة الأخطل .
(٣) تجللت : علوت . الحدبار من النوق : الضامرة التي أنحفها السرى .

فَكَمْ أنْقَذْتني مِنْ خُطُوبٍ حِبَالُهُ وَخَرْسَاءَ لَوْ يُرْمَى بِهَا الفيلُ بَلَّدا[1]
وَدافَـعَ عَنِّي يَـوْمَ جِلَّقَ غَمْـرةً وَهَمّـاً يُنَسِّيني الشَّرَابَ المُبَـرَّدَا[2]

والقصة مشهورة وقد أطالت بها كتب الأدب[3] .

واستجار به أرطاة يوما ، فدافع عنه وحماه وأكرمه وأعطاه مالاً . ولجأ إليه المتوكل الليثي فأجاره وأعلى مكانته فقال يمدحه :

أَبَـا خَالـدٍ حَنَّتْ إِلَيْـكَ مَـطِيَّتِي عَلَى بُعْدِ مُنْتَـابٍ وَهَوْلِ جَنَـانِ
تَنَاهَتْ قُلُوصي بَعْدَ إِسادِي السُّرَى إِلىٰ مَلِكٍ جَزْلِ العَطَاءِ هِجَـانِ
تَرَى النَّاسَ أَفْوَاجاً يَنُوبُونَ بَابَهُ لِبَكْـرٍ مِنَ الحَاجَـاتِ أَوْ لِعَـوَانِ

وآوى فضالة بن شريك حينما جاءه فاراً من عاصم بن عمر بن الخطاب فأجاره وأكرم مثواه ، وأجزل له رفده ، فقال هذا يمدحه :

إِذَا مـا قُرَيْشٌ فَـاخَرَتْ بِقَـدِيمِهـا فَخَـرْتَ بِمَجْـدٍ يَـا يَـزِيـدُ تَليـدُ
فَمَنْ ذَا الَّذي إِنْ عَدَّدَ النَّاسُ مَجْدَهُمْ يَجِيءُ بِمَجْـدٍ مِثْـلَ مَجْـدِ يَـزِيــدِ

وعاذ به الشاعر عبدالله بن الزبير الأسدي فأعاذه وقام بأمره ، فمدحه بقصيدة يصف فيها جيشة منها قوله :

فَفِي رَجَبٍ أَوْ غُرَّةِ الشَّهْرِ بَعْدَهُ تَـزُورُكُمُ حُمْـرُ المَنَـايَـا وَسُــودُهَـا
ثَمَانُونَ أَلْفـاً دِينُ عُثْمَانَ دِينُهُمْ كَتَـائِب فيهَـا جُبْـرَئِيـلُ يَقُـودُهُـا

---

(١) الخرساء : الداهية . بلّدا : ضعف واستكان .
(٢) الغمرة : الشدة . والسلاف بدلاً من الشراب في بعض الروايات : وهو ما سال من العنب قبل أن يعصر .
(٣) انظر الأغاني ١٦/٣٤ - ٣٣ .

سياسته وأعماله . .

كان يزيد سياسياً لبقاً ذا دهاء وعقل حكيم ، على الرغم مما وصم به من ظلم وقسوة كيف لا ! وهو ابن سيِّد دُهاة العرب ، فعلى يده تعلَّم وحذوة سلكَ ، ويروى أن أباه رآه مرَّة يضربُ غلاماً له ، فنهاه وقال له : أتفسدُ أدبكَ في أدبه ؟ فلم يُرَ ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقد أراد وهو أمير أن يعرف أثر ترشيحه للخلافة بعد أبيه ، في نفوس الناس من أقربائه ، فأوعز إلى الشاعر مسكين الدارمي أن يشير إلى هذا الأمر في مجلس معاوية .

فقال مسكين أبياته المشهورة التي أولها :

إذَا المِنْبَرُ الغَرْبِيُّ خَلاَّهُ رَبُّهُ فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنينَ يَزِيدُ

فلم يتكلم أحد من بني أمية . وقال معاوية لمسكين : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله[1] .

وله وصيةٌ رواها بن قتيبة قالها ببيانه الرائع لَمَّا وَلَّى سَلْمَ بنَ زِيادٍ خراسانَ ، جاء فيها : إنَّ أَبَاكَ كفى أَخَاهُ عظيماً ، وقد استكفيتُكَ صَغيراً ، فلا تَتَّكِلَنَّ عَلَى عُذْرٍ مِنِّي ، فَقَد اتَّكَلْتُ على كِفَايَةٍ مِنْكَ ، وإيَّاكَ مِنِّي قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إيَّايَ مِنْكَ ، فإنَّ الظَنَّ إِذَا أَخْلَفَ فيكَ أَخْلَفَ مِنْكَ . وأَنْتَ في أَدْنَى حظِّك فاطِلُبْ أَقْصَاهُ ، وقَدْ أَتْعَبَكَ أَبُوكَ فَلاَ تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ تَكُنْ لَكَ ، وَاذْكُرْ في يَوْمِكَ أَحَاديثَ غَدِكَ تَرْشُدْ إنْ شَاءَ الله[2] .

وكان يزيد مولعاً بالأعمال العمرانية ، والمشاريع الحيوية ، ملماً ببعض

---

(١) انظر الأغاني ١٨/٧١ .

(٢) عيون الأخبار ١/١١٠ .

الأمور الهندسية ، ويتجلى ذلك في القنوات التي شقّها في عاصمة ملكه دمشق ، وأجرى فيها فروعاً من نهر بردى ، ولازالت تعرف باسمه حتى هذا اليوم[1] .

ووصف بالحلم والدهاء ، وقد أشار هو نفسه إلى حلمه ، حين ثار عليه أهل المدينة ، فتمثل بقول بعضهم ، فقال :

لَعَلَّ الحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمي   وَقَدْ يُسْتَضْعَفُ الرَّجُلُ الحَليمُ

ومن الشواهد على حلم يزيد وحنكته السياسية ما رواه صاحب العقد الفريد عن خطبة عبيدالله بن زياد بين يدي معاوية بن أبي سفيان وحوله وجوه بني أمية ، بعد هلاك زياد ، وبينهم يزيد بن معاوية ، وكان زياد أبو هذا قد امتنع عن بيعة يزيد ، فلم يهش معاوية له ، وأظهر له زهده فيه ، وندمه على استلحاقه زيادا . فما كان من يزيد إلاّ أن وقف خطيباً يرد على خطبة معاوية ، قائلاً : يا أمير المؤمنين ! إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرك زيادٌ وله مواطن معدودة بخير ، لا يفسدها التظنّي ، ولا تغيِّرُها التهم ، وأهلوه أهلوك ، التحقوا بك ، وتوسطوا شأنك ، فسافرتْ به الركبان ، وسمعت به أهلُ البلدان ، حتى اعتقده الجاهل ، وشكَّ فيه العالم ، فلا تنحجر يا أمير المؤمنين ما قد اتَّسع ، وكثرت فيه الشهادات ، وأعانك عليه قوم آخرون .

قال : فانحرف معاوية إلى من معه فقال : هذا[2] ، وقد نَفَسَ[3] عليه بيعته ، وطعن في إمرته ، يعلم ذلك كما أعلمه ! يا للرجال من آل أبي سفيان ! لقد حكموا وبزَّهم يزيدُ وحدَه[4] .

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١٠١٨/٤ .

(٢) هذا : مشيراً إلى عبيدالله .

(٣) نفس عليه : حسده ، يشير إلى إمتناع زياد عن بيعة يزيد ومحاولته صرف معاوية عن ذلك . انظر الطبري في حوادث سنة ٥٦ حين دعا معاوية الناس لبيعة يزيد .

(٤) انظر العقد الفريد ٨٣/٤ ـ ٨٧ .

شاعريته . .

يزيد بن معاوية هو أوَّلُ خليفة في الإسلام أُثِرَ عنه كثيرٌ من الشعر، وأوَّلُ أمير أموي في الشام أرسلَه أهلُه إلى البادية لينشأ فيها، ثم أصبح الأمرُ سُنَّةً عند أكثر الخلفاء الأمويين. والذي لامِراءَ فيه هو أنَّ يزيد كان شاعراً فذّاً، وكان في الوقت نفسه فارساً شجاعاً أبيّاً، وابنَ أحد عظماءِ رجال العرب والإسلام في كلِّ العصور.

وَرِث الشعر كابراً عن كابر، فجدَّتُه لأبيه هندٌ بنت عُتبة كانت ترتجز وتقول الشعر وكذلك جَدُّهُ أبو سفيان، ومعاويةُ أبوه كان يقول الشعر، وهذه أُمُّهُ ميسون شاعرةٌ أيضاً، سمعَها معاويةُ تنشد هذه الأبيات التي تعبر عن بَرَمِهَا بحياة المدينة الرافهة:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي　　أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْيَاحُ فِيهِ　　أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ
وَبَكْرٌ تَتْبَعُ الأَظْعَانَ صَعْبٌ　　أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ
وَكَلْبٌ يَنْبَحُ الأَضِيَافَ دُونِي　　أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هِرٍّ أَلُوفِ
وَخَرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقِيرٌ　　أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ

فقال لها معاويةُ: مارضيتِ ياابنةَ بَحْدَلٍ حتى جعلتني عِلجاً عنيفاً الحقي بأهلك.

فمضتْ إلى البادية، وأقامَ معها يزيدُ بين أهلها في البادية، وتعلم هناك الفصاحة واللسن ونَظْمَ الشعرِ وروايته هناك في بادية بني كلب.

وراحت أُمُّهُ تعتني به، وتُزَيِّنُه، وترجِّلُ جُمَّتَه، وتُوكلُه إلى من يعلِّمه الصيدَ والفروسية، فألِفَ اللَّهوَ والشرابَ والشعر، وعاشرَ نفراً من أصحاب اللَّهوَ

الشاميين والحجازيين، فَأَثَّرَ ذلك في مجرى حياته، فشبَّ على ضروبٍ من الصيد والسباق والشراب والغناء والنساء حتى غَدا بِحَقٍ أوَّلَ ملكٍ من الملوكِ الشعراءِ في الإسلام.

وقد جمع المرزُباني شعرَهُ في ثلاث كراريس واهتمَّ به، ثم جمعه آخرون وزادوا فيه، ورآه بعدهم ابنُ خلِّكان فأُغْرِم به وأُعجِب بفنِّه، وميَّزَ بين صحيحه وبين المنْسوب إليه، وحفظه لِشدَّة غرامه به وقال عنه: «وهو في نهاية الحسن».
وروى منه هذه الأبيات، وهي بحقٍ من أجمل الشعر:

إذَا رُمْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى البُعْدِ نَظْرَةً ... تُطَفِّي جَوىً بَيْنَ الحَشَا وَالأَضَالِعِ
تَقُولُ نِسَاءُ الحَيِّ تَطْمَعُ أَنْ تَرَى ... مَحَاسِنَ لَيْلَى، مُتْ بِدَاءِ المَطَامِعِ
وَكَيْفَ تَرَى لَيْلَى بِعَيْنٍ تَرَى بِهَا ... سِوَاهَا، وَمَا طَهَّرْتَهَا بِالمَدَامِعِ
وَتَلْتَذُّ مِنْهَا بِالحَدِيثِ وَقَدْ جَرَى ... حَدِيثُ سِوَاهَا في خُرُوقِ المَسَامِعِ
أُجِبُّكِ يَالَيْلَى عَنِ العَيْنِ إِنَّمَا ... أَرَاكِ بِقَلْبٍ خَاشِعٍ لَكِ خَاضِعِ(1)

«ولعله أسبقُ شعراء الغزل في العربية إلى هذا المعنى في التدليل على مكانة الحبيبة والندم على حبٍّ غيرها من النساء... وقد رَوَى الدكتور جبرائيل جبور في الصفحة ٤٣ من كتابه الملوك الشعراء قال: وقرأت له في نسخة خطية في مكتبة الفاتيكان تضم مجموعة من الشعر رقم ١٣٠ ص٣٥٤ مايلي، وفيه يدعو إلى التمتّع بلذّة الدنيا والنعيم والشراب»(2):

أَقُولُ لِصَحْبٍ ضَمَّتِ الرَّاحُ شَمْلَهُمْ ... وَدَاعِي صَبَابَاتِ الهَوَى يَتَرَنَّمُ
خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ نَعِيمٍ وَلَذَّةٍ ... وَشُرْبٍ وَإِنْ طَالَ المَدَى يَتَصَرَّمُ
وَلا تَتْرُكُوا يَوْمَ السُّرُورِ إلى غَدٍ ... فَرُبَّ غَدٍ يَأْتي بِمَا لَيْسَ يُعْلَمُ

---

(1) انظر وفيات الأعيان ٤/٣٥٤ـ ٣٥٥.
(2) أورد ابن خلكان ثلاثة من هذه الأبيات في كتابه وفيات الأعيان ٣/٢٨٧.

لَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَقُولُ لأهْلِهَا   خُذُوا لَذَّةً لَوْ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ
أَلا إِنَّ أَهْنَى العَيْشِ مَاسَمَحَتْ بِهِ   صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالحَوَادِثُ نُوَّمُ
وَسَيَّارَةٌ ضَلُّوا عَنِ الرَّكْبِ بَعْدَمَا   تَدَارَكَهُمْ جُنْحٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمُ
أَنَاخُوا قُبَيْلَ الصُّبْحِ عِيسَهُمُ وَكَا   نُوا قَبْلَ ذَاكَ فُرَادَى وَتَوْءَمُ[1]

وإحدى الروايات تزعم أن يزيد كان بدير مُرّانَ يلهو مع صحب له ويتنادمون، وقد سمع أن قد أصاب المسلمين حُمّى وقُتِلَ منهم عددٌ بأرض الروم، فقال:

وَمَا أُبَالِي بِمَا لاقَتْ جُمُوعُهُمُ   بِالغَذْقَذُونَةِ مِنْ حُمَّى وَمِنْ مُومِ[2]
إِذَا اتَّكَأْتُ عَلَى الأَنْمَاطِ مُرْتَفِقاً   بِدَيْرِ مُرَّانَ عِنْدِي أُمُّ كُلْثُومِ[3]

قالوا: فبلغ معاويةَ ذلك الشعرُ، فقال: لَيَلْحَقَنَّ بهم، ويصيبه ماأصابهم، وإلا خلعْتُهُ. فتهيَّأ يزيدُ للرحيل، وكتب إلى أبيه:

تَجَنَّى، لاتَزَالُ تَعُدُّ ذَنْباً   لِتَقْطَعَ حَبْلَ وَصْلِكَ مِنْ حِبَالِي
فَيُوشِكُ أَنْ يُرِيحَكَ مِنْ وَلائِي   نُزُولِي فِي المَهَالِكِ وَارْتِحَالِي

وتجهز للخروج، فلم يتخلَّفْ عنه أَحَدٌ، حتّى كان فيمن خرجَ أبو أيوبَ الأنصاري صاحبُ النبي ﷺ[4].

لقد هيَّأَتْ عناصر الشاعرِّية؛ الإرث الشعري، والفراغ، والمال الوفير، والعيش في البادية مع فصحاء العرب، والصيد، والفروسية، والشراب، والنساء،

---

(١) هكذا ورد البيت الأخير وفيه خلل واضح.
(٢) الغذقدونة: اسم مكان بعينه في أرض الروم. الموم: البرسام أو الحمى.
(٣) الأنماط: ضرب من البسط. مرتفقاً: متكئاً. أم كلثوم: زوجته بنت عبدالله بن عامر بن كريز. وقيل بنت عبدالله بن عباس كما في الصفحة ٥٧ وهو خطأ.
(٤) العقد الفريد ٣٦٧/٤ مع اختلاف في رواية الأبيات.

والطبيعة الموحية ومقارعة الشعراء، هذه العوامل كلُّها مجتمعة، ليزيدَ أن يبدأ قَرْضَ الشعر في سنّ مبكرةٍ، وقد كان في حياة أبيه يقارع الشعر مع عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت[1].

وروى عن يزيد أنه كان لايسمح بسماع شاعر ما لم يكن يروى له ويحفظ عنه، لأنه كان شغوفا بحفظ أشعار القدماء ورواية أشعارهم، وقد روى لنا صاحب الأغاني في سندٍ طويل عن جرير الشاعر قال: وفدتُ إلى يزيد بن معاوية وأنا شاب يومئذ، فاستُؤذِن لي عليه في جملة الشعراء، فخرج الحاجب إلي وقال: يقول لك أمير المؤمنين: إنه لايصل إلينا شاعر لانعرفه ولانسمع بشيء من شعره، وماسمعنا لك بشيء، فَنَأْذَنَ لك على بِصرة. فقلت له: تقول لأمير المؤمنين: أنا القائل:

وَإِنِّي لَعَفُّ الفَقْـرِ مُشْتَرَكُ الغِنَى   سَرِيعٌ إِذَا لم أَرْضَ دَاري انْتِقَالِيَا
جَرِيءُ الجَنَانِ لا أَهَابُ مِنَ الرَّدَى   إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا
وَلَيْسَ لِسَيْفِي في العِـظَامِ بَقِيَّةٌ   وَلَلسَّيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا

فدخل الحاجب عليه، فأنشده الأبيات، ثم خرج إليَّ وَأَذِنَ لي. فدخلتُ وأنشدته وأخذتُ الجائزة مع الشعراء، فكانت أوّلَ جائزة أخذتُها من خليفة. وقال لي: لقد فارقَ أبي الدنيا ومايظن أَبْياتَكَ التي توسلْتَ بها إليَّ إلا لي.

تدُلُّ هذه الواقعةُ دلالةً واضحة ليس على مقدرة يزيد على فهم الشعر وفرزنته فحسب، بل على حسن درايته بشعر الشعراء مَنْ حفظ لهم وَمَنْ لم يحفظ[2].

---

(١) انظر طبقات الشعراء للجمحي ١٨ ليدن.
(٢) انظر الأغاني ٣٦/٨ .

وحادثة أخرى بالِغةُ الدلالة على عُمق معرفته بالشعر، وحسن استخدامه له، واستشهاده به، وحفظه لشعر الأقدمين والمعاصرين له منهم، وقد تناقلتها كتب الأدب، فقد ذكرت انه لما استعرضَ جيشَ الشام قبل تسييره إلى المدينة، مرَّ به رجل من أهل الشام معه ترس خَلِقٌ سَمِجٌ، فنظر إليه يزيدُ وضحك وقال له: ويحَكَ! مِجَنُّ عمر بن أبي ربيعة كان أحسنَ من مجنك هذا. . وكأنه تذكر قول عمر بن أبي ربيعة:

فَكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ثَلاثُ شُخُوصٍ؛ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ[1]

وليزيدَ معانٍ مبتدعةٌ في الغزل لم يسبق إليها، وترتقي به إلى مستوى عال في هذا الفن، منها قوله:

وَلِي وَلَهَا إِذَا الكَاسَاتُ دَارَتْ رُقَى سِحْرٍ يَفُكُّ عُرَى الهُمُومِ
مُعَاتَبَةٌ أَلَذُّ مِنَ الأَمَانِي وَبَثُّ جَوىً أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ[2]

وذكر له صاحب الأغاني، قوله:

عَرَفْتُ الرَّبْعَ بِالإِكْلِيـ ـلِ عَفَّتْهُ سَوَافِيهِ[3]
بِجَوٍ نَاعِمِ الحَوْذَانِ مُلْتَفٌّ رَوَابِيهِ[4]
إِذَا مَا أُمُّ عَبْدِ اللـ ـه لَمْ تَحْلُلْ بِوَادِيهِ
وَلَمْ تُمْسِ قَرِيباً هَيَّجَ الحُزْنَ دَوَاعِيهِ
غَزَالٌ رَاعَهُ القَنَّاصُ تَحْمِيهِ صَيَاصِيهِ[5]

---

(١) انظر العقد الفريد ٥/٤٠٣ والأغاني ١/٨٣ .
(٢) انظرت وفيات الأعيان ٤/٣٥٥ .
(٣) عفته: محته. السوافي: الرياح.
(٤) الحوذان: نبات في البادية له زهرة حمراء في أسفلها صفره.
(٥) راعه: أخافه نفرّه. القناص. الصياد. صياصية: حصونه.

وَمَــا ذِكْــرَى حَــبِــيــبٍ وَقَــلِــيــلُ مَــا أُوَاتِــيــهِ
كَــدَنٍّ الخَــمْــرِ يُمْــنَــا هَــا وَقَــدْ أَنْــزَفَ سَــاقِــيــهِ[1]

وكان ليزيدَ بن معاوية مجالسُ شَرَابٍ يدعو إليها النُّدَمَاءَ، ويروى أن الشاعر الأخطلَ التغلبي كان من ندمائه أيامَ شبابه، وكذلك يوحنّا الدمشقيُّ حفيد منصور بن سرجون، وكان أبو يوحنّا سرجون بن منصور بن سرجون كاتباً ليزيد في خلافته، نديماً له. ويروى له من الشعر مايشير بشكل مبكر على إسهامه بفن الخمريات، وسُقاتها، كقوله[13]:

وَدَاعٍ دَعَــانِي وَالثُّــرَيَّــا كَــأَنَّهَا قَلائِصُ قَدْ أَعْنَقْنَ خَلْفَ فَنِيقِ[2]
وَنَــاوَلَنِي كَــأْســاً كَــأَنَّ بَنَــانَــهُ مُخَلَّقَــةٌ مِنْ نُــورِهَــا بِــخَلُوقِ[3]
إِذَا مَــاسَمَا فيهــا المِزَاجُ حَسِبْتَهَــا نُجُــومَ لآلٍ فِي سَــمَــاءِ عَقِيقِ[4]
وَقَالَ اغْتَنِمْ مِنْ دَهْرِنَــا غَفَلاتِــهِ فَعِقْــدُ نِظَامِ الــدَّهْرِ غَــيْرُ وَثِيقِ
وَإِنِّي مِنْ لَــذَّاتِ دَهْرِي لَقَــانِــعٌ بِحُلْوِ حَــدِيثٍ أَوْ بِمُــرٍّ عَتِيقِ[5]
هُمَا مَاهُمَا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ سِوَاهُمَــا حَدِيثُ صَدِيقٍ أَوْ عَتِيقُ رَحِيقِ[6]

وروى ابن خلكان أن الكيَّا أبا الحسن عليَّ بن محمد بن علي الطبري، الملقب بعماد الدين، سئل عن يزيد بن معاوية، فقص أراءَ السَّلف فيه، ثم أبدى

---

(١) الاغاني ١١٨/١٤ مع اختلاف في الرواية.
(١٣) انظر وفيات الاعيان ٣٥٥/٤ .
(٢) قلائص: جمع قلوص وهي الناقة. أعنقن: اسرعن في السير. الفنيق: فحل الابل لم يركب بعد لعزته.
(٣) الخلوق: الطيبُ.
(٤) العقيق: حجر كريم.
(٥) العتيق: الخمر المعتقة.
(٦) هما ماهما: يعني حيث الصديق والخمر العتيق. الرحيق: الحر.

رأيه فيه وقال: وهو اللاعب بالنرد، والمتصيِّدُ بالفهود، ومُدْمنُ الخمر، وشعره في الخمر معلومٌ، ومنه قوله: وأورد ثلاثة أبيات:

أَقُولُ لِصَحْبٍ ضَمَّتِ الكَأْسُ شَمْلَهُمْ ... وَدَاعي صَبَابَاتِ الهَوَى يَتَرَنَّمُ
خُذُوا بِنَصيبٍ مِنْ نَعيمٍ وَلَذَّةٍ ... فَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ المَدَى يَتَصَرَّمُ
وَلا تَتْرُكُوا يَوْمَ السُّرُورِ إلى غَدٍ ... فَرُبَّ غَدٍ يَأتي بِمَا لَيْسَ يُعْلَمُ(1)

وليس بدعاً أن نقول إن يزيد هو رائدُ مدرسة الشعر الغزلي في الشام، إذ ليس قليلا أن يقولَ ملكٌ شاعر في مثل ذلك العصر:

وَكَيْفَ تَرَى لَيْلَى بِعَيْنٍ تَرَى بِهَا ... سِوَاهَا، وَمَا طَهَّرْتَهَا بِالمَدَامِعِ

ومهما قيل في رِقَّة شعره، وجمال ديباجته، وعذوبة جرسه، ولطافة معانيه فإن شواهدَه الباقية متناثرةٌ في كتب الأدب لتدلَّ على أكثر من ذلك، كقوله:

طَرَقَتْكَ زَيْنَبُ وَالرِّكَابُ مُنَاخَةٌ ... بِجَنُوبِ خَبْتٍ وَالنَّدَى يَتَصَبَّبُ(2)
بِثَنِيَّةِ العَلَمَيْنِ وَهْناً بَعْدَمَا ... خَفَقَ السِّمَاكُ وَجَاوَزَتْهُ العَقْرَبُ(3)
فَتَحِيَّةٌ وَسَلامَةٌ لِخَيَالِهَا ... وَمَعَ التَّحِيَّةِ وَالسَّلامَةِ مَرْحَبُ
أَنَّى اهْتَدَيْتِ وَمَنْ هَدَاكِ وَبَيْنَنَا ... فَلْجٌ فَقُلَّةُ مَنْعَجٍ فَالمَرْقَبُ(4)
وَزَعَمْتِ أَهْلُكِ يَمْنَعُونَكِ رَغْبَةً ... عَنِّي، وَأَهْلي بِي أَضَنُّ وَأَرْغَبُ(5)

وروى صاحب الأغاني في سند طويل عن عمر بن سعد مولى الحارث بن هشام قال: خرج ابن الزبير ليلة إلى أبي قبيس، فسمع غناء، فلما انصرف رآه أصحابه وقد حال لونه، فقالوا: إن بك لشرّاً. فقال: إنّه ذاك. قالوا: ماهو؟

---

(1) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٨٧/٣ الترجمة رقم ٤٣٠ الكيّا الهراس.
(2) طرقتك: زارتك بالمنام. خبت: اسم مكان بعينه.
(3) الثنية: التلعة بين جبلين، السماك والعقرب: نجمان في السماء.
(4) فلج: اسم مكان. قلة منعج: قمة منعج.
(5) انظر معجم البلدان ٥٠٠/٤ لياقوت.

قال: لقد سمعت صوتا إن كان من الجن إنه لعجب، وإن كان من الإنس فما انتهى منتهاه شي! قال: فنظروا فإذا هو ابن سريج يتغنى بشعر ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان:

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ بِوَادي غُدَرْ   لِجَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِي مُضَرْ[1]
خَدَلَّجَةِ السَّاقِ مَمْكُورَةٍ   سَلُوسِ الوِشَاحِ كَمِثْلِ القَمَرْ[2]
تَزِينُ النِّسَاءَ إِذَا مَابَدَتْ   وَيُبْهَتُ فِي وَجْهِهَا مَنْ نَظَرْ[3]

وذكرَ صاحبُ الحلَّة السيراء بيتاً من الشعر ليزيد بن معاوية، زعم عنه أنَّ محمَّد بن سيرين كان يقول: هو أشوق بيت قالته العرب، وهو:

إِذَا سِرْتُ ميلاً أَوْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ   دَعَتْنِي دَوَاعِي الشَّوْقُ مِنْ أُمِّ خَالِدِ[4]

وروى ياقوت الحموي في معجمه القصيدة التالية، كما ذكرها السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء، مع اختلاف في رواية بعض كلمات الأبيات[5]:

آبَ هَذَا الهَمُّ فَاكْتَنَعَا   وَأَتَرَّ النَّوْمُ فَامْتَنَعَا[6]
جَالِسَاً لِلنَّجْمِ أَرْقُبُهَا   فَإِذَا مَا كَوْكَبٌ طَلَعَا
حَامَ حَتَّى إِنَّنِي لأَرَى   أَنَّهُ بِالغَوْرِ قَدْ وَقَعَا
وَلَهَا بِالمَاطِرُونَ إذا   أَكَلَ النَّمْلُ الَّذي جَمَعَا

---

(١) غدر: من مخاليف اليمن.

(٢) الخدلجة: الريا الممتلئة الذراعين والساقين. الممكوره: المطوية الخلق المكتنزة اللحم. سلوس الوشاح. قلقة الوشاح لينة.

(٣) تزين وتزون: لغتان بمعنى تجعله زينة وتجمله. بهت: بضم الهاء وكسرها: بمعنى دهش وتحيَّد وانبهر.

(٤) انظر الحلة السيراء.

(٥) معجم البلدان ٣٩٥/٤ .

(٦) اكتنع : حضر ودنا . أترّ : انقطع وأبعد وفي بعض الروايات (وأمرَّ) .

نُـزْهَـةٌ حَـتَّى إذا بَـلَغَـتْ نَـزَلَـتْ مِـنْ جِـلَّقٍ بِـيَـعَـا
في قِـبَـابٍ وَسْطَ دَسْـكَـرَةٍ حَـوْلَهـا الـزَّيْتُـونُ قَـدْ يَنَعَـا

وكان يزيد صاحبَ طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد ، وذلك بعد قتل الحسين ، فأقبل على ساقيه ، فقال :

اسْقِنِي شَـرْبَـةً تُـرَوِّي مُشَـاشِي ثُمَّ مِلْ فَاسق مِثْلَهَـا ابْنَ زِيَادِ
صَـاحِبَ السِرِّ وَالأَمَـانَـةِ عِنْـدِي وَلِتَسْـدِيـدِ مَغْنِمِي وَجِهَـادِي [1]

ويقال : إن يزيد حين جرد جيشاً يُرسله إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المري ، عُرِضَ عليه هذا الجيش ، فأنشأ يقول :

أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ إِذَا الأَمْـرُ انْبَرَى وَأَشْرَفَ القَوْمُ عَلَى وَادِي القُرَى
أَجْمَعَ السَّكْرَانُ مِنْ قَوْمٍ تَرَى [2]

وكتب إلى عبدالله بن الزبير ، يقول :

ادْعُـو إِلَهَـكَ فِي السَّـمَاءِ فَإِنَّنِي أَدْعُو عَلَيْكَ رِجَالَ عَكٍّ وَأَشْعَـرْ
كَيْفَ النَّجَـاةُ أَبَا خُبَيْبٍ مِنْهُمُ ؟ فَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ أَتْيِ العَسْكَرْ [3]

ومن القصائد التي ظلت خالدة على مرّ الأيام ، قصيدة يزيد في «زينب» التي قلما نجد عربياً لم يسمع بها أو يحفظ بعضاً من أبياتها ، وربما قصة زينب هي التي ألقت عليها ستاراً رقيقاً من التمويه ، وبها يقول :

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/٧٧ .
(٢) أبا بكر : كنية عبدالله بن الزبير .
السكران : لقب يزيد بن عبدالملك . انظر مروج الذهب ٧٩ .
(٣) أبا خبيب : كنية ابن الزبير ، المرجع السابق .

نَالَتْ عَلَى يَدِهَا مَا لَمْ تَنَلْهُ يَدي ... نَقْشاً عَلَى مِعْصَمٍ أَوْهَتْ بِهِ جَلَدِي
كَـأَنَّـهُ طُـرْقُ نَمْـلٍ في أَنـامِلِهَـا ... أَوْ رَوْضَةٌ رَصَّعَتْهَا السُّحْبُ بِالبَرَدِ
وَقَوْسُ حَاجِبِهـا مِنْ كُلِّ نَـاحِيَةٍ ... وَنَبْـلُ مُقْلَتِهَا تَـرْمي بِـهِ كَبِـدِي
مَدَّتْ مَوَاشِطُهَا في كَفِّهَـا شَرَكاً ... تَصيدُ قَلْبي بِهَا مِنْ دَاخِلِ الجَسَدِ (١)
إِنْسِيَّةٌ لَوْ رَأَتْهَا الشَّمس مَا طَلَعَتْ ... مِنْ بَعْدِ رُؤْيَتِهَا يَوْماً عَلَى أَحَدِ
سَأَلْتُهَا الوَصْلَ قَالَتْ : لَا تَغُرَّ بِنا ... مَن رَامَ مِنَّا وِصَالاً مَاتَ بِالكَمَدِ
فَكَمْ قَتيلٍ لَنَا بِالحُبِّ مَاتَ جَوىً ... مِنَ الغَرَامِ ، وَلَمْ يُبدِي وَلَمْ يُعِدِ
فَقُلْتُ : آسْتَغْفِرُ الرَّحمن مِنْ زَلَلٍ ... إِنَّ المُحِبَّ قَليـلُ الصَّبْرِ وَالجَلَدِ
قَـدْ خَلَّفَتْني طَرِيحاً وَهِيَ قَـائِلَةٌ ... تَأَمَّلُوا كَيْفَ فِعْلُ الظَّبْي بِالأَسَدِ !
قَالَتْ لِطَيْفِ خَيالٍ زَارَني وَمَضَى : ... بِاللَّهِ صِفْهُ ، وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدِ
فَقَالَ : خَلَّفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ ... وَقُلْتُ : قِفْ عَنْ وُرُودِ المَاءِ ، لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، الوَفَا في الحُبِ شِيمَتُهُ ... يَا بَرْدَ ذَاكَ الَّذي قَالَتْ عَلَى كَبِدي
وَآسْتَرْجَعَتْ سَأَلَتْ عَنِّي ، فَقيلَ لَهَا : ... مَا فِيهِ مِنْ رَمَقٍ ؛ دَقَّتْ يَداً بِيَدِ
وَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ ... وَرْداً ، وَعَضَّتْ عَلَى العُنَّابِ بِالبَرَدِ
وَأَنْشَـدَتْ بِلِسَـانِ الحَـالِ قَـائِلَةً ... مِنْ غَيْرِ كُرْهٍ ، وَلَا مَطْلٍ ، وَلَا مَدَدِ :
وَاللَّهِ مَا حَزِنَتْ أُخْتٌ لِفَقْدِ أَخٍ ... حُزْني عَلَيْهِ ، وَلَا أُمٌّ عَلَى وَلَدِ
إِنْ يَحْسِدُوني عَلَى مَوْتي ، فَوَاأَسَفي ... حَتَّى عَلَى المَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الحَسَدِ

وقد جاء في أخبار النساء لابن قيم الجوزية صفحة ٢٣٨ بيت ليزيد بن معاوية يصف به الأعكان ، هو قوله :

لَهَـا عُكَنٌ بيضٌ كَـأَن غُضُـونَهَا ... إذا شَفَّ عَنْها السَّابِرِيُّ فَدَاحُ (٢)

---

(١) المواشط : المرأة التي تزين الفتاة وتعنى بهندامها . ويريد نقش الحناء بكفها .
(٢) السابري : درع دقيق النسج محكمه . فداح : مثقلة .

معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
٤١ - ٦٤ هـ/٦٦٢ - ٦٨٤ م

مات يزيدُ بن معاوية بحوّارينَ من أرباض حمص ليلةَ البدرِ في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ وهو ابن ثمان وثلاثين سنةً ، وصلّى عليه ابنُه الأكبر معاويةُ الثاني ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرين سنة ، ولم يزلْ مريضاً طول ولايته ، لا يخرج من بيته ، وماتَ بعد أبيه بأربعين يوماً .

ولمّا حضرتْهُ الوفاةُ قيل له : لو عهدْتَ إلى رجل من أهل بيتك واستخلفْتَ خليفةً ؟

قال : لم أنتفع بها حيّاً ، فلا أُقلّدها ميتاً ، لا يذهبُ بنو أمية بحلاوتها وأتجرَّعُ مرارَتَها ، ولكنْ إذا مِتُّ فلْيصلِّ عليَّ الوليدُ بن عقبة ، ولْيُصَلِّ بالناس الضحّاكُ بنُ قيس ، حتى يختارَ الناسُ لأنفسهم .

فلمّا مات صلّى عليه الوليدُ بن عقبة ، وصلّى بالناس الضحّاكُ بن قيس بدمشق ، حتّى قَامَتْ دولَةُ بني مروانَ (١) .

وهو الملكُ الأخيرُ من البيت السُّفْيَانيِّ ، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ

---

(١) العقد الفريد ٣/٣٩١ .

الخلفاء يصفه بقوله : كان شاباً صالحاً . . . وأَنَّهُ لَمَّا مات يزيدُ بُويع لعبدالله بن الزبير بالخلافة ، وأطاعَهُ أهل الحجاز واليَمَنِ والعراقِ وخراسان ، ولم يبقَ خارجاً عنه إلَّا الشَّامُ ومصرُ ، فإنَّهُ بُويع فيها معاويةُ بن يزيد . فلمَّا ماتَ معاويةُ الثاني أطاعَ أهْلُهَا ابنَ الزُّبير وبايعوه .

عندئذٍ خرجَ مروانُ بنُ الحكم فَغَلَبَ على الشام ثم مصر ، واستمرَّ إلى أنْ مَاتَ سنة ٦٥ هـ وقد عهدَ إلى ابنه عَبْدِالمَلِكِ (١) .

والذي يهمُّنا هنا من معاويةَ الثاني هو الناحيةُ الأدبيَّةُ ، وتشيرُ المراجعُ التي بين أيدينا إلى أَنَّهُ لم يعرفْ له شيءٌ من الشِّعر .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٣١٠ - ٣١١ .

عبدالله بن الزبير
١ - ٧٣هـ/٦٢٢ - ٦٩٢م

هو عبدالله بن الزبير بن العوّام بن خويلد القرشي الأسدي ، كنيته أبو بكر ، قيل أبو خُبيب ، وهو صحابي وابن صحابي[١] .

ولد بالمدينة بعد الهجرة في السنة الأولى ، وقيل بعد عشرين شهراً ، وهو أوّل مولودٍ ولد للمهاجرين بعد الهجرة ، وفرح المسلمون بولادته فرحاً شديداً ، فحنّكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها ، وهو الذي سمّاه عبدَالله وكنّاه أبا بكر ، باسم جدِّه الصديق وكنيته .

أبوه الزبير بن العوام بن صفية عمه النبي ﷺ ، وهو أي الزبير أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأم عبدالله أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه رجل الإسلام الأول . وكان صوّاماً قوّاماً ، طويل الصلاة ، وصولاً للرحم ، عظيم الشجاعة ، قسّم الدهرَ ثلاث ليالٍ : ليلة يصلي قائماً حتى الصباح ، وليلة راكعاً ، وليلة ساجداً حتى الصباح .[٢]

---

(١) انظر معجم الأعلام للزركلي ٨٧/٤ .
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٢ .

وروى عن النبي ثلاثةً وثلاثين حديثاً ، وروى عنه أخوه عُروة ، وابن أبي مُليكة وخلق كثيرون . وكان ممن أبى البيعة ليزيد بن معاوية ، وفرّ إلى مكة ، فوجَدَ عليه يزيد وجداً شديداً . فلما مات يزيد سنة ٦٤ هـ بويع له بالخلافة ، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، ولم يبق خارجاً عنه إلّا الشام ومصرَ ، فإنه بويع بهما معاويةُ بن يزيد ، فلم تطل مدته ، فلما مات أطاعَ أهلُها ابنَ الزبير وبايعوه . ثم خرج مروان بن الحكم ، فغلب على الشام ، ثم مصر . واستمر إلى أن مات سنة ٦٥ هـ ، وقد عهد إلى ابنه عبدالملك . [١]

استمر ابن الزبير بمكة خليفة إلى أن تغلَّبَ عليه عبدُالملك ، فجهز لقتاله الحجاجَ في أربعين ألفاً ، فحاصره بمكة أشهراً ، ورماه بالمنجنيق ، حتى خذلَه أصحابُه وتسللوا إلى الحجاج ، فظفر به وقتله وصلبه سنة ٧٣ هـ فكانت مدة خلافته تسع سنين [٢] .

وقيل : كان عبدالله بن الزبير فارسَ قريش في زمانه ، وأنه أول من كسا الكعبة الديباج . وكان لا ينازع في ثلاثة : لا شجاعة ، ولا عبادة ، ولا بلاغة ، وقد قال فيه النابغة الجعدي :

حكيْتَ لنا الصدّيقَ لما وُليتنا   وعثمانَ ، والفاروقَ ، فارتاحَ مُعْدِمُ
وسوّيْتَ بين الناس في الحقِ فاستوى   فعادَ صباحاً حالِكُ اللون أسحمُ

وكان أول من حملت إليه رؤوس القتلى . وفي زمنه خرج المختار الكذاب الذي ادعى النبوة ، فجهز ابن الزبير جيشاً لقتاله ، وقالته حتى ظفر به سنة ٦٧ هـ وقتله . ولمّا قتل مصعبُ بن الزبير ، قال فيه عبيدالله بن قيس الرقيات :

---

(١) المرجع السابق .
(٢) معجم الأعلام لخير الدين الزركلي ٧٨/٤ .

كيفَ نَومي على الفراشِ ولمّا تشمَلُ الشامَ غارةٌ شعواءُ
تُذهلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدي عن خدام ، العقيلةُ العذراءُ
إنّما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلّتْ عن وجهة الظلماءُ (١)

جدَّدَ بناءَ الكعبة ، فجعل لها بابين على قواعد إبراهيم ، وأدخل فيها ستة أذرع من الحجر . وروي عن بخله الأعاجيب ، فقد أخرج عن أبي عبيدة قال : جاء عبدالله بن الزَّبير الأسدي الى عبدالله بن الزُّبَيرِ بن العوام ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إن بيني وبينك رحماً من قِبل فلانة . فقال ابن الزبير : نعم ، هذا كما ذكرت . وإن فكرت في هذا أصبت ، الناس بأسرهم يرجعون الى أب واحد والى أم واحدة .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ! إن نفقتي نَفِدَتْ .

قال : ما كنتُ ضمنتُ لأهلكَ أنها تكفيكَ الى أن ترجع إليهم .

قال : يا أميرَ المؤمنين ! ناقتي قد نَقِبَتْ(٢) .

قال : أنجِدْ بها(٣) تبرد خفُّها ، وارقَعْها بسبت(٤) ، واخصفها بهلب ، وسِرْ عليها البَرْدَيْن .

قال : يا أميرَ المؤمنين ! إنما جئتك مستحملاً ، ولم آتك مستوصفاً ، لعنَ الله ناقةً حملتني إليك !

فقال ابن الزبير : إنّ وراكِبها .

فخرج الأسديُّ يقول :

أرى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ نَكِدْنَ ، ولا أُميَّةَ في البلاد

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤/٤٠٦ - ٤٠٧ .
(٢) نقبت : حفيت وانثقبت .
(٣) أنجد بها : اذهب بها الى نجد .
(٤) السبت : الراحة .

من الأعياص أو من آل حَرْبٍ أغَـرَّ كَغُـرَّةِ الفـرسِ الجـواد
وقلتُ لصحبتي : أدْنـوا ركـابي أفـارِقْ بـطنَ مكّـة في سَـوَاد
ومـا لي حين أقـطع ذاتَ عرقٍ إلى ابنِ الكـاهليـة من مَعَـاد[1]

أمّا شعر عبدالله بن الزبير الذي وصل إلينا فقليل جداً ، رغم أنه يدل على شاعرية قوية ، وأظن أن معظمه ضاع فيما ضاع من تراثنا ، أو أنه ما زال في بطون الكتب الكثيرة التي لم تُحقق ، ولم تُنشر بعد . . فمن قوله وقد ولي الحرمين مدةً :

لا احسبُ الشرَّ جـاراً لا يفارقني ولا أحـزُّ على مـا فـاتني الـوَدَجَـا
ومـا لقيتُ منَ المكـروهِ منـزلـةً إلاّ وثِقْتُ بأَنْ ألقى لها فرَجا[2]

ومن قوله المشهور عنه :

وكم من عَدُوٍّ قد أرادَ مساءَتي بغيبٍ ، ولـو لاقيتـهُ لَتَنـدَّمـا
كثيـر الخَنَـا حتى إذا مـا لقيتُـه أصرَّ على إثمٍ وإنْ كان أقسما[3]

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٥ .
(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ص ٣٨ .
(٣) المرجع السابق .

الفصل الثاني
خلفاء الأسرة المروانية الأعياص

١ ـ مروان بن الحكم ٢ ـ ٦٥ هـ/٦٢٣ ـ ٦٨٥ م (مدة حكمه ٩ أشهر و١٨ يوماً)

مدة حكمه ٦٤ ـ ٦٥ هـ

٢ ـ عبد الملك بن مروان ٢٣ ـ ٨٦ هـ/٦٤٢ ـ ٧٠٥ م

مدة حكمه ٦٥ ـ ٨٦ هـ

٣ ـ الوليد بن عبد الملك ٥٠ ـ ٩٦ هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥ م

مدة حكمه ٨٦ ـ ٩٦ هـ

٤ ـ سليمان بن عبد الملك ٥٤ ـ ٩٩ هـ/٦٧٢ ـ ٧١٧ م

مدة حكمه ٩٦ ـ ٩٩ هـ

٥ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان ٦١ ـ ١٠١ هـ/ ٦٨٠ ـ ٧٢٠ م

مدة حكمه ٩٩ ـ ١٠١ هـ

٦ ـ يزيد بن عبد الملك ٧١ ـ ١٠٥ هـ/٦٨٨ ـ ٧٢٤ م

مدة حكمه ١٠١ ـ ١٠٥ هـ

٧ ـ هشام بن عبد الملك ٧٢ ـ ١٢٥ هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٤٣ م
مدة حكمه ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ
٨ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٨٨ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٦ ـ ٧٤٤ م
مدة حكمه ١٢٥ ـ ١٢٦ هـ

حياته ..
شعره ..
أ ـ شعره الغزلي
ب ـ خمرياته
جـ ـ أغراضه الشعرية الأخرى
د ـ لمحة عامة في شعر الوليد

٩ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك ٨٦ ـ ١٢٦ هـ/ ٧٠٤ ـ ٧٤٤ م
مدة حكمه ١٢٦ ـ ١٢٦ هـ
١٠ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ٩٠ ـ ١٢٧ هـ/٧٠٧ ـ ٧٤٤ م
مدة حكمه ١٢٦ ـ ١٢٦ هـ
١١ ـ مروان بن محمد بن مروان ٧٢ ـ ١٣٢ هـ/ ٧٠٠ ـ ٧٥٠ م
مدة حكمه ١٢٦ ـ ١٣٢ هـ

مروان بن الحكم بن أبي العاص
٢ ـ ٦٥ هـ/٦٢٣ ـ ٦٨٥ م

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص(١) بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمُّه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ، ولد بمكّة في السنة الثانية للهجرة ، في حجر أبيه الحكم الذي أسلم يوم الفتح ، فنشأ مروان مسلماً ، وهو الذي نقل الخلافة من البيت السفياني الى البيت المرواني ، وإليه ينتسب كلُّ الخلفاء الأمويِّين الذين ملكوا بعده في الشام ، وكلُّ الملوك الأمويين في الأندلس .

وكان في عهد عثمان بن عفّان كاتباً له ومدبِّراً لشؤونه ، وولي لمعاوية بن أبي سفيان المدينة عدَّة مرَّات . ولما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية الثاني أوشك الملك أن يذهب الى ابن الزبير وكاد يبايعه لولا عبيدالله بن زياد ورجالات بني أميَّة ، الذين أشاروا عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أميَّة وكبيرها ، ففعل ، وكان أمره في الشام ومصر ولم يتجاوزهما ، حتى مات في الشام ، لثلاث خَلْون من رمضان سنة ٦٥ هـ ، وهو ابن ثلاث وستين سنة . وصلّى عليه ابنه عبد الملك بن مروان ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً ، وكان على شرطته يحيى بن

(١) ابن أبي العاص ، وليس العاص انظر تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٥٢٩ ، وما أوردناه نحن من العقد الفريد ٣٩٨/٤ .

قيس الشيباني ، وكاتبه سرجون بن منصور الروميّ ، وحاجبه أبو سهل الأسود ، مولاه . وفي عهده حصلت وقعة مرج راهط وانتصر فيها بخطّة مدبَّرة من عبيدالله بن زياد ، وولّى الأمّة من بعده ابنه عبد الملك .

والذي نسعى إليه هو الجانب الأدبي عند مروان بن الحكم ، وكل الدلائل تشير الى أنه كان أديباً ، يفهم بالشعر ونقده ، وله بعض الشعر مما سنرويه ، فقد جاء في العقد الفريد[1] ما روى عنه أنَّه قال لخالد بن يزيد بن معاوية ، وقد استنشدَهُ من شعره ، فأنشده :

فَلَوْ بَقيَتْ خَلاَئِفُ آلِ حَرْبٍ ... وَلَمْ يُلْبِسْهُمُ الدَّهْرُ المَنُونَا
لَأَصْبَحَ مَاءُ أَهْلِ الأَرْضِ عَذْباً ... وَأَصْبَحَ لَحْمُ دُنْيَاهُمْ سَمِينَا

فقال له مروان : منونا ، وسمينا ، والله إنها لقافية ما اضطرك إليها إلّا العجز .

ونحن طبعاً لا نوافق مروان بن الحكم رأيه هذا ، كما لم يوافقه الأقدمون «فهذا مما لا عجز فيه ، ولا عابه أحدٌ في الشعر ، وما أرى العيب فيه إلا على من رآه عيباً ، لأن الياء والواو يتعاقبان في أشعار العرب كُلِّها ، قديمها وحديثها»[2] .

وَرُوِيَ أنَّهُ اجتمع مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير ذات يوم في حجرة عائشة والحجاب بينهما وبينها ، يحدِّثانها ويسألانها . فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة ، وعائشة تسمع ، فقال مروان :

فَمَنْ يَشَا الرَّحْمَنُ يَخْفِضْ بِقَدْرِهِ ... وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْفَعِ اللهُ رَافِعُ

فقال ابن الزبير :

---

(١) انظر العقد الفريد ٢٣٢/٥ .
(٢) انظر المرجع السابق .

فَفَوِّضْ إلى الله الأُمورَ إذَا اعْتَرَتْ ... وَبِـالله لاَ بِـالأَقْـرَبِـينَ أُدَافِـعُ

فقال مروان :

وَدَاوِ ضَميرَ القَلْبِ بِالبِرِّ وَالتُّقى ... فَلاَ يَسْتَوي قَلْبَانِ ؛ قَاسٍ وَخَاشعُ

فقال ابن الزبير :

وَلاَ يَسْتَـوي عَبْدَانِ هَـذَا مُكَذِّبٌ ... عُتُـلٌّ لِأَرْحَـامِ العَشيـرَةِ قَـاطِـعُ

فقال مروان :

وَعَبْـدٌ يُجَافي جَنْبُـهُ عَنْ فِـرَاشِـهِ ... يَبيتُ يُنَـاجِي رَبَّـهُ وَهْـوَ رَاكِـعُ

فقال ابن الزبير :

وَلِلْخَـيْرِ أَهْـلٌ يُعْـرَفُـونَ بِهَـدْيِهِمْ ... إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الخُطُوبِ المَجَامِعُ

فقال مروان :

وَلِلشَرِّ أَهْـلٌ يُعْـرَفُـونَ بِشَكْلِهِمْ ... تُشِـيرُ إِلَيْهِمْ بِالفُجُـورِ الأَصَـابِـعُ

فسكت ابن الزبير ولم يجب .

فقالت عائشة : يا عبدالله مالك لم تجب صاحبك ؟ فوالله ما سمعت تجاول رجلين تجاولاً في نحو ما تجاولتما فيه ، أعجب من تجاولكما !

فقال ابن الزبير : إني خفت عوار القول فكففت .

فقالت عائشة : أما إن لمروان إرثاً في الشعر ليس لك ، من قبل صفوان بن محرث الكناني[1] .

وقعة مرج راهط ، وما قاله فيها :

لما مات معاوية بن يزيد ، اختلف الناس بالشام ، فكان أوّل من خالف من أمراء الأجناد النعمان بن بشير الأنصاري ، وكان على حمص ، فدعا لابن الزبير ،

---

(١) كانت أم مروان بن الحكم بنت علقمة بن صفوان ، انظر بدائع البداية ١٠٣ .

فبلغ خَبَرُهُ زُفَرَ بنَ الحارث الكلابي بقنّسرين فدعا الى ابن الزبير.

وبلغ ذلك حسَّانَ بنَ مالك بن بحدل الكلبي[1] وهو بفلسطين، فقال لروح بن زنباع: إنّي أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير، وأبناء قيس بالأردن كثير وهم قومي، فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين، فإن جُلَّ أهلها قومك من لخم وجذام، فإن خالفك أحد فقاتله بهم. وكتب الى الضَّحاك بن قيس كتاباً يعظِّم فيه بني أميَّة ويذمُّ ابن الزبير، وقال لرسوله: اقرأ الكتاب على الضَّحاك بدمشق بمحضر بني أميَّة وجماعة من الناس، فلما قرأه، تكلَّم الناس فصاروا فرقتين، اليمانية مع بني أمية، والقيسية زبيرية، ثم اجتلدوا بالنعال، ومشى بعضهم الى بعض بالسيوف، حتى حجز بينهم خالد بن يزيد.

وقدم عبيدالله بن زياد على بني أميَّة بدمشق. فخرج الضَّحاك بن قيس الى المرج - مرج راهط - فعسكر فيه. وأرسل إلى أمراء الأجناد فأتوه، إلّا ما كان من كلب.

ودعامروان بن الحكم لنفسه، فبايعته بنو أمية، وكلب، وغسان، والسكاسك، وطيِّىء. فعسكر في خمسة آلاف، وأقبل عَبَّادُ بن يزيد من حوران في ألفين من مواليه وغيرهم من كلب، فلحق بمروان. وغلب يزيد بن أبي أُنيس على دمشق، فأخرج منها عامل الضَّحاك، وأَمَدَّ مروان برجال وسلاح كثير.

وكتب الضحّاك إلى أمراء الأجناد. فقدم عليه زفر بن الحارث من قِنَّسْرِينَ، وأمده النعمان بن بشير بِشَرَحْبيل بن ذي الكَلاع في أهل حمص. فكان الضحاك في ستين ألفاً، ومروان في ثلاثة عشر ألفاً أكثرهم رجّالة، وأكثر أصحاب الضحاك رُكبان.

---

(١) أخو ميسون أم خالد بن يزيد ومعاوية.

فاقتتلوا بالمرج عشرين يوماً ، وصبر الفريقان . . وأشار عبيدالله بن زياد على مروان بمكيدة ، فدعا إلى الموادعة ، وأرسل مروان السفراء إلى الضحّاك ، فأصبح الضحاك والقيسية وقد أمسكوا عن القتال . وكان مروان قد أعد أصحابه ، فلم يشعر الضحاك وأصحابه إلّا والخيل قد شدّت عليهم ، ففزع الناس إلى راياتهم ، واقتتل الناس .

فترجل مروان وقال : قبّح الله من ولّاهم اليوم ظهره حتى يكونَ الأمر لإحدى الطائفتين . فقُتل الضحّاك بن قيس . فصبرت قيس عند راياتها يقاتلون ، فنظر رجل من بني عُقيل إلى ما تلقى قيس عند راياتها من القتل ، فقال : اللهمَّ العنها من رايات ! واعترضها بسيفه ، فجعل يقطعها ، فإذا سقطت الراية تفرق أهلها .[1]

ثم انهزم الناس ، فنادى منادي مروان : لا تتبعوا من ولّاكم اليوم ظهره ، وقتل من قيس يومها أشرافها وخلق كثير ، وكذلك من سليم . وقتل لمروان ابن يقال له عبدالعزيز . ثم أقبل مروان إلى دمشق فدخلها ، ونزل دارَ معاوية بن أبي سفيان ، دار الإمارة ، ثم جاءته بيعة الأجناد . فقال مروان يفتخر بنصره :

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ مَالُوا جَنَبَا وَالمُلْكُ لَا يُؤْخَذُ إلَّا غَصْبَا
أَعْدَدْتُ غَسَّاناً لَهُمْ وَكَلْبَا وَالسَكْسَكِيِّينَ رِجَالاً غُلْبَا
وَطَيِّئاً يَأْبُونَ إلَّا ضَرْبَا وَالقَيْنُ تَمْشِي فِي الحَدِيدِ نَكْبَا
وَمِنْ تَنُوخٍ مُشمَخِراً صَعْبَا بِالأَعْوَجِيَّاتِ يَثِبْنَ وَثْبَا
وَإنْ دَنَتْ قَيْسٌ فَقُلْ لَا قُرْبَا[2]

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٣٩٠ـ ٣٩٨ .
(٢) انظر التنبيه والإشراف ٣٠٨ .

وقال زفر بن الحارث ، وقد قتل ابناه يوم المرج :

لَعَمْري لَقَدْ أبْقَتْ وَقيعَةُ رَاهِطٍ ... بِمَـرْوَانَ صَـدْعـاً بَيْنَنَـا مُتَنَـائِيَـا
فَلَمْ يُـرَ مِنِّي زَلَّـةٌ قَبْـلَ هَـذِهِ ... فِـرَارِي وَتَرْكِي صَـاحِبَيَّ وَرَائِيَـا
أَيَـذْهِبُ يَوْمٌ وَاحِـدٌ إنْ أَسَـأْتُـهُ ... بِصَالِحِ أَيَّـامي وَحُسْنِ بَلاَئِيَـا ؟
أَنَتْـرُكُ كَلْبَـاً لَمْ تَنَلْهَـا رِمَـاحُنَـا ... وَتَذْهَبُ قَتْلَى رَاهِطٍ وَهِيَ مَاهِيَا
وَقَدْ تَنْبُتُ الخَضْرَاءُ في دِمَنِ الثَّرَى ... وَتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيَا
فَلاَ صُلْحَ حَتَّى نَدْعَسَ الخَيْلَ بِالقَّنَا ... وَتَثْـأَرَ مِنْ أَبْنَاءِ كَلْبٍ نِسَـائِيَا (١)

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٩٦ واختلاف رواية الأبيات وعدُّها ثمانية .

عبد الملك بن مروان
٢٣ ـ ٨٦ هـ/٦٤٢ ـ ٧٠٥ م

هو عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة ، ويكنَّى : أبا الوليد ، ويقال له : أبو الأملاك ، وذلك لأنَّه وليَ الخلافة أربعةٌ من أولاده ؛ الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام . ولد بالمدينة في دار مروان سنة ٢٣ هـ . وأمُّه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية ، وله يقول ابن قيس الرقيات :

أَنْتَ ابنُ عَائِشَةَ الَّتي فَضَلَتْ أُرُومَ نِسَائِهَا [١]
لَمْ تَلْتَفِتْ لِلِدَاتِهَا وَمَشَتْ عَلَى غُلْوَائِهَا
وَلَدَتْ أَغَرَّ مُبَارَكاً كَالشَّمْسِ وَسْطَ سَمَائِهَا [٢]

وبويع عبدالملك بالخلافة بدمشق بعد موت أبيه ، لثلاث خلون من رمضان سنة ٦٥ هـ بعهد من أبيه ، وكانت الحال في البلاد الإسلاميّة على غاية من الاضطراب والفوضى فالحجاز قد بايعت عبدالله بن الزبير ، والعراق ثلاث فرق :

---

(١) الأروم : جمع أرومه وهي الأصل .
(٢) انظر العقد الفريد ٤/٣٩٩ .

زبيريون بايعوا ابن الزبير ، وشيعة تدعوا إلى آل البيت ، وخوارج على الجميع .[1]

فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة ، حتى دان له الناس واجتمعت عليه الكلمة . وكان عاقلاً حازماً أديباً لبيباً ، ومعدوداً من فقهاء المدينة . وقال عنه ابن سعد : كان عابداً زاهداً ناسكاً بالمدينة قبل خلافته .

وقال عنه يحيى الغساني : كان عبدالملك كثيراً ما يجلس إلى أمِّ الدرداء ، فقالت له مرَّةً : بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء [2] بعد النسك والعبادة ، قال : إنِّي والله والدماء قد شربتها [3]

وقال ابن عائشة : أفضى الأمر إلى عبدالملك والمصحف في حجره ، فأطبقه وقال : هذا آخر العهد بك .[4]

وكان على شرطته ابنُ أبي كبشة السَّكْسَكيّ ، ثم أبو نائل بن رياح بن عُبيدةَ الغساني ، ثم عبدُ الله بن يزيد الحكَمِيّ . وعلى حرسه الرَّيَّانُ . وكاتبه على الخراج والجند سَرْجُون بن منصور الرُّومي . وكاتبه على الرسائل أبو زُرعةَ ، مولاه . وعلى الخاتم قَبيصَةُ بن ذُؤيب . وعلى بيوت الأموال والخزائن رَجَاءُ بن حَيْوَةَ . وحاجبه يوسف ، مولاه . ومات بدمشق للنصف الثاني من شوال سنة ٨٦ هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وصلّى عليه الوليد ابنه . فكانت ولايته منذ اجتمع عليه ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وقبلها ثماني سنوات قبل الإجماع ، ودفن خارج باب المدينة .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٥٢٩ .
(٢) الطلاء : أول ما يسيل من العنب أو هو الخمر .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٥٧ .
(٤) المرجع السابق ٢٣ .

أولاده ..

أنجب عبدالملك : الوليد ، وسليمان ، ومروان الأكبر ، وعائشة ، وأمهم وَلَّادَة بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عيسى بن بغيض . ويزيد ، وفاطمة وأمهم عاتكة بنت يزيد بن أبي سفيان . وهشام وأُمّه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي . وأما بقية أولاده فهم : أبو بكر ، ومسلمة ، وسعيد الخير، وعبدالله ، وعنبسة ، والحجّاج ، والمنذر ، ومروان الأصغر ، ومحمد ، ومعاوية ، ودرج ، وداود ، وأم كلثوم [1] .

إنجازاته الإدارية والسياسية ..

حوّل الدواوين في الدولة كلها إلى العربية عن الرومية والفارسية . فحولها عن الرومية سليمان بن سعد [2] مولى خشين . وحولها عن الفارسية عبدالرحمن ، مولى عتبة .

وقال مصعب بن عبدالله : كتب عبدالملك على الدنانير «قل هو الله أحد» وفي الوجه الآخر «لا إله إلاّ الله» وطوقه بطوق فضة وكتب فيه «ضرب بمدينة كذا» وكتب خارج الطوق «محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق» وذلك سنة ٧٥ هـ . [3]

عزَّز السلطة بأبهة السلطان فقال يوسف بن الماجشون : كان عبدالملك إذا قعد للحكم قيم على رأسه بالسيوف .[4]

(١) عن الطبري تاريخ الأمم والملوك .
(٢) انظر الفهرست لابن النديم .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٣ .
(٤) المرجع السابق ٢٠٤ .

وقال العسكري : وعبدالملك أوّل من نقل الديوان من الفارسية الى العربية .

وقضى على ابن الزبير بالحجاج سنة ٧٣ هـ . وقضى على المختار والخوارج ومصعب بن الزبير ونشر الأمن ووطّد أركان السلطة وهيبة الدولة ، وأتمّ الفتوحات ، وحصّن الثغور ، وأرهب العدو ، وأمّنَ الناس . وقال أبو الحسن المدائني : كان يقال : معاوية أحلم ، وعبدالملك أحزم .[١]

وكان أديباً بارعاً وخطيباً مفوّهاً ، خطب على المنبر مرّة ، فقال : أيُّها الناس : إن الله حَدَّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتم تزدادون في الذّنب ونزدادُ في العقوبة ، حتّى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف .[٢]

ولما احتضر عبدالملك ، بكى ابنه الوليد ، ولي العهد ، فقال له : ما هذا ؟ أتحن حنين الأَمَةِ ؟ إذا أنا مِتُّ ، فشمِّرْ ، واتّزِرْ ، والبسْ جلدَ النمر ، وضعْ سيفكَ على عاتقكَ ، فمن أبدى ذاتَ نفسه لكَ فاضربْ عنقه ، ومن سكتَ ماتَ بدائه .[٣]

وكتب إلى الحجّاج بن يوسف ، يوصيه بمحمد بن الحنفية وأصحابه خيراً ، ومما جاء فيه : جنِّبني دماء بني عبدالمطّلب ، فليس فيها شفاء من الحَرَبِ[٤] ، وإني رأيت بني حَرْب سُلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي . فلم يتعرَّض الحجّاج لأحد من الطالبيين في أيامه .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٠١ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٥ .
(٤) الحرب بالتحريك : الغضب .

واشتهر عبدالملك بأنه أبو الخلفاء ، فقد استخلف بعده أربعة من أبنائه هم ؛ الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، وتولى الخلافة متوسِّطاً بين الأربعة ابن أخيه عمر بن عبدالعزيز .

شاعريته ..

لعلَّ عبدالملك بن مروان أهمُّ شخصية في ملوك بني أميَّة قاطبة ، لا من حيث توطيده لأسس الدولة وبناء هيكلها الإداري والسياسي فحسب بل من حيث معرفته بالدين والأدب واطِّلاعه الواسع على الشعر العربي في عصره وقبله ، وأوسعهم علماً وحفظاً ، وأعلمهم دراية ونقداً .

فقد روى أبو الحسن المدائني قال : قدم عمر بن علي بن أبي طالب على عبدالملك ، فسأله أن يُصيِّر إليه صدقَةَ عليّ . فقال عبدُالملك متمثلاً بأبيات ابن أبي الحقيق :

إنِّي إذَا مَالَتْ دَواعي الهَوَى   وَأَنْصَتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ
واعْتَلَجَ النَّاسُ بِآرَائِهِمْ   نَقْضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فَاصِلِ
لا نجعل الباطل حَقّاً وَلاَ   نَرْضَى بِدُونِ الحَقِّ لِلْباطِلِ

لا ، لعمري ، لا نخرجها من ولد الحسين إليك . وأمر له بصلة ، ورجع .(١)

وقال الشعبي : ما جالست أحداً إلّا وجدت لي عليه الفضل ، إلّا عبدالملك بن مروان ، فإنِّي ما ذاكرته حديثاً إلّا وزادني فيه ، ولا شعرا إلا وزادني فيه .(٢)

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٠١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢١٦ .

وروي عن عبدالملك شراؤه لجارية حجازية بثمن عال لأدبها ، وأمرها بلزوم مجلسه ، والقيام على رأسه ، فبينما هي عنده ، ومعه ابناه الوليد وسليمان وقد أخلاهما للمذاكرة ، أقبل عليهما فقال : أي بيت قالته العرب أمدح :

فقال الوليد : قول جرير فيك ؟

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل فيك :

شُمْسُ العَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب ، قول حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ

فأطرق عبدالملك ، مستحسناً ، ثم قال : أي بيت قالته العرب أرق ؟

فقال الوليد : قول جرير :

إِنَّ العُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا

وقال سليمان : بل قول عمر بن أبي ربيعة :

حَبَّذَا رَجْعُهَا يَدَيْهَا إِلَيْهَا مِنْ يَدَيْ دِرْعِهَا تَحُلُّ الإِزَارَا

فقالت الجارية : بل بيت يقوله حسان بن ثابت :

لَوْ يَدِبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ عَلَيْهَا ، لأَنْدَبَتْهَا الكُلُومُ

فأطرق عبدالملك ، ثم قال : أي بيت قالته العرب أشجع ؟

فقال الوليد : قول عنترة :

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ عَنْهَا ، وَلَوْ أَنِّي تَضَايَقَ مَقْدَمِي

فقال سليمان : بل قوله :

وَأَنَا المَنِيَّةُ فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا فَالمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الآجَالِ

فقالت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيُوفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا   قُدُماً، وَنُلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك أحسنت.

وبغض النظر عن الأحكام النقدية في هذه القصة، فإنها تدل دلالة واضحة على اهتمام عبد الملك بالشعر، وحرصه على تلقينه لأولاده، إضافة إلى درايته بنقد الشعر ومعرفة غثّه من سمينه.

وكان لحبِّه الأدبَ يوصي بنيه بطلبه، وقد روي عنه أنه قال لهم: عليكم بطلب الأدب فإنّكم إنْ احتجتم إليه كان مالاً، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالاً[1].

وروى له السيوطي في مؤلّفه تاريخ الخلفاء قصيدة يتحدَّث فيها عن نفسه، وإحساسه بالزمن يطارده، فكأنَّه ماعمَّر ولاعاش، رغم خضوع الدنيا له واستسلامها لحد سيفه. فإذا المسرات تذهب، والانتصارات التي كانت تروي ظمأه تتهاوى وكأنها لم تكن، فإنَّه إذا كانت حال الدنيا هكذا، فياليته لم يهتم بالملك ساعة واحدة، ولانهل أو الْتذَّ فيه بلذَّات الحياة مرَّة واحدة. وإنه ليتمنَّى لو أنه عاش عمره كلَّه في ثوبين خلقين، واكتفى ببلغة عيش، مادامت سِنَةُ الكون هكذا تزحف بالمرء نحو القبر يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة:

لَعَمْري لَقَدْ عَمَّرْتُ في الّدهر بُرْهَةً   وَدَانَتْ لِيَ الدُّنْيَا بِوَاقِعِ البَوَاتِرِ[2]

فَأَضْحَى الَّذي قَدْ كَانَ مِمَّا يَسُرُّني   كَلَمْحٍ مَضَى في المُزْمِنَاتِ الغَوَابِرِ[3]

فَيَا لَيْتَنِي لَمْ أُعْنَ بِالْمُلْكِ سَاعَةً   وَلَمْ أَلْهُ في اللَذَّاتِ عَيْشِ النَّواظِرِ

(١) العقد الفريد ٢/٤٢١ .

(٢) البواتر: السيوف.

(٣) الغوابر: القديمات.

وَكُنْتُ كَذِي طِمْرَيْنِ عَاشَ بِبُلْغَةٍ　　مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى زَارَ ضُنْكَ المَقَابِرِ[1]

ولا أدلَّ على حبه للشعر والشعراء من اتخاذه الأخطل التغلبي شاعراً لبلاطه، فقد كان يفد عليه وصليبه في عنقه، ولحيته تنفض خمرا كما يزعمون، وينشده من روائع مدائحه فيه يبلى الدهر ولاتبلى. . ثم أرسل له الحجّاج جريراً، فقلده هذا من المدائح ماجعله يبقى حيا يتنفس على امتداد العصور.

وذكر أبو علي القالي في الأمالي لعبد الملك بن مروان بيتاً من الشعر، ارتجزه يوم سباق الخيل وقد ركبه عبَّادُ بن زِياد فسبق خيل الشام، فقال:

سَبَقَ عَبَّادٌ وَصَلَّتْ لِحْيَتُهُ　　وَكَانَ خَرَّازاً تَجُودُ قِرْبَتُهْ

وكان عبد الملك ينقد الشعر ويفاضل بين الشعراء في بلاطه، ويتمثل بنوادر النظم، وفي ذلك أحاديث مبثوثة في كتب الأدب تعد ولاتحصى، وروى القالي قال: دخل كُثيرٌ على عبد الملك بن مروان، فقال له: أأنت كثير عزة؟ قال: نعم.

قال: تسمع بِالْمُعَيْدِيِّ خير من أن تراه.

فقال: ياأمير المؤمنين، كلٌ عند محلِّه رحبُ الفِناء، شامخ البناء، عالي السناء، ثم أنشد قصيدته التي مطلعها:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزْدَرِيهِ　　وَفِي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ هَصُورُ

فقال عبد الملك: لله درُّه، ماأفصحَ لسانه، وأضبطَ جنانه، وأطولَ عنانه! والله إنِّي لَأظنُّه كما وصف نفسه[2].

ويسائل عبد الملك العجَّاج وقد دخل عليه: ياعجاج! أبلغني أنك لاتقدر على الهجاء.

---

(١) طمرين: ثوبين باليين. البلغة: مايسدُّ الرمق.الضنك: الشدة مع العسر، انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) الأمالي ٤٦/١ - ٤٧ .

وَقَدْ زَعَمَتْ أَنِّي تَغَيَّرْتُ بَعْدَهَا وَمَنْ ذَا الَّذي يَاعَزُّ لايَتَغَيَّرُ؟
تَغَيَّرَ جِسْمِي وَالخَليقَةُ كَالَّتي عَهِدْتِ، وَلَمْ يُخْبِرْ بِسِرِّك مُخْبِرُ

فقالت: لا أروي هذا، ولكنِّي أروي قَوْلَهُ: [1]

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حينَ أَعْرَضَتْ مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشي بِهَا العُصْمُ زَلَّتِ
صَفُوحاً فَمَا تَلْقَاكَ إلا بَخيلَةً فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الوَصْلَ مَلَّتِ

وروي في كتاب أنباء نجباء الأبناء، أنَّ عبد الملك عاتب يوما خالد بن يزيد بن معاوية، على شعر قاله في رملة الزبيريَّة، يقول فيه:

تَجُولُ خَلاخيلُ النِّسَاءِ وَلا أَرَى لِرَمْلَةَ خُلْخَالاً يَجُولُ وَلا قُلْبَا [2]
أُحِبُّ بَني العَوَّامِ طِرّاً لأَجْلِهَا وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا

وقال له بمحضر من أهل الشام: أنت القائل هذه الأبيات؟ وذكر في آخرها:

فَإِنْ تُسْلِمي أُسْلِمْ وَإِنْ تَتَنَصَّرِي يَخُطُّ رِجَالٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ صُلْبَا

فقال خالد: لعن الله قائلَ هذا البيت ياأمير المؤمنين. . ويقول المؤلف: يقال إن عبد الملك هو الذي قالَهُ وصَنَعَهُ على لسان خالد، لبغضه له وليسيء سمعته، لِما كان يتخوَّف من طلبه للخلافة[3].

وكان عبد الملك يطرب للمديح، ويهتز للاطراء، فيفيض سيبه على الشعراء المدَّاحين بما لم يسبق له مثيل، وبالمقابل كان يخشى الهجاء، لإدراكه بأنَّه باق على الزمن، ومصداق ذلك ماجاء في أمالي القالي من أنَّ عبد الملك بن مروان قال لأميَّة بن عبد الله بن خالد بن أُسَيْد: مَالَكَ ولِحُرْثَانَ بنَ عمروٍ حيث يقول فيك:

---

(١) انظر أمالي القالي ٢/١٠٧ .
(٢) الخلخال: مايوضع بالساق كحلية. والقلب: مايوضع في المعصم.
(٣) انظر كتاب أنباء نجباء الأبناء ٩٤ .

إِذَا هَتَفَ العُصْفُورُ طَارَ فُؤَادُهُ ... وَلَيْثُ حَديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرَائِدِ(١)

فقال: ياأمير المؤمنين! وجب عليه حَدٌّ، فأقمْتُهُ.

فقال: هلا دَرَأْتَ عنه بالشبهات؟.

فقال: كان الحَدُّ أَبْيَنَ، وكان رَغْمُهُ عليَّ أَهْوَنَ.

فقال عبد الملك: يابني أميَّة! أحسابُكم أنسابكم، لاتعرَّضوها للهجاء، وإيَّاكم وماسار الشعرُ به، فإنَّه باقٍ مابقيَ الدهر. والله مايسُرُّني أنِّي هُجيتُ بهذا البيت، وأنَّ لي ماطلعتْ عليه الشمسُ:

يَبيتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُهُمْ ... وَجَارَتُهُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصَا(٢)

وما يبالي من مُدِحَ بهذين البيتين، ألا يُمْدَحُ بغيرهما:

هنالك إنْ يُسْتَخْبَلُوا المَالَ يُخْبِلُوا ... وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا، وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا(٣)

عَلَى مُكْثِريهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وَعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ(٤)

وذكر صاحبُ العقد الفريد أنَّ عبدَ الملك بن مروان كتب إلى الحجَّاج بن يوسف الثقفي بيتين من الشعر يُوصيه فيهما بكتمان سره:

وَلاتُفْشِ سِرَّكَ إلا إلَيْكَ ... فَإِنَّ لِكُلِّ نَصيحٍ نَصيحَا(٥)

فَإِنِّي رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَا ... لِ، لا يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحيحَا(٦)

وذكر له بيتاً آخر، فقال: وقف عبد الملك بن مروان على قبر معاوية، فقال:

---

(١) الثرائد: جمع ثريدة وهي نوع من الطعام.

(٢) غرثى: جوعى. خمائص: ضامرات البطون.

(٣) يستخبلوا: يعيدون إبلهم للغير للانتفاع بألبانها وأوبارها وهي كالاكفاء.

(٤) انظر الأمالي ٢/١٥٧ - ١٥٨.

(٥) انظر العقد الفريد ١/٦٥.

(٦) الاديم: الجلد، يقصد أن الغواة يخرقون أعراض الناس.

تالله إنْ كنت إلا كما علمتُ؛ يُنْطِقُك العِلْمُ، ويُسْكِتُكَ الحِلْمُ. وأنشأ يقول:

وَمَا الدَّهْرُ وَالأَيَّامُ إلا كَمَا تَرَى زَرِيَّةُ مَالٍ أَوْ فِرَاقُ حَبيبِ[1]

وفي كتاب الحجّاج إلى عبد الملك، يخبره فيه بقوّةِ ابن الأشعث، وقّع، فقال: بضعفك قَوِيَ، وبخرقك طلع، ووقع في كتاب ابن الأشعث:

فَمَا بَالُ مَنْ أَسْعَى لأَجْبُرَ عَظْمَهُ حِفَاظاً وَيَنْوي مِنْ سَفَاهَتِهِ كَسْرِي؟

ووقّعَ أيضاً في كتاب:

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَ مَا شَمَلَ الرَّأْسَ مَشيبٌ وَصَلَعْ؟

وذكر المدائني قال: دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته، فجعل يبكي عليه وقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقال عبد الملك:

وَمُشْتَغِلٌ عَنَّا يُرِيدُ بِنَا الرَّدَى وَمُسْتَعْبِرَاتٌ وَالعُيُونُ سَوَاجِمُ[2]

أشار بالمصراع الأول إلى الوليد، ثم حَوَّل وجهه عنه، وأشار بالمصراع الثاني إلى نسائه وهُنَّ مستعبرات.

وذكر العتبي وغيره من الإخباريين أنَّ عبد الملك لما سأله الوليد ابنه عن خبره وهو يجود بنفسه، أنشأ يقول:

كَمْ عَائِدٍ رَجُلاً وَلَيْسَ يَعُودُهُ إلا لِيَنْظُرَ هَلْ يَرَاهُ يَمُوتُ[3]

وعندما أوصى عبد الملك إلى الوليد كبير أبنائه بالخلافة، كتب إليه يوصيه بقصيدة منها، قوله:

انْفُوا الضَّغَائِنَ عَنْكُمُ وَعَلَيْكُمُ عِنْدَ المَغِيبِ وَفِي حُضُورِ المَشْهَدِ

---

(١) المرجع السابق ٣/٢٤١ .
(٢) انظر مروج الذهي للمسعوي ٤/١٦٩ .
(٣) انظر مروج الذهب للسمعودي ٤/١٦٩ .

فَصَلاحُ ذَاتِ البَيْنِ طُولُ بَقَائِكُمْ ... إنْ مُدَّ في عُمْرِي وَإنْ لَمْ يُمْدَدِ
فَلِمِثْلِ رَيْبِ الدَّهْرِ أَلِّفَ بَيْنَكُمْ ... بِتَـوَاصُـلٍ وَتَـرَاحُمٍ وَ تَـوَدُّدِ
حَـتَّى تَلِينَ جُـلُودُكُمْ وَقُـلُوبُـكُـمْ ... بِمُسَـوَّدٍ مِنْكُمْ وَغَـيْرِ مُسَـوَّدِ
إنَّ القِدَاحَ إذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَـا ... بِالكَسْرِ ذُو حَنَقٍ وَبَطْشٍ بِـاليَدِ
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وإنْ هِيَ بُدِّدَتْ ... فَـالـوَهْنُ وَالتَّكْسِـيرُ لِلْمُتَبَـدِّدِ[1]

وفي سنة سبعين قتلَ عبدُ الملك بن مروان عمرَو بن سعيد بن العاص الأشدق، وكان ذا شهامة وفصاحة وإقدام، وكانت أمُّه عمَّةَ عبد الملك تحت الحكم بن أبي العاص بن وائل. ثم صعد المنبر وذكر خلافه وشقاقه، ونزل وهو يقول:

أَدْنَـيْتُـهُ مِـنِّي لِتَسْـكُـنَ نُـفْـرَةٌ ... فَأَصُولَ صَـوْلَةَ حَـازِمٍ مُسْتَمْكِنِ
غَضَبـاً وَمَحْـمَـاةً لِـدِينِي، إنَّـهُ ... لَيْسَ المُسِيءُ سَبِيلَهُ كَـالمُحْسِنِ[2]

ولما أسرف الحجّاج في قتل أسارى دير الجماجم، وإعطائه الأموال، بلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغ أميرَ المؤمنين سَرَفُكَ في الدماء، وتبذيرك الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أميرُ المؤمنين في الدماء في الخطأ الدية، وفي العمد القود، وفي الأموال ردّها إلى مواضعها، ثم العمل برأيه.

فإنما أمير المؤمنين أمينُ الله، وسيان عنده منْعُ حقٍّ وإعْطاءُ باطل؛ فإن كنت أردت الناس له فما أغناهم عنك، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران لِينٌ وشِدَّةٌ، فلا يؤنسنّك إلا الطاعة، ولا

---

(١) انظر مروج الذهب ٤/١٧٤ .
(٢) مروج الذهب ٣/١١٠ .

يوحشنّك إلا المعصية، وظِنَّ بأمير المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الظفَرَ على قوم فلا تقتلنَّ جانحا ولاأسيرا . . وكتب في أسفل كتابه[1]:

إذَا أَنْتَ لَمْ تَتْرُكْ أُموراً كَرِهْتُها وَتَطْلُبْ رِضَائِي بِالَّذي أَنَا طَالِبُهْ
وَتَخْشَى الَّذي يَخْشَاهُ مِثْلُكَ هَارِباً إلى الله مِنْهُ ضَيَّعَ الدَّرَّ حَالِبُهْ
فَإنْ تَرَمِنِيَّ وَثْبَةٌ أُمَوِيَّةٌ فَهَذَا وَهَذَا كُلُّ ذا أَنَا صَاحِبُهْ
فَلا، لاتَلُمْني وَالحَوَادِثُ جَمَّةٌ فَإنَّكَ مَجْزِيٌّ بِمَا أَنْتَ كَاسِبُهْ
وَلا تَعْدُ مَايَأتيك مِنِّي، وَإنْ تَعُدْ يَقُومُ بِهَا يَوْماً عَلَيْكَ نَوَادِبُهْ
وَلَا تُنْقِصَنْ لِلنَّاسِ حَقّاً عَلِمْتَهُ وَلَا تُعْطِيَنْ مَا لَيْسَ لله جَانِبُهْ

وهي أبيات من جيد ما اخترناه من قول عبد الملك[2].

فلما قرأ الحجاج كتاب عبد الملك ، كتب : أما بعد ؛ فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سَرَفي في الدماء ، وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هُمْ أهلُهُ ، وما قضيت حقَّ أهل الطاعة بما استحقوه . فإنْ كان قتلي أولئك العصاة سَرَفاً ، وإعطائي أولئك المطيعينَ تبذيراً فَلْيُسوِّغْني أمير المؤمنين ما سلف ، وليُحِدَّ لي فيه حداً أنتهي إليه إن شاء الله تعالى ، ولا قوّة إلاّ بالله .

ووالله ما عَلَيَّ من عَقْلٍ ولا قَوَدٍ: ما أصبت القوم خطأً فَأَدِيَهُمْ، ولا ظلمتهم فَأُقَادَ بهم ، ولا أعطيتهم إلاّ لك ، ولا قتلت إلاّ فيك . وأمّا ما أنا ما منتظره من أمْرَيْكَ فالينهما عُدَّةً وأعظمهما محنةً ، فقد عبأت للعدة الجلاد ، وللمحنة الصبر . . وكتب في أسفل الصفحة .

---

(١) انظر المرجع السابق ١٤١/٣ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ١٤١/٣ ـ ١٤٢ .

إذَا أَنَـا لَمْ أَتْبَعْ رِضَـاكَ وأتَّقي أذَاكَ ، فَيَوْمِي لا تَزُولُ كَوَاكِبُهْ
وَمَا لِامْرِئٍ بَعْـدَ الخَلِيفَةِ جُنَّـةٌ تَقيهِ مِنَ الأمْرِ الَّذِي هُو كَاسِبُهْ
أُسَالِمُ مَنْ سَالمْتَ مِنْ ذِي قَرابَةٍ وَمَنْ لَمْ تُسَـالِمْـهُ فَـإنِّي مُحَـارِبُـهْ
إذَا قَارَفَ الحَجَّاجُ مِنْكَ خَطِيئَةً فَقَامَتْ عَلَيْهِ في الصَّبَاحِ نَوَادِبُهْ
إذَا أنَا لَمْ أُدْنِ الشَّفِيقَ لِنُصْحِهِ وَأُقْصِي الَّذِي تَسْري إليَّ عَقَارِبُهْ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو نَوَالِي وَيَتَّقي مُصَـاوَلَتِي ، وَالدَّهْـرُ جَمٌّ نَوَائِبُـهْ
فَقِفْ بِي عَلَى حَدِّ الرِّضَا لَا أُجُوزُهُ مَدَى الدَّهْرِ حَتَّى يَرْجعَ الدَّر حَالِبُهْ
وَإلَّا فَـدَعْـنِي وَالأُمُـورَ فَـإنَّـنِي شَفِيقٌ رَفِيقٌ أَحْكَمَتْـنِي تَجَـارِبُـهْ

وهي أبياتٌ من جيد ما اخترناه من شِعر الحجاج[1] .

وذكر المدائني قال : دخل الوليد على أبيه عبد الملك عند وفاته ، فجعل يبكي عليه وقال : كيف أصبح أمير المؤمنين ؟

فقال عبد الملك :

وَمُشْتَغِـلٍ عَنَّا يُـرِيدُ بِنَـا الرَّدَىٰ وَمُسْتَعْـبِرَاتٍ وَالعُيُـونُ سَـوَاجِمُ[2]

أشار بالمصراع الأول إلى الوليد ، ثم حوّل عنه وأشار بالمصراع الثاني إلى نسائه وهن المستعبرات،وذكر العتبي وغيره من الإخباريين أن عبد الملك لما سأله الوليد عن خيره وهو يجود بنفسه أنشأ يقول :

كَمْ عَـائِدٍ رَجُـلاً وَلَيْسَ يَعُـودُهُ إلَّا لِيَنْـظُر هَـلْ يَـرَاهُ يَمُـوتُ

وقيل إن عبد الملك نظر إلى الوليد وهو يبكي عند رأسه فقال : يا هذا !

---

(١) المرجع السابق ١٤٢/٣ .
(٢) المرجع السابق ١٦٩ .

أحنين الحمامة ؟ إذا أنامِتُّ فَشَمِّرْ واتَّزِرْ ، والبس جلدَ نمرٍ ، وضعْ سيفكَ على عاتقكَ ، فمن أبدى ذاتَ نفسه لك فاضرب عنقه ، ومن سكتَ مات بدائه[1] .

---

(١) المرجع السابق ١٧٠ .

الوليد بن عبد الملك
٥٠ ـ ٩٦ هـ/٦٦٩ ـ ٧١٥ م

هو الوليدُ بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة ، وأُمُّهُ ولَّادَةُ بنت العبَّاس بن جَزْءِ بن الحارث بن زهير بن جَذيمة العبسيِّ . وكنيته أبو العبّاس . وُلد بدمشق سنة ٥٠ هـ ، ومات فيها يوم السبت في النصف من شهر ربيع الأول سنة ٩٦ هـ وهو ابن ست وأربعين سنة[١] . وصلى عليه أخوه سليمان بن عبد الملك . وهو أَسَنُّ أولادِ عبد الملك وأحبُّهم إليه .

بويع له بالخلافة بعد موت أبيه عبد الملك بن مروان ، وفي النصف من شوال سنة ٨٦ هـ ، وبعد أن صلَّى عليه ، ودفنَهُ ، خرجَ إلى الناس ، وجلس على المنبر ، فَحَمَدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : نعمةٌ ما أجلَّها ، ومصيبةٌ ما أعظَمها ، إنّا لله وإنا إليه راجعون : نَقْلُ الخلافة ، وفقْدُ الخليفة . ثم دعا الناسَ إلى البيعة ، فلم يختلِفْ عليه أحدٌ[٢] .

---

(١) جاء في العقد الفريد ٤/٤٢٢ أنه مات وهو ابن أربع وأربعين سنة دون أن يذكر سنة ولادته .

(٢) انظر تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ٤/٥٨ .

وكانت مدة ولايته عشر سنين غير شهور ، وكان على شرطته كعب بن حماد ، ثم عزله وولّى أبا نائل بن رياح بن عَبَدة الغسّاني .

وَلَدُ الوليد بن عبد الملك . .

أعقبَ الوليدُ نسلاً كثيراً هم : عبد العزيز ، ومحمد ، وعنبسه ، ولم يعقّبوا ، وأمُّهم أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز الخليفة .

والعبّاس وبه كان يكنّى ، ويقال إنه كان أكبرَهم ، وعمر ، وبشر ، وروح ، وتمّام ، ومُبشّر ، وحَزْم ، وخالد ، ويزيد ، ويحيى ، وإبراهيم ، ومسرور ، ومنصور ، ومروان ، وصدقة ، لأمهات أولاد .

وأبو عبيدة أمُّه فَزَاريَّة .

وولي الخلافةَ من وَلَدِ الوليد بن عبد الملك : إبراهيمُ ، شهرين ثم خُلع . وولي يزيدُ الكاملُ شهراً ، ثم مات .

وكان أبو عبيدة ضعيفاً . وكذلك تمّام ، وقد هجاه الناس .

ومسرورُ بن الوليد ، وكان ناسكاً ، وكانت تحته بنتُ الحجاج .

وكان بشْرُ من فتيانهم . وروحُ من غلمانهم . والعبّاس من فرسانهم ، وقد مدحه الفرزدق ، وكانت تحته بنت قَطَرِيٍّ بن الفُجَاءَةَ ، سباها وتزوجها ، وله منها : المُؤَمّل ، والحارث .

وكان عمر من رجالهم ، وكان له تسعون ولداً ، ستّون منهم كانوا يركبون معه إذا ركب .

وعبد العزيز بن الوليد ، أراد أبوه أن يبايع له بعد سليمان ، فأبى عليه سليمان .

وقال رجل من أهل الشام : ليس من وِلْدِ الوليد أحدٌ إلا ومن رآه يحسب أنه أفضل أهل بيته ، ولو وزن بهم أجمعين عبد العزيز لَرَجَحَهُم(1) .

عهد الوليد وإنجازاته . .

كانت مدة الوليد بن عبد الملك غُرَّةً في جبين الدولة الأموية على مختلف الصعد ، فعلى الصعيد الداخليّ اهتمَّ بالعمارة ، أصلح الطرق ، وسهَّل السبل في الحجاز وغيره ، وحفر الآبار في البلاد ، وبنى مسجد بالمدينة ، ومسجد دمشق الذي سمي الجامع الأموي ، والمسجد الأقصى في القدس .

وكان الوليد مثلاً في الإحسان إلى رعيته ، فأغدق عليهم العطاء وعمَّمَهُ ، وعيَّن الولاة المصلحين كتوليته عمر بن عبد العزيز المدينة سنة ٨٧ هـ ، وأعاد سيرة السلف الصالح في هذه الأمة ، فكان لا يقطع أمراً إلّا باستشارة فقهاء المدينة(2) .

وفي عهده برز نخبة من القوَّاد العرب العظام الذين حفظ لهم التاريخ صفحات مشرقة ستظلُّ خالدة على مرِّ الأعصر ، منهم ؛ القاسم بن محمد الثقفيُّ الذي وصلت فتوحاته المجيدة بلاد السند ، وقتيبة بن مسلم صاحب الفتوحات الواسعة في طخارستان وبخارى وكاشان ، وموسى بن نصير فاتح الأندلس ، ومسلمة بن عبد الملك الذي دوَّخ الروم بعزيمة لا تفل ونصر مؤزر ، فكان في كل سنة يغزوهم فتتهاوى أمام ضرباته حصونهم وثغورهم(3) .

---

(1) انظر العقد الفريد لابن عبدربه ٤٢٣/٤ .
(2) انظر تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٥٧٠ .
(3) المرجع السابق .

وهكذا نعمَت الإمبراطورية في عهده بالرخاء والإستقرار ، بعد الحروب الداخلية المنهكة ، وبلغت أوجَها ، وترامت حدودُ الإمبراطورية العربية المسلمة ، وتوغلت الجيوش الإسلامية في الشرق واحتلت بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة ، في حين اندفع محمد بن القاسم في زحفه نحو الهند واجتاز السند واحتل دلتاه وبلغ حيدر أباد . بينما استمر موسى بن نصير بعد فتحه لطنجة في فتوحاته فدانت له الأندلس وساعده في ذلك طارق بن زياد وتوغّلا شمالاً في بلاد القوط[1] .

وهو أوّلُ من أحدث المستشفيات في الإسلام ، وفتح الخانات لإستقبال المسافرين على إمتداد البلاد . وكان الوليد عند أهل الشام أفضلَ خلفائهم ، وأكثرهم فتوحاً، وأعظمهم نفقة في سبيل الله، بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنابر ، وأعطى المجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس ، وأعطى كُلَّ مُقعد خادما ، وَكُلَّ ضرير قائدا[2] .

شاعريته . .

المعروف عن الوليد بن عبد الملك أنّه لم ينظم الشعر ، بل المشهور عنه أنه كان لا يجيد ضبط اللغة ، وكان يلحن ، وقد أحصوا عليه سقطاته على المنبر وهى معروفة[3] .

وبالرغم من هذا فقد ذكر ابن عبدربه في العقد الفريد أن الوليد ركب بعيرا ، وحادٍ يحدو بين يديه ، والوليد يقول :

يَا أَيُّهَا البَكْرُ الَّذي أَرَاكَا   وَيْحَكَ تَعْلَمُ الَّذي عَلاَكَا

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٢٤ .
(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٢٣ .

خَليفَــةُ اللهِ الَّــذي امْتَــطَاكَــا   لَمْ يُجبْ بَكْرٌ مِثْلَ مَـا حَبَاكَـا[1]

وذكر المسعودي في مروج الذهب أن الوليد اشتكى لما بلغه عن أخيه سليمان أنه تمنَّى موته ، وهو وليُّ عهده . فكتب الوليد إليه يعتب عليه الذي بلغه ، وكتب في آخر كتابه به هذه الأبيات :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ   فَتِلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيهَا بِـأَوْحَدِ
لَعَلَّ الَّذي يَرْجُو فَنَائِي وَيَدَّعي   بِهِ قَبْلَ مَوْتي ، أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدِي
فَمَا مَوْتُ مَنْ قَدْ مَاتَ قَبْلي بِضَائِري   وَلَا عَيْشُ مَنْ قَدْ عَاشَ بَعْدي بِمُخْلِدِي
فَقُلْ لِلَّذي يَرْجُو خِلَافَ الَّذي مَضَى :   تَزَوَّدْ لأُخْرَى غَيْـرَهَا فَكَـأَنْ قَدِ
مَنِيَّتُــهُ تَجْـرِي لِــوَقْتٍ ، وَحَتْفُـهُ   سَيَلْحَقُهُ يَوْماً عَلَى غَيْرِ مَوْعِـدِ[2]

فاعتذر له سليمان وقال : فهمت ما قال أمير المؤمنين ، ووالله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال ، إنّي لأوّل لاحق به ، ومنعيٌّ إلى أهله ، فعلام أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنيها إلّا بقدر ما يحل السَّفْرُ بمنزل ثم يظعنون عنه ؟ فقبل الوليد اعتذاره ورضي عنه[3] .

وكان الوليد متحنّنا على إخوته ، مراعياً لسائر ما أوصاه به أبوه عبد الملك ، وكان كثير الإنشاد لأبيات قالها عبد الملك حين كتب إليه بوصيته ، والتي مطلعها :

انْفُوا الضَّغَائِنَ عَنْكُمُ ، وَعَلَيْكُمُ   عِنْدَ المَغيبِ وَفي حُضُورِ المَشْهَدِ

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٢٤ .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٤/١٧٤
(٣) وقد وردت الأبيات في الأمالي للقالي ٣/٢٢٥ برواية مختلفة كثيراً .
(٤) تروى هذه الأبيات على أنها من نظم يزيد بن عبد الملك ، وإن رويت في مكان آخر للرياشي .

سُلَيْمانُ بن عبد الملك
٥٤ ـ ٩٩ هـ/٦٧٢ ـ ٧١٧ م

هو سليمانُ بنُ عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة ، وُلد بالمدينة في بني حُدَيْلَةَ سنة ٥٤ هـ ، وبُويع بالخلافة في ربيع الأول سنة ٩٦ هـ بعد موت أخيه الوليد عبد الملك بن مروان، وكانَ بالرَّمْلَةِ من أرض فلسطين، وأُمُّهُ وَلّادَةُ بنتُ العباس بن جَزْءٍ العبسيّة ، ونشأ بالبادية عند أخواله بني عبس ، فصيحاً جميلاً وسيماً ، وكانت ولا يتهُ يُمْناً وبركةً ، افتتحها بخيرٍ فردَّ المظالم ، وأخرجَ المسجونين ، ودقَّ أسوار القسطنطينية بغَزَاةِ مَسْلَمَة بنِ عبد الملك الصائفة . وختمها بخيرٍ باستخلافه عُمَر بن عبد العزيز[1] .

وقد اسْتبشَر به العامةُ لأنه أزاحَ عنهم عمَّالَ الجور والعسف في عهد أخيه عبد الملك ـ الحجَّاجَ وقتيبةَ بن مسلم ـ وأطلقَ الأسارى ، وخلَّى أهلَ السجون ، وأحسَنَ إلى الناس ، وأكمَل الفتوحات[2] . وكانت ولايته قرابة الثلاث سنوات .

ومات سنة ٩٩ هـ بدابق حلب ودفن فيها ، ليوم الجمعة لعشرٍ خلون من

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٢٤ ـ ٤٢٥ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٥٨٥ .

صفر ، وهو ابن ثلاث وأربعين سنة[1] وصلّى عليه عمر بن عبد العزيز . وكان من خيار بني أمية ، مؤثراً للعدل ، محباً للغزوات ، أحيا الصلاة بأوقاتها ، وأعتق في يوم واحد سبعين ألفاً ما بين مملوكٍ ومملوكةٍ وبَتَّتَهُم[2] .

وأعقب أيُّوبَ ، وأُمُّهُ أُمُّ أبان بنت الحكم بن العاص ، وهو أكبر وَلَدِ سليمان وولي عهده ، لكنّه مات في حياة سليمان . وعبد الواحد ، وعبد العزيز ، أُمُّهُمَا أُمُّ عامر بنت عبدالله بن خالد ، بن أَسِيد[3] .

لم يؤثر عن سليمان بن عبد الملك أنه نظم كثيراً سوى ما ذكره لنا صاحب العقد الفريد ، من أنه عندما ثُقُل عليه المرض قال : ائتوني بقُمُصِ بَني أنظر إليها .

فأتي بها ، فنشرها ، فرآها قصارا ، فقال :

إنَّ بَـنِـيَّ صِـبْـيَـةٌ صِـغَـارُ أفْـلَحَ مَـنْ كَـانَ لَـهُ كِـبَـارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز : أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى[4] .

وقد روي عنه أنه كان يفاضل بين الشعراء ، ويحكم في ما يتميز به بعضهم عن البعض الآخر . وقد ذكروا أنه كان يقول : ثلاثة لا أسأل عنهم ، أنا أعرف العرب بهم ، جرير والفرزدق والأخطل . أما الأخطل فإنه يجيء أبدا سابقاً ، وأما الفرزدق فإنه يجيء مرة سابقاً ومرة ثانياً ، وأما جرير فإنه يجيء ، مرة سابقاً ومرة ثانياً ومرة سكيتاً[5] .

---

(١) بتتهم : اسكنهم في بيوت .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٢٦ .
(٣) هذا الاختلاف في سنة ولادته والأصح ابن خمس وأربعين سنة .
(٤) العقد الفريد ٤/٤٣٠ .
(٥) الشعر والشعراء ١٤٤ .

وقال رجاء بن حَيْوَةَ : قال لي سليمان بن عبد الملك : إلى من ترى أن أعهد ؟

فقلت : إلى عمر بن عبد العزيز .

قال : كيف نصنع بوصيَّة أمير المؤمنين با بني عاتكة ، من كان منهما حياً ؟

قلت : تجعل الأمرَ بعده ليزيد .

قال : صدقت : فكتب عهده لعمر بن عبد العزيز ، ثم ليزيد بعده[1] .

عهد سليمان بن عبد الملك ، وهو زمن وجيز المدة لا يزيد على أربع سنوات بضم مدة عمر بن عبد العزيز ، لأنها من صنع سليمان ونتيجة من نتائج سياسته وتفكيره ـ وقد توسط بين عهدين ؛ الأول ابتداء من حكم يزيد بن معاوية إلى انتهاء ملك الوليد بن عبد الملك، وهي حقبة تنتظم نحو ستٍ وثلاثين سنة في تاريخ الأمويين ٦٠ ـ ٩٦ هـ وهو عهد غلب عليه طابع الحكم المطلق . والثاني يبتدىء من زمن يزيد بن عبد الملك إلى انتهاء عهد الأمويين ١٠٢ ـ ١٣٢ وهو عهد يغلب عليه طابع الحكم المنحل غير المرهوب ـ فهو عهد الخلافة الموقرة ، والملك العادل المرهوب ، كما مرَّ معنا ، كان يمشي فيه الحب في قلوب الشعب إلى جانب الإجلال .

فقد كان سليمان الملك الفاتح ، كما كان الملك الذي أقام العدل والمساواة المشروعة بين الولاة وغير الولاة . كان الملك المحاسب كما كان الملك المعطاء . كان يقيم شعائر الدين الحنيف إلى جانب إقامة مراسيم الملك المنيف . ساس الشعب بقوة ومحبة وتفكير كما يفعل القائد المحنك بفرق الجيش الكثيف المتباعد الأطراف ، فسادت الرهبة اللذيذة التي تدفع إلى الشعور بالرضا ، وأعاد إلى الأمة متانة الخلق السويّ .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٣٠ .

أقرَّ فضائل أسلافه ، ونفى مذامهم ، وأوجد فضائل جديدة طبع بها عصراً جديداً ـ وإن لم يطُلْ ـ كان من بعض إنتاجه خلافة عمر بن عبد العزيز التي مهَّدَ لها هو في عصره بإبراز مظاهر العدل والحكمة في السياسة ومخافة الله . وليست أيام عمر في نظرنا إلاّ امتداداً لأيام سليمان ، وإضافة طبيعية كان يراد منها تركيز الديمقراطية الاسلامية ، مثلما كانت أيام الوليد امتداداً لأيام عبد الملك .

فسليمان البعيد النظر ـ بشهادة مفكري المؤرخين ـ لم يشأ أن يحصر الملك في بني أمية ، وفي الوقت نفسه لم يشأ أو ير أن المصلحة تقضي بإقصاء بني أمية عن هذا الملك وهم الذين أسسوه وتحملوا في سبيله المشاق والصعاب . فكان يفكر في الفرد الذي يجمع إلى العصبية الأموية أو القرشية سجاحة الحكم الإسلامي العربي الحرّ ، فلم يجد أجدر لتحقيق هذه الفكرة من عمر بن عبد العزيز بن مروان ، فهو أموي ، بل ومرواني من جهة ، ولكنه من غير أبناء عبد الملك من جهة أخرى ، وهو مع هذا وذاك رجل دين وعقل وكفاءة للحكم العادل ، وبهذا أصاب سليمان المحزَّ وأصاب الرضا من نفوس الشعب والبيت المتملك من حيث لم يشأ بعض هؤلاء أن يفسر موضع الرضا في هذا الصنيع الحكيم[1] .

وما الفخر الذي يفخر به المؤرخون من أعمال عمر بن عبد العزيز إلاّ عملاً ثانياً من أعمال سليمان بن عبد الملك الذي عدل عن تقليد الخلافة لابنه ، فقلدها ابن عمه ومستشاره[2] .

وقد استطاع الشاعر الفرزدق أن يصور ، بعض التصوير ، جوانب من هذا العصر حيث يقول من قصيدة له في وصف أعمال سليمان :

---

(١) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي للاستاذ محمد حسن عواد صفحة ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) انظر المرجع السابق صفحة ٤٠ .

وَمَا قَامَ مُذْ مَاتَ النَبِيُّ مُحَمَّـدٌ وَعُثْمَانُ ـ فَوْقَ الأَرْضِ ـ رَاعٍ يُعادِلُهْ
وَقَدْ عَلِمُوا أَنْ لَنْ يَميلَ بِكَ الهَوَى وَمَا قُلْتَ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ فَاعِلُهْ[1]

وكان سليمان سيّدَ الحكمة والبلاغة ، كما كان سيدَ العدل والإنصاف ، ورجلَ الثقافة والمعرفة ، فقد قال عنه جرير :

سُليمَـانُ المُبَـارَكُ لَـوْ عِلمتُمْ هُوَ «المَهْدِيُّ» قَدْ وَضُحَ السَّبيلُ

وقال الفرزدق يخاطب العرب في عهد سليمان :

أَلاَ تَشْكُرونَ اللهَ إِذْ فَكَّ عَنْكُمُو أَدَاهِمَ «بِالمَهْدِيِّ» صُمّاً ثِقَالُهـا[2] ؟

ومما يدل على ثقافته الغنية في نقد الشعر إلى الحد الذي يأتي فيه بالرأي الفاصل في ملكات شعراء عصره ، ومراحل تفوقهم في أشواط الشعر وأسرارهم وفنهم في سياق الكلام ، ويلاحظ على معانيهم هفوات عقلية يصاب بها الشعر من ناحية الفكرة أو من ناحية الأسلوب . فقد قال عن شاعرية جرير والفرزدق والأخطل ، وهم أركان الثالوث الشعري في زمن الأمويين : «ثلاثة أنا أعلم بهم ، لا أسأل عنهم أحداً ؛ الأخطل والفرزدق وجرير . فأمّا الأخطل فيجيىء دائماً سابقاً ، وأما الفرزدق فيجيىء مرةً سابقاً ومرة ثانياً . وأما جرير فيجيىء مرة سابقاً ومرةً ثانياً ومرةً سكّيتا»[3] .

وسمر عنده مرةً هؤلاء الثلاثة ، فخفق ، فقالوا : نعس أمير المؤمنين ، وهموا بالقيام . فقال لهم : لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعراً . فقال الأخطلُ :

رَمَـاهُ الكَرَى في رَأْسِهِ فَكَـأَنَّـهُ صَرِيعُ سُقي ما بَيْنَ أَصْحَابِهِ خَمْرا

---

(١) انظر ديوان الفرزدق ومحرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي صفحة ٤٢ حيث القصيدة كاملة .

(٢) المرجع السابق صفحة ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ٩٨ .

فقال سليمان : ويحك ! أسكران جعلتني ؟

فقال جرير :

رَمَـاهُ الكَرَى في رَأْسِـهِ فَكَـأَنَّـهُ   يَرَى في سَوادِ اللَّيلِ قُنْبُرَةً حَمْرا

فقال : ويحك ! أجعلتني أعمى ؟

ثم قال الفرزدق :

رَمَـاهُ الكَرَى في رَأْسِـهِ فَكَـأَنَّـهُ   أَصَمُّ جـلاميدٌ تَـرَكْنَ بِـهِ وَقْـرَا

فقال : ويحك ! أجعلتني مشجوجاً ؟

ثم أذن لهم ، فذهبوا ، فحباهم بعد أن أعطى كلاًّ منهم درساً في التفكير في المعنى الموزون ، قبل اللفظ الموزون[1] .

وحين مرض الوليد بن عبد الملك وبلغه عن أخيه سليمان وكان ولي عهده ، تمنٍ لموته ، عاتبه كما مرّ معنا ، فردّ عليه سليمان برسالة ذيّلها بقوله :

وَمَنْ لَا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَديقِهِ   وَعَنْ بَعْضِ مَافيهِ ، يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِـداً كُـلَّ عَثْـرَةٍ   يَجِدْهَا ، وَلَمْ يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبُ

فكتب له الوليد : ما أحسن ما اعتذرت به ، وحذوت عليه ، وأنت الصادق في المقال والكامل في الفعال ، وما شيء أليق بك من اعتذارك ولا أبعد مما قيل[2] فيك .

ومن فصاحته ويقظته للعربية الرواية التالية : دخل على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بعض الأعراب ، فتقرَّب إليه بقرابة بينه وبينه ، فقال له الوليد : مَنْ خَتَنَكَ ؟ (وفتح النون) . فظن الأعرابي أنه يسأله عن الخُتَّان ، فأجابه : إنه بعض الأطباء .

---

(١) المرجع السابق ٩٨ـ ٩٩ .

(٢) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي لمحمد حسن عواد صفحة ١٠٤ ـ ١٠٥ .

فقال سليمان : إنما يقول لك أميرُ المؤمنين : من خَتَنُكَ ؟ (وضم النون) .
فقال الأعرابي : نعم ختني فلان ، وذكر قرابته[1] .

ومن بلاغته قوله على قبر ولده أيوب كما رواه المسعودي ، قال : «اللهم إني أرجوك له ، وأخافك عليه ، فحقق رجائي وآمن خوفي» .

وقوله في إحدى خطبه ، وهي أول خطبة له : «الحمدلله الذي ما شاء صنع ، وما شاء أعطى وما شاء منع ، وما شاء رفع ، وما شاء وضع .

أيها الناس ! الدنيا غرورٌ وباطل ، وزينة وتقلبٌ ، تُضحِك باكيها ، وتبكي ضاحكَها ، وتُخيفُ آمنها ، وتؤمِّنُ خائفَها ، وتثري فقيرَها ، وتفقِرُ مُثريها ، ميالةٌ بأهلها ، غرَّارةٌ لعَّابَةٌ .

عباد الله ! اتخذوا كتابَ الله إماماً ، وارضوا به حكماً ، واجعلوه لكم هادياً ودليلاً ، فإنه ناسخٌ لما قبله ، ولا ينسخُه كتابٌ بعده ، واعلموا عباد الله ؛ إنه ينفي عنكم كيدَ الشيطان ومطامعَه ، كما يجلو الصبحُ إذا أسفر ، ظلامَ الليل إذا عسعس»[2] .

ونسبَ ابن كثير في تاريخه إلى سليمان بن بعد الملك شيئاً من الشعر الصافي الرقراق ، ومنه قوله يرثي صديقاً له اسمه شراحيل ، ولعلّه أحد المحاربين مع مَسلَمةَ أو مع يزيد ابن المهلب . فقد ورد هذا الاسم فيمن استشهدوا في إحدى تلك الوقائع :

وَهَوَّنَ وَجْدي في شَرَاحيلَ أَنَّني   مَتَى شِئْتُ لاَقَيْتُ امْرءاً مَاتَ صَاحِبُهْ

ومنه قوله :

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق صفحة ١٠٧ .

وَمِنْ شِيَمِي أَنْ لاَ أُفَارِقَ صَاحِبِي وَإِنْ مَلَّنِي إِلاَّ سَأَلْتُ لَهُ رُشْدَا
وإنْ دامَ لي بالودِّ ، دمتُ ولم اكنْ كآخر لا يرعَى ذماماً ولا عهدا[1]

ومنه قوله بعدما أثنت إحدى جواريه على جماله وقالت : إنكَ لا عيب فيكَ إلاّ أنكَ ستفنى . وكان خالُه الوليد بن عباس يصب عليه الوضوء :

قَـرِّبْ وُضـوءَكَ يَـا وليـدُ فـإنَّمـا دُنْـيَـاكَ هَـذِي بُلْغَـةٌ وَمَتَـاعُ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ في حَيَاتِكَ صَالحاً فـالـدَّهْـرُ فيـه فُـرْقَـةٌ وَجِمَـاعُ[2]

ومن أراد المزيد عن بلاغة سليمان وفصاحته فليعد إلى كتاب العواد «محرر الرقيق» .

(١) المرجع السابق ١١١ .
(٢) المرجع السابق ١١٢ .

عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم
٦١ ـ ١٠١ هـ/ ٦٨٠ ـ ٧٢٠ م

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة ، وكنيته أبو حفص ، وأمُّه أمُّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطَّاب . ولد عمر بحلوان ، قرية بمصر ، وأبوه أمير عليها سنة إحدى وستين[١] وتزوج فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان ـ فقد كان أبوها عبد الملك خليفة ، وجدها مروان خليفة ، وأخوتها الوليد ويزيد وهشام خلفاء ، وزوجها عمر خليفة ـ وولي الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ هـ ، ومات يوم الجمعة لست بَقَيْنَ من رجب بدير سِمْعَانَ من أرض حمص سنة ١٠١ وصلى عليه يزيد بن عبد الملك[٢] .

جمع القرآن وهو صغير ، وبعثه أبوه إلى المدينة يتأدَّب بها ، فلما توفِّي أبوه طلبه عبد الملك إلى دمشق وزوجه ابنته فاطمة[٣] .

وقد اعتبره أهل عصره خامس الخلفاء الراشدين . وكان على شرطته يزيد بن بشير الكناني ، وعلى حرسه عمرو بن المهاجر ، ويقال أبو العبَّاس

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧٣ .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٣٢ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧٤ .

الهلالي ، وكان كاتبَهُ على الرسائل ابنُ أبي رقية ، وكاتبه أيضاً إسماعيل بن أبي حكيم ، وعلى خاتَم الخلافة نُعَيْمُ بن أبي سلامة ، وعلى الخراج والجند صالحُ بن جبير ، وعلى إذنه أبو عبيدة الأسود ، مولاه[1] .

ويروى عن عمر أشياء ترتفع به فوق مراقي البشر ، وتغضُّ كتبُ الأقدمين بحسن سيرته وعدله ، فقد كتب إلى عَدِيٍّ بن أرطاة عامله على العراق : إذا أمكنتك القدرةُ على المخلوق ، فاذكر قدرةَ الخالق القادر عليكَ ، واعلم أن مالَكَ عند الله أكثرُ مِمّا لك عند الناس .

ووقف أبناؤه عند وفاته وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : بنفسي فتيةٌ تركتهم ولا مال لهم ! يا بَنِيَّ ؛ إني قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حقٌّ واجب إن شاء الله . يا بَنِيَّ ! مَثَّلْتُ رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بَنِيَّ عصمَكم الله ورزقَكم .

قال : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر[2] .

واشترى عمر بن عبد العزيز من صاحب دير سمعان موضع قبره بأربعين درهماً ، ومرض تسعة أيام ، ومات رضي الله عنه يوم الجمعة[3] .

ويروى أنه وهو أمير قبْلَ أن يستخلفَ ، كان يُحب اللبس والهندام ، ويبالغ في التَّنعم ، ويأخذون عليه في إمارته افراطَه في التنعُّم والاختيال في المِشية[4] .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٣٢ .

(٢) العقد الفريد ٤/٤٤٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٧٤ .

وبما لاشك فيه أنَّ عمر بن عبد العزيز كانَ خطيباً مُفوّهاً في أمور الدين والفقه يحفظُ القرآن ويتسلَّح به ، ولم يؤثر عنه الاستشهاد بغير آي القرآن الكريم ، وروى القالي في أماليه قال : حدثنا أبو بكر بن الأنباري قال : حدثنا أحمد بن عبيد قال : قال عمر بن عبد العزيز قبل خلافته شعراً ، يدل على الزهد والتقوى ، وأن صاحبَه عازفٌ عن الدنيا ومسرّاتها مما أثبته حمّادُ الراوية :

إنَّهَ الفُؤادَ عَنِ الصِّبَا وَعَنِ انْقِيَادٍ لِلْهَوى[1]
فَلَعَمْرُ رَبِّكَ إنَّ في شَيْبِ المَفَارِقِ وَالجَلا
لَكَ وَاعِظاً لَوْ كُنْتَ تَتَّـ ـعِظُ اتِّعَاظَ ذَوِي النُّهَى
حَتَّى مَتَى لَا تَرْعَوِي وَإلى مَتَى وَإلى مَتَى
مَا بَعْدَ أَنْ سُمِّيتَ كَهْـ ـلاً وَاسْتُلِبْتَ اسْمَ الفَتَى
بَلِيَ الشَّبَابُ وَأَنْتَ إنْ عُمِّرْتَ رَهْنٌ لِلْبِلَى
وَكَفَى بِذَلِكَ زَاجِراً لِلْمَرْءِ عَنْ غِيٍّ كَفَى[2]

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنّه خرج في سفر ليلاً ، هو ورفيق له ، فقال له رفيقه : انظر إلى القمر ما أحسنه ! فنظر فقال : قد علمت أنّك أردت نزوله بالدبران ونحن لا نتطير لذلك ولا نعتقده ، ثم قال :

إذَا عَقَدَ القَضَاءُ عَلَيْكَ أَمْراً فَلَيْسَ يَحُلُّهُ إلَّا القَضَاءُ
يُدَبِّرُ بِالنُّجُومِ وَلَيْسَ يَدْرِي وَرَبُّ النَّجْمِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

وتدل هذه الأبيات سواء أنشدها لنفسه أو تمثل بها على نزعة عمر للزهد والعبادة والاستسلام لله عز وجل بكل ما يفعل ويقدر .

---

(١) جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٩٠ أنه الفؤاد بصيغة المتكلم وهي رواية العمدة لابن رشيق أيضاً ١/٣٨ .
(٢) انظر في الأمالي ٢/٤٧ والعمدة لابن رشيق ١/٣٨ .

وجاء في العمدة لابن رشيق ، قوله ، ثم نرجع إلى الخلفاء المرضيين : قال عمر بن عبد العزيز ، رواه الأوزاعي عن محمد بن كعب :

أَيَقْظَانُ أَنْتَ اليَوْمَ ، أَمْ أَنْتَ حَالِمٌ ؟ وَكَيْفَ يَطِيقُ النَّوْمَ ، حَيْرَانُ هَائِمُ
فَلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الغَدَاةَ لَحَرَّقَتْ جُفُوناً لِعَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ وَلَيْلُكَ نَوْمٌ ، وَالرَّدَى لَكَ لَازِمُ
وَتُشْغَلُ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ البَهَائِمُ(١)

ومن شعره أيضاً ، أنشده ابن داود القيسي في كتابه :

وَلَوْلَا النُّهَى ثُمَّ التُّقَى خَشْيَةَ الرَّدَى لَعَاصَيْتُ فِي حُبِّ الصِّبَا كُلَّ زَاجِرِ
صَبَا مَا صَبَا فِيمَا مَضَى ، ثُمَّ لَا تَرَى لَهُ صَبْوَةً أُخْرَى اللَّيَالِي الغَوَابِرِ(٢)

وأنشدوا من شعره قوله :

فَتىً عِرْضُهُ عِنْدَ أَعْدَائِهِ مَصُونٌ ، وَأَمْوَالُهُ تُبْتَذَلْ
وَأَيَّامُهُ دُوَلٌ لِلصَّدِيقِ وَأَفْعَالُهُ فِي الأَعَادِي مَثَلْ
فَلَوْ كَانَ غَيْثاً لَعَمَّ البِلَادَ وَلَوْ كَانَ سَيْفاً ، لَكَانَ أَجَلْ
لَوْ كَانَ مُعْطٍ عَلَى قَدْرِهِ لَأَغْنَى النُّفُوسَ ، وَأَفْنَى الأَمَلْ

وفَدَ عليه وفدُ الحجاز ، فاختارَ الوفدُ غلاماً منهم ، فقدَّموه ليبدأ الكلام ، قال عمر : مهلاً يا غلامُ لِيتكلّم من هو أسنُّ منك . فقال مهلاً يا أمير المؤمنين : إنما المرءُ بأصغريه قلبِه ولسانِه . الخ .

فأنشأ الخليفة بعدما أبدع الغلام وأجاد ، فقال :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عَالِماً وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيرَ القَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَّفَّتْ عَلَيْهِ المَحَافِلُ(٣)

(١) انظر العمدة لابن رشيق ١/٣٧ .
(٢) انظر الأبيات في العمدة لابن رشيق مع خلاف في رواية البيت الثاني .
(٣) انظر القصة كاملة في الجزء الثالث من مروج الذهب للمسعودي صفحة ١٩٧ .

يزيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بن مروان
٧١ ـ ١٠٥ هـ/٦٨٨ ـ ٧٢٤ م

هو يزيد بن عبد الملك بن مروانَ بن الحكم بن العاص بن أميَّة ، الأمويُّ ، الدمشقيُّ ، كنيتُه أبو خالدٍ ، وولد سنة ٧١ هـ بدمشق ، وولي الخلافة بعد عمرَ بن عبد العزيز بعهدٍ من أخيه سليمان[1] يومَ الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ[2] ، وتوفي يزيدُ بن عبد الملك بإرْبِدَ من أرض البَلْقَاءِ في الأردن وكانت أيَّامها من أعمال دمشْق ، يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ وهو ابنُ سبع وثلاثين سنة[3] وأصحُّ من ذلك ما رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد من أنه مات وهو ابن أربعٍ وثلاثين سنة ، وصلَّى عليه أخُوهُ هشامُ بن عبد الملك .

أمُّهُ عاتِكةُ بنتُ يزيدَ بن معاويةَ بنِ أبي سُفْيان . وكان على شرطته كَعْبُ بن مالك العبسي ، وعلى الحرس غَيْلَانُ أبو سعيد ، مولاه . وعلى خاتم الخلافة مَطَرٌ ، مولاه ، وكان فاسِقاً . وعلى الخاتم الصغير بُكَيْرٌ أبُو الحجاج . وعلى الرسائل والجند والخراج صالحُ بن جُبَيْرٍ الهمداني ، ثم عزله واستعمل أُسامَةَ بنَ

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٩٤ وقارنه مع ما جاء في تاريخ الأمم الإسلامية للخضري صفحة ٦٠٠ إذْ يشير إلى أن ولادته كانت ٦٥ هـ .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢٠٦/٣ .

زَيْدٍ ، مولى كَلْب . وعلى الخزائن وبيت الأموال هشامُ بن مَصَادٍ . وحاجبُهُ خالدٌ ، مولاه[1] .

أولاده :

وعددهم عشرة وهم : الوليدُ ، ويحيى ، وعبدالله ، والغَمْرُ ، وعبد الجبّار ، وسليمان ، وأبو سفيان ، وهاشم ، وداود ولا عقب له ، والعوّام ولا عقب له .

سيرته :

وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن ابن الماجشون قال : لمَّا مَاتَ عمر بنُ عبد العزيز قال يزيدُ : ما عُمَرُ بأَحْوَجَ إلى الله منّي ! فأقام أربعين يوماً يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ثم عدل عن ذلك[2] ومال إلى اللَّهو ، لأن يزيد بن عبد الملك كان صاحبَ لهوٍ وملذّاتٍ ، وقد شُهِرَ بصاحبتَيْهِ ، سَلاَّمَةَ وحَبَابَة المغنيتين الجميلتين .

أمَّا الجَارِيَة سَلاَّمةُ القَسِّ وكانت لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، فاشتراها يزيدُ بثلاثة آلاف دينار ، فأعجب بها ، وَغَلَبَتْ على أمره ، فاحتالَتْ أُمُّ سعيد العثمانية جَدَّتُهُ بشراء جارية يقال لها ، حَبَابَةُ ، قد كان في نفس يزيد بن عبد الملك قديماً منها شيء ، فغلبت عليه ، ووهبَ سلاَّمَةَ لأمِّ سعيد ، وانصرفَ إلى حبابة لا يريد من الدُنْيا غيرَها . فعذله أخوه مَسْلَمَةُ بن عبد الملك ، فارتدع وأظهر الإقلاع والندم ، فغلُظَ ذلك على حبابة ، فبعثَتْ إلى الأَحوصِ الشاعر ومَعْبَدٍ المغني ، وأمرتهما أن ينظُرا في أمرها ، فقال الأحوص في أبيات له :

(١) انظر المسعودي وقارنه مع العقد الفريد ٤/٤٤١ حيث يذكر أن عمره حين وفاته ٣٤ سنة .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٣/٢٠٦ .
(٣) العقد الفريد ٤/٤٤١ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٩٤ .

أَلَا لَا تَلُمْـهُ الـيَـوْمَ أَنْ يَتَبَـلَّدَا ... فَقَـدْ غَلَبَ المحزُونَ أَنْ يَتَجَلَّدَا
إِذَا كُنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الهَوَى ... فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّلْدِ جَلْمَدَا
فَـمَا العَيْشُ إِلَّا مَـا تَلَذُّ وَتَشْتَهِي ... وَإِن لَامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَّدَا

وغناه مَعْبَدُ ، وأخذته حبابة ، فلما دخل عليها يزيد قالت : يا أمير المؤمنين ! اسمع مني صوتاً واحداً ثم افعل ما بدالك . وغنته ، فلما فرغت منه جعل يردِّدُ قولها : «فما العيش إلا . . .» وعاد بعد ذلك إلى لهوه وقصفه ، ورفض فيها لومة الشنآن[1] .

ولما ماتت حبابة حزن عليها يزيد بن عبد الملك حزناً شديداً ، وضمَّ إليه جُوَيْرِيَةً لها كانت تحدثها ، فكانت تخدمه ، فتمثَّلت الجارية يوماً :

كَفَى حَزناً لِلْهَائِمِ الصَبِّ أَنْ يَرَى ... مَنَـازِلَ مَنْ يَهْوَى مُعَـطَّلَةً قَفْـرَا

فبكى حتَّى كاد أن يموت ، ولم تزلْ تلك الجويرية معه يتذكر بها حبابة حتَّى مات[2] .

وكان أوّل ما علق بها يزيد بن عبد الملك وهو أميرٌ قد حَجَّ في خلافة أخيه سليمان ، فزعموا أنَّها كانت جاريةَ لَاحِقٍ المكية ، وكانت فائقةَ الجمال وغايةً في الغناء ، فعلقها قلبه وكان اسمها العالية ، فاشتراها وسمَّاها حَبَابة ، فلما سمع أخوه سليمان بأمره وأمرها غضب وهدَّده ، فردَّها وظلَّ قلبه مشغوفاً بها ، وعاد إلى دمشق مغلوباً على أمره حزيناً مهموماً ، يؤرِّقه لهيب الشوق ويحرقه أوار الحبّ والحسرة ، فقال فيها :

أَبْلِغْ حَبَـابَةَ أَرْوَى رَبْعَهَـا المَطَرُ ... مَـالِلْفُؤَادِ سِـوَى ذِكْرَاكُمُ وَطَـرُ[3]

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢٠٧/٣ - ٢٠٨ .
(٢) انظر مروج الذهب للمسعودي ٢٠٩/٣ - ٢١٠ .
(٣) الوطر : الغرض .

إنْ سَارَ صَحْبِيَ لَمْ أَمْلِكْ تَذَكُّرَكُمْ أَوْ عَرَّسُوا فَهُمُومُ النَّفْسِ وَالفِكَرُ[1]

وكان ليزيد امرأة من آل عثمان بن عفان اسمها سعدة ، تعلَمُ حُبَّهُ وتعلُّقَه بحبابة ، وقصتَه معها ، وأنه دون شك سيطلبها وقد صار الأمر بيده . فسبقت واشترتها وهي عازمة أن تهديها له ، علها تسترضيه بذلك ، وتوطىء لابنها عنده في ولاية العهد . فلما حصلت عندها ، هيأتها وأتت بها يزيد وأجلستها من وراء الستر ، ثم قالت ليزيد : هل بقي من الدنيا شيءٌ تتمنّاه بعد ؟

فقال : نعم ! حبابة .

فرفعت الستر وقالت : هذه حبابة ، وقامت وخلّتها عنده فسرَّ بذلك وقال : أنا الآن كما قال القائل :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالإِيَابِ المُسَافِرُ[2]

ولم يذكر الرواة ليزيد كثيراً من الشعر على الرغم من حبِّه للشعر والغناء ، وانصرافه لهما دون غيرهما من الفنون . ونحن لا نصدِّق أنّه لم يقل شعراً كثيراً في حبّابة ، بخاصّة وقد ملكت عليه قلبه وعقله ، وملأت عليه دنياه ، فقد زعموا أنَّها غنته مرةً فطرب وشق حلته ، وقال لها : أَتأذنين أن أطير ؟

قالت : وإلى من تدعِ الناس ؟

قال : إليك !

لقد أضاع التاريخ كثيراً مما قد يُلقي ضوءاً على ما قاله يزيد بن عبد الملك في معشوقته التي فتحت له نوافذَ لا تُحدُّ ولا تعدُّ على دنيا الشعر والغناء ، ليس ذلك فحسب ، بل في أجوائه هذه وُلِدَ أعظمُ شعراء ملوك بني أمية على الإطلاق الوليد بن يزيد بن عبد الملك . بل إننا سنرى أنّ حبّه لحبابة بلغ به درجة يمكن أن

---

(١) عرسوا : أقاموا .

(٢) انظر الأغاني ١٣/١٥٥ .

يقال إنّه لم يبلغها سوى قليلٍ من المحبّين ، ولعلَّهُ لم يُعْرَفْ بين العشاق المتيّمين من بلغَ عشقُهُ مثلَ هذه الدرجة منَ الفَناء ، فهو يمثّل فعلاً شهيدَ الحبِّ الحقيقي ، ويروون أنَّها لما شرقت بحبَّة رمان أثناء نزهة لها معه في رياض دمشق ماتت على أثرها ، فجزع جزعاً شديداً ، وهلع قلبُه ، وذُهل عقلُه ، وأقام أياماً لا يدفنها حتى تعضَّتْ ، ولم يلبث بعد دفنها طويلاً حتى أمر بنبش قبرها ، وكشفَ عنها ، فصرفه الناس عنها ، ولم يلبث سوى خمسة عشر يوماً وتوفيَّ بعدها ، وهو يتمثّل بهذا البيت :

لَئِنْ تَسْلُو عَنْكِ النَّفسُ أَوْ تَذْهَلِ الهَوَى ... فَبِالْيَأْس يَسْلُو القَلْبُ لاَ بِالتَّجَلُّدِ

وَكُـلُّ خَليلٍ زَارَنِي فَهْـوَ قَائِـلٌ ... مِنْ أَجْلِكِ : هَذَا هَالِكُ اليَوْمِ أَوْ غَدِ[1]

وتحدث صاحب العقد الفريد عن جفوة حدثت بين يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام ، لما بلغه من أن هشاماً ينتقصه ، فكتب إليه يزيد : إنَّ مثلي ومثلك كما قال الأول :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِـأَوْحَدِ

لَعَلَّ الَّذِي يَبْغي رَدَايَ وَيَرْتَجِي ... بِهِ قَبْلَ مَوْتِي أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّدِي

فكتب إليه هشام : إنَّ مثلي ومثلك كما قال الأوَّل :

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ

وَمَنْ يَتَتَبَّـعْ جَاهِـداً كُـلَّ عَثْـرَةٍ ... يَجِدْهَا وَلاَ يَبْقَى لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

فكتب إليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذبون ما بلغنا عنك ، مع حفظ وصيّة أبينا عبد الملك ، وما حضّ عليه من صلاح ذات البين . وإني لأعلم أنّك كما قال معن بن أوس :

---

(١) حياة الحيوان الكبرى للدميري ١/١٠٤ والأغاني ١٣/١٦٥ .

لَعَمْـرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لأَوْجُـل   عَـلَى أَيِّنَـا تَعْـدُو المَنِيَّـةُ أَوَّلُ
وَإِنِّي عَـلَى أَشْيَـاءَ مِنْـكَ تُـرِيبُنِي   قَدِيماً لَذُوَ صفح عَلَى ذَاكَ مُجْمِلُ
سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي   يَمِينَكَ ، فَانْـظُرْ أَيَّ كَفٍّ تَبَدَّلُ
إِذَا سُؤْتَنِي يَوْماً ، صَفَحْتُ إِلىٰ غَدٍ   لِيَعْقُبَ يَوْماً مِنْـكَ آخَرُ مُقْبِلُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ   عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مَنْ أَنْ تَضِيمَهُ   إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ
وَفِي النَّاسِ إِنْ رَثَّتْ حِبَالُكَ وَاصِلٌ   وَفِي الأَرْضِ عَنْ دَارِ العلَى مُتَحَوَّلُ

فلما جاءه الكتابُ رحل هشامٌ إليه ، فلم يزل في جواره إلى أنْ مات يزيد ، وهو معه في عسكره مخافة أهل البغي[1] .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٤٣ ـ ٤٤٤ والأمالي ٣/٢٨١ مع خلاف هذه الرواية ، وقد مرت معنا .

هِشَامُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بن مروان
٧٢ ـ ١٢٥ هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٤٣ م

هو هشامُ بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة ، عاشر خلفاء بني أمية وسابع خلفاء المروانيين ، وُلد سنة ٧٠ هـ بدمشق ، وقيل سنة ٧٢ هـ وأمُّه عائشة أمُّ هشام بنتُ هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي ، وتوفي بالرُّصَافَةِ يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من ربيع الأوَّل سنة ١٢٥ وهو ابن ثلاثٍ وخمسين سنة ، وصلَّى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد بعده .

وكان قد بُويع له بالخلافة يوم الجمعة لخمس ليالٍ بقين من شعبان سنة ١٠٥ هـ ، فكانت خلافتُه عشرين سنةً . وكان على شرطته كعب بن عامر العبسيّ . وعلى الرسائل سالم ، مولاه . وعلى خاتم الخلافة الربيع ، مولى لبني الحريش ، وهو الربيع بن سابور . وعلى الخاتم الصغير أبو الزبير ، مولاه . وعلى ديوان الخراج والجند أسامة بن زيد ، ثم عزله وولى الحَنْحاثَ ، وعلى إذنه غالب بن مسعود ، مولاه[1] .

---

(١) العقد الفريد ٤/٤٤٥ .

أولاده . .

معاويةُ ، وخلف ، ومسلمة ، ومحمَّد ، وسليمان ، وسعيد ، وعبدالله ، ويزيد - وهو الأبكم - ومروان ، وإبراهيم ، ويحيى ، ومنذر ، وعبد الملك ، والوليد ، وقريش ، وعبد الرحمن .

أيامه . .

كان مقيماً بحمص حين مات أخوه يزيدُ ، فجاءته البشارة بالخلافة ، فأقبل حتى أتى دمشق ، وتمَّتْ له البيعةُ فيها ، وكان هشامُ معدوداً من خيرة خلفاء بني أميَّةَ ، وكان خلُقُهُ الحِلم والعفَّة[1] . وقال أصبغُ بن الفَرجِ : لم يكن في بني مروان من ملوكها أعطرَ ولا ألْبَسَ من هشام ، خرج حاجاً فحمل ثيابَ طُهره على ستمئة جمل[2] .

وجلس إبراهيم بن محمَّد بن طلحة ، وصاحب حرس هشام بين يدي قاضي هشام ، وقال الحَرسيُّ : إنَّ أمير المؤمنين جَرَّاني[3] في خُصومة بينه وبين إبراهيم .

قال القاضي : شاهديك على الجراية .

فقال : أتَراني قلتُ على أمير المؤمنين ما لم يَقُل ! وليس بيني وبينه إلاّ هذه الستارة ؟

قال : لا ، ولكنَّه لا يثبتُ الحق لك ولا عليك إلاّ ببيِّنة .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ٦٠٤ .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٤٧ .
(٣) جرّاني : يقال جرى بالتضعيف وأجرى إذا أرسل وكيلا .

قال : فقام ، فلم يلبث حتى قعقعتِ الأبوابُ ، وخرج الحرسيُّ ، فقال : هذا أمير المؤمنين .

قال : فقام القاضي ، فأشار إليه . فقعد ، وبسطَ له مصلى فقعد عليه هو وإبراهيم .

وقال العتبي راوي الخبر : وكُنّا حيث نسمعُ بعض كلامهما ويخفى علينا البعض ، قال : فتكلما وأحضرت البيِّنَةُ ، فقضى القاضي على هشامٍ .

فتكلم إبراهيم بكلمةٍ فيها بعض الخَرَقِ ، فقال : الحمدُ لله الذي أَبَانَ للناس ظُلمَكَ !

فقال هشام : لقد هممتُ أن أضربَكَ ضربةً ينتثر منها لحُمك عن عظمك .

قال : أما والله لَئِنْ فعلْتَ ، لتفعلنّه بشيخ كبير السنّ ، قريب القرابة ، واجب الحقّ .

قال : استرها عليّ يا إبراهيم .

قلت : لا سترَ الله عليَّ ذنبي إذاً يوم القيامة .

قال : إنّي معطيكَ عليها مئةَ ألف درهم .

قال إبراهيم : فسترتُها عليه طولَ حياته ثمناً لما أخذت منه ، وأذعتُها عنه بعد موته تزييناً له(١) . هذا بعضٌ من عدل هشام وحسن سيرته ولا يتّسع المقام لتعدادها ، ومثلها قصّة أبي جعد الطائي(٢) .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٤٨ .
(٢) عد للمصدر السابق ٤/٤٤٨ .

وقال عبدالله بن عبد الحكم فقيه مصر : سمعت الأشياخ يقولون : سنة خمس وعشرين ومئة أُديل الشرف وذهبتِ المروءةُ ، وذلك عند موت هشام بن عبد الملك[1] .

واهتم هشام مدة خلافته الطويلة ، بالعمران وبناء القصور ، والإنفاق عليها ، والإنغماس بحياة البذخ وأبهة الحكم ، يُعزى بناءُ مُعظمِ قصور الأمويين المنتشرة في بادية الشام والرصافة إلى هشام .

ويظهر أن هشاماً لم يقُلْ شعراً كثيراً ، ونحن نستغربُ ذلك لأنّنا نعرف أنه كان كوالده الوليد بن عبد الملك ، كثيرَ الإستشهاد بالشعر والتمثّل به في مجالسه ، ولاسيَّما وقد كُنّا أشرنا في أخبار أخيه يزيد بن عبد الملك إلى الجفوة التي حدثت بينهما بسعي من الوشاة ، وما أحدثته من محاورة شعرية بينهما ، إذْ نُسِبَ إليه بعض الشعر ، فقال مخاطباً أخاه :

وَمَنْ لَا يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عَنْ صَديقِهِ وَعَنْ بَعْضِ مَا فيهِ يَمُتْ وَهْوَ عَاتِبُ
وَمَنْ يَتَتَبَّعْ جَاهِداً كُلَّ عَثْرَةٍ يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرَ صَاحِبُ

ونسمعُه يجاوبُ خالد بن صفوان حينما سأله العفو عن خالد القسريِّ إعادة إستعماله بعد أن صرفه ، فقال :

إِذَا انْصَرَفَتْ نَفْسي عَنِ الشيَّءِ لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبِلُ[2]

وقد روى السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن هشاماً لم يحفظ له سوى البيت التالي :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الهَوَى ، قَادَكَ الهَوَى إِلىٰ بَعْضِ مَا فيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

(١) العقد الفريد ٤/٤٥١ .
(٢) العقد الفريد ٤/٤٤٦ .

وبموت هشام بن عبد الملك ، واستخلاف الوليد بن أخيه ، انطلق الشعر في الشام إنطلاقةً جديدةً ، فقد كان الوليدُ هو الشاعر الثاني بين ملوك بني أمية بعد يزيد بن معاوية ، وهو جديرٌ بلقب الملك الشاعر برغم أن عهده في الملك لم يطل ، وأن أكثر شعره قاله وهو أميرٌ قبل أن يصلَ إليه المُلكُ ، ولكنَّ شعره حتّى في دور ملكه القصير كان كثيراً ، وقد جمعَ بعضَه المتأخرون في ديوان[1] .

وفي عهده بعث محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس رُسُلَه إلى خراسان ، فغرسوا بها غرساً ، وأبو مسلم الخراساني السرّاج المقدم عليهم ، وثارت الفتنة في خراسان بين المضريّة واليمينّة ، فتمكّن أمر أبي مسلم ، وفرّق رسله في كور خراسان يدعو الناس إلى آل الرسول ، فأجابوه[2] .

وكان نصر بن سيار عامل خراسان لهشام بن عبد الملك ، يكتب لهشام بخبرهم ، وتمضي كتبه إلى ابن هبيرة صاحب العراق لينفذها إلى أمير المؤمنين . فكان يحبسها ولا ينفذها لئلا يقوم لنصر بن سيار قائمة عند الخليفة ، وكان في ابن هبيرة حسد شديد .

فلما طال بنصر بن سيّار ذلك ولم يأته جواب من عند هشام كتب كتاباً وامضاه إلى هشام على غير طريق ابن هبيرة ، وفي الكتاب هذه الأبيات مدرجة ، يقول فيها :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ فَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامُ
فَإِنَّ النَّارَ بِالعُودَيْنِ تُذْكي وَإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُهَا الكَلاَمُ
فَإِنْ لَمْ تُطْفِئُوهَا تَجْنِ حَرْباً مُشَمَّرَةً يَشِيبُ لَهَا الغُلاَمُ

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٩٦ ،
(٢) انظر العقد الفريد ٤/٤٧٦ .

فَقلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أأيْـقَـاظٌ أُمَـيَّـةُ أَمْ نِـيَـامُ ؟
فَـإنْ كَـانُـوا لِحَيْنِهِـمُ نِيَـامـاً فَقُـلْ قُومُـوا فَقَـدْ حَـانَ القِيَامُ
فَفِـرِّي عَنْ رِحَـالِـكِ ثُمَّ قُـولِي عَلَى الإِسْلَامِ وَالعَرَبِ السَّلَامُ[1]

فكتب إليَّ هشام : أنِ احسم ذلك الثؤلول الذي نجم عندكم[2] .

قال نصر : وكيف لنا بحسمه !

وقال نصر بن سيّار يخاطب المضرية واليمانيّة ، يحذِّرهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله :

أَبْلِغْ رَبيعَـةَ في مَـرْوٍ وَإِخْـوَتِهِمْ فَلْيَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لاَ يَنْفَعَ الغَضَبُ
وَلْيَنْصبُوا الحَرْبَ إِنَّ القَوْمَ قَدْ نَصَبُوا حَرْباً يُحَرِّقُ في حَافَاتِهَا الحَطَبُ
مَـابَالُكُمْ تَلْقَحُـونَ الحَرْبَ بَيْنَكُمُ كَأَنَّ أَهْلَ الحِجَاعَنْ فِعْلِكُمْ غَيَبُ
وَتَتْـرُكُـونَ عَـدُوّاً قَـدْ أَظَلَّكُمُ مِمَّا تَأَشَّبَ لاَ دِينٌ وَلاَ حَسَبُ[3]
قِدْماً يَدينُونَ دَيْناً مَا سَمِعْتُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلاً عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ فَـإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَـلَ العَـرَبُ[4]

ثم مات محمّد بن علي في أيَّام الوليد بن يزيد ، وأوصىٰ لولده إبراهيم بن محمد الملَّقب بالإمام ، فقام بأمر الشيعة . وقدَّمَ عليهم أبا مسلم السرَّاج وسليمان بن كثير ، وقال لأبي مسلم : إن استطعت أن لا تدع بخراسان عربياً فافعل ، ومن شككت في أمره فاقتله . فنقل هذا الكتاب إلى مروان بن محمد ،

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٧٨ مع إختلاف الرواية في تاريخ الطبري جزء ٤١ صفحة ١٩١ ومروج الذهب ٢٠٢/٢ .
(٢) الثؤلول : بثر صغير صلب مستدير على سطح الجلد على صور شتى .
(٣) تأشب القوم : اختلطوا .
(٤) انظر العقد الفريد ٤/٤٧٩ .

فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وهو عامله على دمشق : أن اكتب إلى عاملك بالبلقاء ليسير إلى الحميمة ، فيأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وَثاقاً ثم يبعث به إليك ، ثم وجِّهْهُ إليَّ .

فحُمِلَ إلى مروان ، ومعه من أهله عبدالله بن علي وعيسى بن موسى ، فأدخل على مروان فأمر بحبسه ، ثم قتله بعد فترة[1] .

شعره . .

وذكر الماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين ، قول ابن المعتز : لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصَ الهَوىٰ ، قادَكَ الهَوىٰ إلىٰ كُلِّ ما فيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ[2]

(١) العقد الفريد ٤/٤٧٩ .
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي ٣٠ .

الوليد بن يزيد بن عبد الملك
٨٨ ـ ١٢٦ هـ/٧٠٦ ـ ٧٤٤ م

حياته ...

شعره ....

أ ـ شعره الغزلي

ب ـ خمرياته

جـ ـ أغراضه الشعرية الأخرى

د ـ لمحة عامة في شعر الوليد

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان
٨٨ - ١٢٦هـ / ٧٠٦ - ٧٤٤م

حياته ..

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميَّة، ولد سنة ٨٨هـ بدمشق، وكان من أعرق الملوك نسباً، فقد ورثَ المجدَ من أطرافه العربية الشريفة كلِّها، فهو أمويّ من عبد شمس من الأعياص من بني أُميَّة الَّذين منهم عثمانُ بن عفَّان ومروان بن الحكم. أبوه الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، وجدَّته عاتكة بنتُ يزيد بن معاوية أعرق نساءِ العرب في الملك، وأمُّه بنت محمد بن يوسف الثقفي بنت أخي الحجاج الشهير، ومن جدَّاته أُمّ حكيم بنتِ عبد المطَّلب عَمَّةِ النبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم[1]، وقد عَرَفَ شرفَ نسبه العريق هذا فَزَها به وقال مَرَّةً مُفاخراً:

أَنَا ابْنُ أَبي العاصِ، وَعُثْمَانُ وَالِدِي ... وَمَرْوَانُ جَدِّي ذُو الفَعَالِ وَعَامِرُ
أَنَا ابْنُ عَظِيمِ القَرْيَتَيْنِ وَعِزُّها ... ثَقيفُ وَفِهْرٌ والعُصَاةُ الأَكَـابِـرُ
نَبِيُّ الهُدَى خَالِي، وَمَنْ يَكُ خَالُهُ ... نَبِيَّ الهُدَى يَقْهَرْ بِهِ مَنْ يُفَاخِرُ[2]

---

(١) انظر الأغاني ١/٧ .
(٢) المرجع السابق.

وكان الوليد بن يزيد خليفةً، وابنَ خليفةٍ، ومن فتيان بني أميَّة المعدودين، وظرفائهم المملوحين، وشعرائهم المجيدين والمكثرين، ومن أجوادهم وأشدائهم، فلا غرابة إذا اتسم شعره بالنبل والعظمة والفخر، فهو سَمِيٌّ جدِّه الوليد بن عبد الملك، وكان يُكّنى كجدِّه بأبي العباس، فقال:

أَنَا الوَلِيدُ أَبُو العَبَّاسِ قَدْ عَلِمَتْ   عُلْيَا مَعَدٍّ مَدَى كَرِّي وَإِقْدَامِي
إِنِّي لَفِي ذِرْوَةِ العَلْيَا إِذَا انْتَسَبُوا   مُقَابِلٌ بَيْنَ أَخْوَالِي وَأَعْمَامِي
بَنَى لِيَ المَجْدَ بَانٍ لَمْ يَكُنْ وَكِلاً   عَلَى مَنَارٍ مُضِيئَاتٍ وَأَعْلامِ
حَلَلْتُ مِنْ جَوْهَرِ الأَعْيَاصِ قَدْ عَلِمُوا   فِي بَاذِخٍ مُشْمَخِرِّ العِزِّ قَمْقَامِ[1]
صَعْبِ المَرَامِ يُسَامِي النَّجْمَ مَطْلَعُهُ   يَسْمُوا إِلَى فَرْعِ طَوْدٍ شَامِخٍ سَامِ[2]

ويظلُّ هذا الشعورُ بعراقة الأصل وطيبِ الأرومة يَحْدوه على امتدا أيَّام عمره وانطلاقة قوافيه، فيزدَهي به، ويُؤثِّله بانتهائه هو إليه، لأنَّه لامثيلَ له، فحقُّه أن يفخرُوا به:

فِي فِتْيَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْـ   ـلِ المَجْدِ وَالمَأْثُرَاتِ وَالحَسَبِ
مَا فِي الوَرَى مِثْلُهُمْ، وَلا بِهِمْ   مِثْلِي، وَلا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبِي

وهكذا تطفوا أرستقراطيته عَلَى شفاه حروفه، وحتى قصائد قصفه ومقطعات لهوه وشربه، فإنَّها تصدُر عن شاعرٍ عابث يُشْعِرُكَ أنَّهُ ملك عظيمٌ، أنظر إلى قوله:

كَلِّلانِي تَوِّجَانِي   وَبِشِعْرِي غَنِّيَانِي
إِنَّمَا الكَأْسُ رَبِيعٌ   يُتَعَاطَى بِالبَنَانِ

وقد لاحظ الخليفة العبَّاسي المأمون هذه السمات الملوكيَّة في شعر الوليد بن

---

(١) الأعياص: فرع من قريش من أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر، وهم: العاص، وأبو العاص، والعيص، وأبو العيص. القمقام: العدد الكثير.

(٢) انظر الأغاني ٧/١٠.

يزيد فقد رَوَى لنا صاحبَ الأغاني، أن الخليفة المأمون قال يوماً لِمَنْ حضر مِنْ جُلسائه: أنشدوني بيتاً لِمِلِكٍ، يدلُّ البيت وإنْ لم يُعرفْ قائلُه، أنَّه شعرُ مِلِكٍ!

فأنشده بعضهم قولَ امرىء القيس:

أَمِنْ أَجْلِ أَعْرَابِيَّةٍ حَلَّ أَهْلُهَا   جَنُوبَ المَلا، عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ

قال: وما في هذا مما يدلُّ على مُلكه! قد يجوز أن يقول هذا سوقَةٌ من أهل الحضر، فكأنه يؤنِّب نفسه على التعلُّق بأعرابيَّة. ثم قال: الشعر الذي يدلُّ على أن قائله ملكٌ، قول الوليد بن يزيد:

اسْقِنِي مِنْ سُلافِ رِيقِ سَلْمَى   وَاسْقِ هَذَا النَّدِيمَ كَأْساً عُقَارَا[1]

أما ترى إلى إشارته في قوله؛ هذا النديم، وأنَّها إشارة مَلِكٍ!

ومثل هذا قوله:

لِيَ المَحْضُ مِنْ وُدِّهِمْ   وَيَغْمُرُهُمْ نَائِلي

وهذا قول مَنْ يَقْدِرُ بالمُلْك على طَوِيَّاتِ الرجال، يبذلُ المعروفَ لهم ويمكنه استخلاصها لنفسه. وهذا البيت جاء مع أبيات قبله، غنَّت بها القيان والمغنون:

سَقَيْتُ أَبَا كَامِلٍ   مِنَ الأَصْفَرِ البَابِلِي
وَسَقَيْتُهَا مَعْبَداً   وَكُلَّ فَتىً بَازِلِ
لِيَ المَحْضُ مِنْ وُدِّهِمْ   وَيَغْمُرُهُمْ نَائِلِي
فَمَا لامَنِي فِيهِمْ   سِوَى حَاسِدٍ جَاهِلِ

ثم جاء الخليفة المعتضدُ بعد المأمون بزمنٍ طويل ليلاحظَ هذه السماتِ الملوكيَّة في شعر الوليد بن يزيد، فقد جاء في الأغاني قوله: وأخبرني قريش عن أحمد بن أبي العلاء قال: كان للمعتضد عَلَيَّ صوتان من شعر الوليد، أحدهما:

(١) انظر الأغاني ٧/٣٧ - ٣٨.

سَقَيْتُ أَبَا كَامِلٍ مِنَ الأَصْفَرِ البَابِلي[1]

والآخر:

إنَّ في الكَأسِ لَمِسْكاً أَوْ بِكَفَّيْ مَنْ سَقَانِي

وكان يعجبُ بهما ويقول لجلسائه: أما ترون شمائل المُلوكِ في شعره! ما أَبْيَنَها[2].

وقد نقل الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى عن ابن عساكر وغيره في وصف حياة الوليد بن يزيد قولَه: انهمكَ في شرب الخمر ولذّاته، ورفض الآخرةَ وراء ظهره، وأقبل على القصف واللَّهو والتَّلذُّذِ مع الندماء والمغنين، وكان يضربُ بالعود ويوقِّع بالطبل، ويمشي بالدف، وكان قد انتهك محارم الله تعالى حتى قيل له الفاسق. وكان أكمل بني أميَّة أدباً وفصاحةً وظرفاً، وأعرفهم بالنحوِ واللُّغة والحديث. وكان جواداً مِفْضالاً[3]

والوليد بن يزيد هو الخليفة الأمويُّ الحادي عشرَ، ويُكنَّى أبا العبَّاس، ولد في خلافة عمِّه الوليد بن عبد الملك سنة ثمان وثمانين للهجرة، وشهدَ في طفولته خلافة عمِّه سليمان ثم خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان في العاشرة من عمره حين تربَّعُ أبوه على عرش الخلافة، وفي الخامسة عشرة حين صار ولياً لعهد عمِّه هشام، وفي السادسة والثلاثين حين بويع خليفةً على المسلمين[4] ولم يكن بعْدَ الوليد بن يزيد ملكٌ من بني أُميَّة أُمُّهُ عربية، وأَمَّا خلفاء بني العباس فلم يكنْ منهم كلهم وقد

(١) أبو كامل: أحد المغنين في بلاط الوليد بن يزيد.

(٢) الأغاني ٩٣/٧ .

(٣) انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ١٠٥/١ .

(٤) فوات الوفيات ٢٥٦/٤ .

بلغوا نحو الأربعين سوى ثلاثةِ خلفاء من أبناء الحرائر(1).

وقد رماه المؤرِّخون بأشنع التُّهمِ لأنَّه كان أموياً عريقاً، ركب اللَّهو ولجَّ في الشراب، ومن هنا فلعلَّ الأخبار الَّتي تروى عن زندقته وفُسْقه ليست صحيحةً وبخاصَّة تلك التي تذهب إلى أنَّه مزّقَ القرآن، وقد كذَّبها بالفعل بعضُ المؤرخين وبعض الملوك العباسيِّين؛ فقد روّى صاحب الأغاني أنَّ ابناً للغمْرِ بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد، فقال: ممن أنت؟

قال: من قريش.

قال: مِنْ أيِّها؟

فأمْسَكَ، قال: قُلْ وأنت آمنٌ، ولو أنَّك مرواني!

قال: أنا ابن الغَمْرِ بن يزيد.

قال: رحم الله، رحم الله عمَّكَ ولَعَنَ يزيدَ الناقصَ وقتْلَةُ عمك جميعاً، فإنهم قتلوا خليفةً مُجْمَعاً عليه، ارفع إليَّ حوائجكَ، فقضاها(2).

وروَى خبراً آخرَ عن العلاءِ بن سويد المِنْقَري قال: ذَكَرَ ليلةً المهدِيُّ أميرُ المؤمنين الوليدَ بنَ يزيد فقال: كان طريفاً أديباً.

فقال له شبيب بن شيْبَةَ: ياأميرَ المؤمنين! إنْ رأيت ألا تُجْري ذِكْرَهُ على سمعِكَ ولسانك فافْعَلْ فإنَّه كان زِنديقاً.

فقال: اسكتْ، فما كان الله ليضَعَ خلافَتَه عند مَنْ يكفرُ به. هكذا رواه الصوليُّ(3).

وفي سند طويل عن شبيب بن شيبة عن أبيه قال: كُنَّا جلوساً عند المهديِّ،

(1) الملوك الشعراء ٦٧ - ٦٨.
(2) انظر الأغاني ٨٢/٧.
(3) الأغاني ٨٣.

فذكروا الوليدَ بنَ يزيدَ، فقال المهديُّ: أحسبُه كان زنديقاً. فقام ابنُ علاثة الفقيه فقال: ياأميرَ المؤمنين! الله عزَّ وجلَّ أعظمُ من أن يُولِّيَ خلافَةَ النبوَّة وأمْرَ الأمَّةَ مَنْ لايؤمن بالله، لقد أخبرني مَنْ كان يشهدهُ في ملاعبه وشربه عنه بمروءةٍ في طَهارتِه وصَلاتِه، وحدَّثني أنه كان إذا حضرَتِ الصلاةُ يطرحُ ثياباً كانت عليه من مطيَّبة ومصبَّغةٍ ثم يتوضأ فيحسنُ الوضوءَ، ويؤتى بثياب بيض نِظاف من ثياب الخلافة، فيصلِّي فيها أحسنَ صلاة بأحسنَ قراءةٍ وأحسنَ سكوت وسكون وركوعٍ وسجود، فإذا فرغَ عاد إلى تلك الثياب الَّتي كانت عليه قبلَ ذلك، ثم يعودُ إلى شربه ولهوه. أَفهذه أفعالُ مَنْ لايؤمن بالله؟! فقال له المهديُّ: صدقْتَ، بارَكَ الله عليك يابنَ علاثة[1].

وفي خبرٍ عن مروان بن أبي حفصة الشاعر قال: دخلتُ على الرشيد أميرِ المؤمنين، فسألني عن الوليد بن يزيد، فذهبتُ أتزحزَحُ، فقال: إن أَمير المؤمنين لاينكرُ ماتقولُ، فَقُلْ.

قلتُ: كان والله أصبحَ الناس وأظرفَ الناس وأشعرَ الناس.

فقال: أتروي من شعره شيئا؟

قلت: نعم، دخلْتُ عليه مع عُمومَتي، وفي يده قضيبٌ، ولي جُمَّةٌ[2] فَيْنَانَةٌ فجعل يُدخِل القضيبَ في جُمتي، وجعل يقول: ياغلامُ! ولدتك سُكَّرُ[3] فسمعتُه يومئذٍ ينشدُ:

لَيْتَ هِشَاماً عَاشَ حَتَّى يَرَى مِكْيَالَهُ الأوْفَرَ قَدْ أُتْرِعَا
كِلْنَا لَهُ الصَّاعَ الَّتي كَالَهَا فَمَا ظَلَمْنَاهُ بِهَا أَصْوُعَا

(١) الأغاني ٨٣/٧ .
(٢) الجمة مجتمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة، وهي أيضاً ماتلى من شعر الرأس على المنكبين.
(٣) سكّر: وهي أم ولد كانت لمروان بن الحكم فزوجها أبا حفصة فولدت مروان.

لَمْ نَـأْتِ مَا نَـأْتِيـه عَنْ بِـدْعَـةٍ   أَحَـلَّهُ الـقُـرْآنُ لِي أَجْمَـعَـا

قال: فأمر الرشيدُ بكتابتها، فكُتِبَتْ[1]

وكان والده يزيد قد ندم حين رأى ابنه راشداً على جَعَلِهِ ولايةَ العهد لهشام أولاً وبعده للوليد، وكان يقول: الله بين من جعل هشاما بيني وبينك[2] مشيرا بذلك إلى أنه لمَّا وجَّه يزيدُ بن عبد الملك الجيوشَ إلى يزيد بن المهلب، وأشير عليه إلى تولية العهد لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وقد بلغ ذلك مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، فأتى يزيدَ فقال: ياأمير المؤمنين! أيُّما أحبُّ إليك: وَلَدُ عبد الملك، أو وَلَدُ الوليد؟

بل ولد عبد الملك.

قال: أفأخوك أحقُّ بالخلافة أم ابن أخيك؟

قال: إذا لم تكن في ولدي، فأخي أحقُّ بها من ابن أخي!

قال: فابنُكَ لَمْ يَبْلُغْ، فبايع لهشام، ثم لابنك بعد هشام - قال: والوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة -[3].

قال: غداً أُبايعُ له. فلما أصبح فعل ذلك وبايع لهشام، وأخذ العهدَ عليه ألا يخلَعَ الوليدَ بعدَه، ولايغيِّرَ عهده، ولايحتالَ عليه.

فلما أدركَ الوليدُ - وبلغَ الحلم - ندمَ أبوه، فكان ينظر إليه ويقول: الله بيني وبين من جعلَ هشاماً بيني وبينك. وتوفي يزيدُ سنة خمس ومئة وابنه الوليد ابن خمس عشرة سنة[4].

(١) انظر الاغاني ١٨/٧ .
(٢) انظر تاريخ الامم والملوك للطبري ١٧٤١/٢ .
(٣) انظر الأغاني ٢/٧ - ٣ .
(٤) الأصح أنه كان ابن سبع عشرة سنة الأغاني ٣/٧ .

قالوا: فلم يزل الوليدُ مكرماً عند هشام رفيع المنزلة مُدَّةً، ثم طمع في خلعه وعقد العهد لابنه مَسْلَمَةَ بن هشام، فجعل يذكر الوليدَ بن يزيد وتهتُّكَهُ وإدمانَهُ على الشراب، ويذكر ذلك في مجلسه ويقوم ويقعدُ به. وولاهُ الحجَّ ليظهرَ ذلك منه بالحرمين فيسقطَ.. ثم طالبه هشام بأن يخلع نفسَهُ، فأبى ذلك، فحرمَهُ العطاءَ، وحَرَمَ سائر مواليه وحاشيته وجفاهُ جفاءً شديدا. فخرج مُتبدِّياً وخرج معه عبد الصَّمد بن عبد الأعلى مؤدِّبُهُ، وكان يُرَمَى بالزندقة.

ودعا هشامٌ الناسَ إلى خلعه والبيعة لِمَسْلَمَة بن هشام ـ وأمُّهُ أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص ـ وكان مسلمةُ يكنى أَبَا شاكر، نسبةً إلى مولى كان لمروان، فأجابه نفرٌ قليل، وكتب إلى الوليد بن يزيد: ماتَدَعُ شيئاً من المنكر إلا أتيته وارتكبْتَهُ غَيْرَ متحاش ولامستَتِرٍ، فليت شعري مادينُكَ؟! أَعَلَى الإسلام أنتَ أَمْ لا؟!

فكتب إليه الوليدُ بن يزيدَ:

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا ... نَحْنُ عَلَى أَبِي شَاكِرِ
نَشْرَبُهَا صِرْفاً وَمَمْزُوجَةً ... بِالسُّخْنِ أَحْيَاناً وَبِالفَاتِرِ[1]

وأَفَاضَ الرواة في التَّشنيع عليه، وأغلبُ الظنِّ أن السياسةَ هي الَّتي لعبتْ دورَها في تقبيح صورتِهِ ووصفه بالكفرِ والخروج عن حدود الدِّين، وهشامٌ وراء ذلك كلِّه طمعاً في تولية ابنه مسلمة، وعلى الرغم من أنَّ سعاياتِ هشامٍ ومكائِدَهُ لم تؤدِّ إلى خلع الوليد، ولكنَّها أساءَتْ إلى سمعته وسوَّدَتْ صفحتَهُ عند بني أميَّةَ خاصّة، وعند المسلمين عامَة[2].

---

(١) الأغاني ٣/٧ ـ ٤.
(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري، وتاريخ الخلفاء للسيوطي.

وازدادَ الأمر سوءً عندما لجأ الوليدُ إلى الانتقام ممن وقفَ في صفِّ هشامٍ، عندما آلَ الأمرُ إليه، فقد قتل ولدَيْ هشامٍ؛ إبراهيمَ ومحمداً، بعدما عذَّبَهُما عذاباً شديداً، وضرب سليمانَ بنَ هشام وحلق رأسَهُ ولحيَتَهُ ثم غرَّبَهُ إلى عُمَانَ، وقتل خالدَ بن يزيد الغساني زعيمَ اليمانية، وهم عظمُ جُنْدِ الشام، فأثارَهُمْ ضِدَّهُ، وأثار كذلك آل القعقاع بقتله خالدَ بن القعقاع.

وكان هشامُ بن عبد الملك يُكْثِرُ تنقُّصَ الوليد بن يزيد، فكان مسلمةُ بن عبد الملك يعاتبُ هشاماً ويكُفُّهُ، فماتَ مسلَمةُ، فغُمَّ الوليد ورثاه، فقال فيه وقد أذهله النبأُ، وحاول ألا يصدِّقَهُ، فهل يعقلُ أن يبتعد وإلى الآبد؟ كيف وقد كان نوراً تستضيء به البلادُ، وملاذاً يلجأ إليه الأيتامُ حين يضارُّون في أرض الأعداء فكيف حالُ الأيامى إذاً؟ لذلك كتم الناس نعيَهُ، لأنَّ إذاعتَه مصيبةٌ جُلّى، وكارثةٌ لاتحتمل، فَمَنْ بعدَهُ يرفعُ راياتِ السرايا إلى الثغور إذا مانار الحرب شبت:

أَتَـانَـا بَـرِيـدَانِ مِـنْ وَاسِطٍ ... يَخُبَّـانِ بِـالـكُـتُـبِ الْمُـعْـجَـمَـه
أَقُـولُ وَمَـا الْبُعْـدُ إلا الـرَّدَى ... أَمُـسْلِمُ لاتَـبْـعَـدَنْ مَـسْـلَمَـهْ!؟
فَقَـدْ كُنْتَ نُوراً لَنَا في البِلادِ ... تُضِيءُ، فَقَـدْ أَصْبَحَتْ مُـظْلَمَـةْ
كَتَمْنَـا نَعِيَّـكَ نَخْشَى الـيَقِـينَ ... فَجَـلَّى اليَقِـينُ عَنِ الْجَمْجَمَـةْ
وَكَـمْ مِنْ يَـتيمٍ تَـلا فَـيْـتَـهُ ... بِـأَرْضِ الـعَـدُوِّ، وَكَـمْ أَيِّمَـهْ
وَكُنْتَ إذَا الحَـرْبُ دَرَّتْ دَمـاً ... نَـصَبْـتَ لَهَـا رَايَـةً مُعْـلَمَـهْ[1]

وكأَنَّ موت مسلمة فَجَّرَ في قلب الوليد حُزناً دائماً وجرحاً لايندملُ، فقد روى صاحب الأغاني عن موسى بن زهير بن مضرِّسٍ بن منظور بن زبّان بن سيّار عن أبيه قال: رأيت هشامَ بن عبد الملك وأنا في عسكره يوم توفي مسلمةُ بن عبد

(١) الأغاني ٦/٧ .

الملك، وهشامٌ في شرطته؛ إذ طلع الوليدُ بن يزيد على الناس وهو نشوانُ يَجُرُّ مِطْرَفَ خَزٍّ عليه، فوقف على هشام، فقال: ياأمير المؤمنين! إن عُقْبَى مَنْ بَقِي لَحُوقُ مَنْ مَضَى، وقد أَقْفَرَ بعد مَسْلَمَةَ الصَّيْدُ لِمَنْ يَرَى، وَاخْتَلَّ الثَّغْرُ فَوَهَى، وعلى أَثَرِ مَنْ سَلَفَ يَمْضِي مَنْ خَلَفَ، فَتَزَوَّدُوا، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى. فَأَعْرَضَ عَنْه هشام ولم يَرُدَّ جواباً، وَوَجَمَ النَّاسُ فما هَمَس أحدٌ بِشَيْء. قال فمضى الوليدُ وهو يقول:

أَهَيْنَمَةٌ حَديثُ القَوْمِ أَمْ هُمْ سُكُوتٌ بَعْدَمَا مَتَعَ النَّهَارُ[1]
عَزِيزٌ كَانَ بَيْنَهُمُ نَبِيّاً فَقَوْلُ القَوْمِ وَحْيٌ لايُحَارُ
كَأَنَّا بَعْدَ مَسْلَمَةَ المُرَجَّى شُرُوبٌ طَوَّحَتْ بِهِمُ عُقَارُ
أَوْ الافُ هِجَانٌ في قُيُودٍ تَلَفَّتُ كُلَّمَا حَنَّتْ ظُؤَارُ[2]
فَلَيْتَكَ لَمْ تَمُتْ وَفِدَاكَ قَوْمٌ تُرِيحُ غَبِيُّهُمْ عَنَّا الدِّيَارُ
سَقِيمُ الصَّدْرِ أَوْشَكِسٌ نكيدٌ وَآخَرُ لايَزُورُ وَلا يُزَارُ[3]

وروى عمر الوادي قال: كنت يوما أغني الوليد إذ ذكر هشاماً، فقال لي: غنني بهذه الأبيات قلت: وماهي ياأمير المؤمنين؟ فأنشأ يقول:

هَلَكَ الأَحْوَلُ المَشُو مُ، فَقَدْ أُرْسِلَ المَطَرْ
ثُمَّتَ اسْتُخْلِفَ الوَلِيـ ـدُ فَقَدْ أَوْرَقَ الشَّجَرْ

وضرب هشام مَرَّةً عياضَ بن مسلم كاتب الوليد وحبسه، فغَمَّ ذلك الوليد، وقال:

---

(١) الهينمة: الكلام الخفي الذي لايفهم. متع النهار: بلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال، وقيل متع النهار: طال وامتدد.
(٢) الظؤار: جمع نادر مفرده ظئر وهي الناقة العاطفة على غير ولدها المرضعة له.
(٣) سقيم الصدر: يعني يزيد بن الوليد، ويعني بالشكس. هشاماً. والذي لايزور ولايزار: مروان بن محمد.

أَبَـا النَّذيـرُ لِمُسْدِي نِعْمَـةٍ أَبَـداً إلى المَقَارِيفِ لَمَّا يُخْبرُ الدَّخَـلا[1]
إنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَهُمْ، أَلْفَيْتَهُم بَطِرُوا وَإنْ أَهَنْتَـهُمْ، أَلْـفَيْـتَهُـمْ ذُلُــلا
أَتَشْمَخُـونَ وَمِنَّا رَأسُ نِعْمَتِكُمْ؟ سَتَعْلَمُـونَ إذَا أَبْصَرْتُمُ الـدُّوَلا؟
انْظُرْ فَإنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مَثَلٍ لَهُمْ سِوَى الكَلْبِ، فَاضْرِبْهُ لَهُمْ مَثَلا
بَيْنَـا يُسَمِّنُـهُ لِلصَّيْـدِ صَـاحِبُـهُ حَتَّى إذَا مَااسْتَوَى مِنْ بَعْدِ مَا هَزُلا
عَدَا عَلَيْهِ، فَلَمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُـهُ وَلَوْ أَطَاقَ لَهُ أَكْلاً، لَقَدْ أَكَلا[2]

وقسا الخليفة هشام على ابن أخيه الوليد، فكتب إليه الوليد قائلاً: قد بلغني ما أحدث أمير المؤمنين مِنْ قطع ماقطع عني، وَمحْوِ مَنْ محا من أصحابي، وأنه حرمني وأهلي. ولم أكن أخاف ان يبتليَ الله أمير المؤمنين بذلك فيَّ، ولاينالني مثلُه منه، ولم يبلغ استصحابي لابن سهيل ومسألتي في أمره أن يجري عليَّ ماجرى. وإن كان ابن سهيل على ماذكره أمير المؤمنين فبحسب العَيْرِ أن يقرُب من الذئب. وعلى ذلك فقد عقد الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وسبب لي من الرزق مالايقدر أحد دونه تبارك وتعالى على قطعه عني دون مدته، ولاصرفه عن مواقعه المحتومة له. فَقَدَرُ الله يجري على ماقدَّره فيما أحبَّ الناسُ وكرِهوا، لاتعجيل لأجله ولا تأخير لعاجله، والناس بعد ذلك يحتسبون الأوزار ويقترفون الآثام على أنفسهم من الله بما يستوجبون العقوبة عليه. وأمير المؤمنين أحقُّ بالنظر في ذلك والحفظِ له. والله يوفق أمير المؤمنين لطاعته، ويُحسن القضاءَ له في الأمور بقدرته، وكتب إليه الوليد في آخر كتابه:

أَلَيْسَ عظيماً أَنْ أَرَى كُلَّ وَارِدٍ حِيَاضَكَ يَوْماً صَادِراً بِالنَّوَافِلِ؟[3]

(١) المقاريف: الأنذال جمع مقرف: وهو أيضاً الذي أمه عربية وأبوه غير عربي.
(٢) انظر الأغاني ٧/ ١٠ .
(٣) النوافل: جمع نافلة وهي العطية.

فَأَرْجِعَ مَحْمُودَ الرَّجَاءِ مُصَرَّداً بِتَحْلِئَةٍ مِنْ وِرْدِ تِلْكَ المَنَاهِلِ(١)
فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كُنْتُ آمَلُ مِنْكُمُ وَلَيْسَ بِلاقٍ مَارَجَا كُلُّ آمِلِ
كَمُقْتَبِضٍ يَوْماً عَلَى عُرْضِ هَبْوَةٍ يَشُدُّ عَلَيْهَا كَفَّهُ بِالأَنَامِلِ(٢)

وقال عمر بن شبة من خبر طويل: إنه لما نعي له هشام قال: والله لأتلقينَّ هذه النعمة بسكرة قبل الظهر، ثم أنشأ يقول:

طَابَ يَوْمي، وَلَذَّ شُرْبُ السُّلافَهْ إِذْ أَتَانَا نَعِيٌّ مَنْ بِالرُّصَافَهْ(٣)
وَأَتَانَا البَرِيدُ يَنْعَى هِشَاماً وَأَتَانَا بِخَاتَمٍ لِلْخِلافَهْ
فَاصْطَبَحْنَا مِنْ خَمْرِ عَانَةَ صِرْفاً وَلَهَوْنَا بِقَيْنَةٍ عَزَّافَهْ

ثم حلف ألاَّ يبرح موضعه حتى يغنى في هذا الشعر ويشربَ عليه، فَغُنِّيَ له فيه وشرب وسكر، ثم دخل فبويع له بالخلافه(٤).

قال: وسمع صياحا، فسأل عنه، فقيل له: هذا من دار هشام يبكيه بناته. فقال:

إِنِّي سَمِعْتُ بِلَيْلٍ وَرَاءَ المُصَلَّى بَرَنَّهْ
إِذَا بَنَاتُ هِشَامٍ يَنْدُبْنَ وَالِدَهُنَّهْ
يَنْدُبْنَ قَرْماً جَلِيلاً قَدْ كَانَ يَعْضِدُهُنَّهْ
أَنَا المُخَنَّثُ حَقّاً إِنْ لَمْ أَنِيكَهُنَّهْ

وَقَال المدائني في خبره: وقال الوليدُ حينَ أتاهُ نَعْيُ هشامٍ:

طَالَ لَيْلي فَبِتُّ أُسْقَى المُدَامَا إِذْ أَتَاني البَرِيدُ يَنْعَى هِشَامَا

---

(١) المصدر: الخائب الضعيف. التحلئة: بثور تنبت بعد الحمي.
(٢) الهبوة: الغبرة.
(٣) الرصافة: مكان قرب الرقة اليوم. وعانه: بلد بالعراق اشتهرت بخمورها.
(٤) انظر الأغاني ١٦/٧ - ١٧ .

وَأَتَــاني بِــحُــلَّةٍ وَقــضــيــبٍ وَأَتَــاني بِخَــاتَــمٍ ثُــمَّ قــامَــا
فَجَعَلْتُ الـوَلِيَّ مِنْ بَعْدِ فَقْـدِي يَفْضُـلُ النَّـاسَ نَـاشِئـاً وَغُـلامَـا
ذَلِـكَ ابْني وَذَاكَ قَـرْمُ قُــرَيْشٍ خَـيْرُ قَرْمٍ، وَخَيْـرُهُـمْ أَعْمَـامَـا[1]

وكان قد كتب إلى هشام قبل وفاته يتهدده، وينذره، وهو من نادر شعره:

فَإِنْ تَكُ قَدْ مَلِلْتَ القُرْبَ مِنِّي فَسَـوْفَ تَـرَى مُجَـانَبَتِي وَبُعْـدِي
وَسَـوْفَ تَلُومُ نَفْسَـكَ إِنْ بَقِينَـا وَتَبْلُو النَّـاسَ وَالأَحْـوَالَ بَعْــدِي
فَتَنْـدَمُ فِي الَّـذِي فَــرَّطْتَ فيـهِ إِذَا قَـايَسْتَ في ذَمِّي وَحَمْـدِي[2]

وَلَمَّا ولي الوليد بن يزيد كتب إلى أهل المدينة شعراً يقول به:

أَلا أَيُّهَا الرَّكْبُ المُخِبُّـونَ أَبْلِغُوا سَـلامِيَ سُكَّانَ البِـلادِ فَأَسْمِعُـوا
وَقُولُوا أَتَاكُمْ أَشْبَهَ النَّـاسِ سُنَّةً بِــوَالِـدِه فَـاسْتَبْشِرُوا وَتَــوَقَّعُــوا
سَيُـوشِـكُ إِلْحَـاقٌ بِكُمْ وَزِيَـادَةٌ وَأُعْـطِيَـةٌ تَـأْتِي تِبَـاعـاً فَتُشْفَـعُ
مُحَــرَّمُكُمْ دِيــوانُـكُمْ وَعَــطَاؤُكُـمْ بِه يَكْتُبُ الكُتَّابُ، وَالكُتُبُ تُطْبَعُ
ضَمِنْتُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تُصَابُوا بِمُهْجَتِي بِــأَنَّ سَمَاءَ الضُّــرِّ عَنْكُمْ سَتُقْلِعُ

وفي خبرعن محمّد بن خلف وكيع، أنَّ الوليد بن يزيدخرج مع أصحابه على شراب، فقيل له: إنَّ اليوم جمعة.

فقال: والله لأخطبنَّهم اليوم بشعر، فصعد المنبر فخطب فقال:

الحَـمْـدُ لله وَلِيِّ الحَـمْـدِ أَحْمَـدُهُ في يُـسْـرِنَـا وَالجَهْدِ[3]

وكان الوليد أديباً بمعنى الكلمة، كما كان شاعراً، ولايقلُّ نثره جودةً عن شعره، ولو أردنا أن نُدوِّنَ نثره فسيعجزنا ذلك، ويكفي القليلُ منه ليدلَّ على

(١) انظر الأغاني ١٩/٧ .
(٢) المرجع السابق ٢١/٧ .
(٣) وهي قصيدة طويلة تربو على العشرين بيتاً انظر الأغاني ٥٧/٧ ـ ٥٨ .

الكثير؛ وها هو يَنْهى بني أميَّة فيقول: يابني أميَّة! إيّاكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد الشهوة، ويهدم المروءة، ويُثَوِّرُ على الخمر، ويفعل مايفعل السكر. فإن كنتم لابد فاعلين، فجنبُّوه النساء، فإن الغناء رُقْيَةُ الزِّنَا. وإني لأقول ذلك فيه على أنه أحبُّ إليَّ من كلِّ لذة، وأشهى إليَّ من الماء البارد إلى ذي الغُلّة. وَلكِنَّ الحَقَّ أحقُّ أن يُقال(١).

ولما أكثر الوليد بن يزيد من التهتك، وانهمك في اللذَّات وشرب الخمر، وبسطَ المكروهَ على وَلَدِ هشام والوليد ـ ابني عبد الملك ـ وأفرط في أمره وغيِّه، ملَّ الناسُ أيَّامه وكرهوه. وكان قد عقد لابنيه بعده ولم يكونا بلغا. فمشى الناس بعضهم إلى بعض في خلعه، وكان أقواهم في ذلك يزيدُ الناقصُ بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فمشى إلى أخيه العبَّاس ـ وكان امرأ صدقٍ ولم يكن في بني أميَّة مثله، كان يتشبَّهُ بعمر بن عبد العزيز ـ فشكا إليه مايجري على الناس من الوليد، فقال له: ياأخي! إنَّ الناس قد ملّوا بني مروان، وإنْ مشى بعضكم في أمر بعض أُكِلتم، ولله أجلٌ لابد أن يبلغَه فانتظره.

فخرج من عنده ومشى إلى غيره، فبايعه جماعة من اليمانية الوجوه، فعاد إلى أخيه ومعه مولىً له وأعاد عليه القول، وعرَّض له بأنه قد دعي إلى الخلافة. فقال له: والله لولا أنِّي لا آمنه عليك من تحامله لوجَّهت بك إليه مشدوداً، فنشدتك الله ألا تسعى في شيء من هذا.

فانصرف من عنده وجعل يدعو الناس إلى نفسه. وبلغ الوليدَ ذلك فقال يذكر قومَهُ ومشى بعضهم إلى بعض في خلعه. فقال الوليد(٢):

---

(١) انظر الأغاني ٧/٧٠.
(٢) أنظر الأغاني ٧/٧٣ ـ ٧٤.

سَـلِّ هَمَّ النَّفْسِ عَنْهَـا   بِـعَـلَنْـداةٍ عـلاةِ[1]
تَـتَّقـي الأَرْضَ وَتَهْـوي   بِـخِفَـافٍ مُـدْمَجـاتِ
ذاكَ أَمْ مَـابَـالُ قَـوْمـي   كَـسَّروا سِـنَّ قَـنَـاتي
وَاسْتَخَـفُّـوا بي وَصَـارُوا   كَـقُـرودٍ خَـاسِئَـاتِ

وفي هذه القصيدة يقول:

أَصْـبَـحَ الـيَـوْمَ وَلـيـدٌ   هَـائِـماً بِـالـفَـتَـيَـاتِ
عِـنْـدَهُ راح وإبـريــ   ـــق وكـأس بـفـلاةِ
إِبْـعَـثُـوا خَـيْـلاً لِخَـيْـلٍ   وَرُمَـاةً لِـرُمَـاةِ

ولم يقلع الوليد عن غيه، وظل سادرا، فدخل بشر بن الوليد بن عبد الملك على أخيه العباس بن الوليد ومعه ابنه، فجعل يكلمه في خلع الوليد بن يزيد، ولكنَّ العبّاس نهاه، وقال العبَّاس أخيراً: يابني مروان! أظن أن الله قد أذن في هلاككم، ثم قال:

إنِّي أُعيـذُكُمُ بـالله مِـنْ فِتَـنٍ   مِثْلِ الجِبَالِ تَسَامَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إنَّ البَـرِيَّةَ قَـدْ مَلَّتْ سِياسَتَكُمْ   فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وَارْتَدِعُوا
لا تُلْحِمُنَّ ذِئَابِ النَّاسِ أَنْفُسَكَمْ   إِنَّ الذِّئَابَ إِذَا مَاأُلْحِمَتْ رَتَعُوا[2]
لاتَبْقُـرُنَّ بِـأَيْـديكُم بُـطُونَـكُمْ   فَثَمَّ لا فِدْيَةٌ تُغْنِي وَلا جَزَعُ[3]

فلم يستجيبوا له، وندب يزيد بن الوليد الناسَ إلى قتال الوليد بن يزيد مع عبد العزيز، بعد أن بايع له الناس، وحاصروه داخل القصر بعد منازلة قصيرة مع جنده واستسلام ابنه عبد العزيز، فأغلق الباب وقال:

---

(١) العلنداة: الناقة الضخمة الطويلة. وناقة علاة الخلق: أي طويلة جسيمة.
(٢) ألحمت القوم: طلبت اللحم.
(٣) الأغاني ٧/٧٥.

دَعُوا لي سُلَيْمَى وَالطِّلاءَ وَقَيْنَـةً وَكَأساً ألا حَسْبِي بِـذَلِكَ مَـالا
إذَا مَاصَفَا عَيْشٌ بِـرَمْلَةِ عَالِـجٍ وَعَـانَقَتْ سَلْمَى لاأُرِيـدُ بِـدَالا
خُذُوا مُلْكَكُمْ لا ثَبَّتَ الله مُلْكَكُمْ ثَبَـاتـاً يُسَـاوِي مَـاحَيِيتُ عِقَـالا
وَخَلُّوا عِنَانِي قَبْلَ عَيْدٍ وَمَا جَرَى وَلاتَحْسُـدُونِي أَنْ أَمُـوتَ هُـزَالا
أَبَا لَمُلْـكِ أَرْجُو أَنْ أُخَلَّدَ فِيكُمُ ألا رُبَّ مُلْكٍ قَدْ أُزِيلَ فَزَالا[1]

شِعْرُهُ :

جمع المستشرقُ جبرييلّي شعرَ الوليد بنِ يزيد ونشرَهُ سنة ١٩٣٧ م ، فجاء في الجزء الأول من المجلد الخامس عشر من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وكان جمعه هذا ناقصاً وبعيدا نسبيًّا عن الدِّقة والتحقيق . ثم أعاد الدكتور حسين عطوان جمعَ شعر الوليد ، ونشرِه سنة ١٩٧٩ م تحت عنوان ؛ شعر الوليد بن يزيد ، فكان عمله أكثرَ دِقَّةً وأقربَ إلى الحقيقة من العمل الأول ، لإستقصائه الواسع ونقدِ الأسانيد والمعاني والألفاظ .

وقد استخرجَ الدكتور حسين عطوان مئةً وسبعاً وعشرين قصيدةً ومقطوعة ، وذكر صراحة في المقدمة أنَّها للوليد ، ولكنَّه عاد فقسمها إلى قسمين ، وذكر في القسم الأول الذي ضمَّنه مئة وخمسَ عَشْرَةَ مقطوعة وقصيدة تحت عنوان ؛ الصحيح من شعره . وأما القسم الثاني ، وهو يضم ما تَبقَّى ، فوضعه تحت عنوان ما ينسب له ولغيره .

ومع ذلك تضمن القسم الأول رغم عنوانه بعض المقطوعات الَّتي رأى الدكتور عطوان نفسه أنَّها موضوعةً وليست من عمل الوليد لأسباب مختلفة ذكرها في الحواشي ، بينما رجَّح أن تكونَ مقطوعات القسم الثاني موضوعة ، ولم يستثنِ

(١) انظر الأغاني ٧/٧٩ والعقد الفريد ٤/٤٦٠ .

منها إلا المقطوعة المئة والواحدة والعشرين التي أوردها بدون تعليق .

ونحن وإن كُنَّا نميل إلى الأخذ بآراء الدكتور حسن عطوان المتعلِّقة بصحة هذا الشعر أو تلفيقه وافتعاله ، فإنَّا نتمنَّى لو كان التقسيم أكثر دِقَّةً ، فترِدُ فيه القصائدُ الصحيحة على حِدَه ، وتأتي الملَّفقةُ أو المنحولة في قسم مستقلٍّ آخر .

ويلاحظ الناظر في شعر الوليد الصحيح ، وهو على العموم مقطوعات أو قصائد مجتزأة ، غلبة شعر الغزل على ما عداه من أغراضٍ شعريَّة ، ويليه من حيث الأهمِّية شعر الخمر الذي يستغرق حيِّزاً كبيرا من شعره ، ثم يلي ذلك بقية الأغراض الشعرية الأخرى كالهجاء والحماسة والفخر والرثاء والمدح[1] .

أ ـ شعره الغَزَليّ ..

لقد أُغْرِمَ الوليد بحبِّ النساء وعشقهنَّ ، وكان في خُلُقِ الوليد كثيرٌ من الغرور والطيشِ والعناد والصراحة في إظهار رأيه ، فكلَّفته هذه الطباعُ عناءً كبيراً ، وزجَّته بمآزقَ كثيرةٍ في حياته[2] . وقد صرَّح هو عن حبِّه لمثل هذه الضُّروب من العبث ، فهو يشتهي سماعَ الغناء ، وشربَ الخمر ، ومغازَلَةَ الحسان ، وعضَّ خدودهن المِلاح ، ويبني حياته على نوعٍ من الإصطفاء للنَّدامى الكرماء ، والسقاةِ المتأنِّقين ، والخدمِ الظرفاء والأقداح المشعشعةِ الخمرِ ، ويُقسِمُ على ذلك بأغلظِ الأَيمان ، فيقول :

أُشْهِــدُ الله وَالمَـلاَئِكَــةَ الأَبْـرَارَ   وَالعَـابدينَ مِنْ أَهْـلِ الصَّـلاحِ
أنَّني أَشْتَهي السَّمَاعَ وَشُرْبَ الكَأْسِ   وَالـعَضَّ لِـلْخُـدُودِ المِـلاَحِ
وَالنَّـديمَ الكَريمَ وَالخَـادِمَ الفَـرِهَ   يَـسْـقـى عَـلَيَّ بِـالأَقْـدَاحِ[3]

---

(١) ديوان الوليد بن يزيد .
(٢) الملوك والشعراء ٧٠ .
(٣) الخادم الفره : الجميل الأنيق ، انظر الأغاني ٢٢/٧ .

وعكفَ الوليدُ على البطالة ، وحبِّ القيان والملاهي والشراب ومعاشقه النساء ، فتعشق سُعْدَى[1] بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، فتزوَّجَها .

ولَمَّا خرجَ يزيدُ بن عبد الملك إلى قُرَّيْنَ مُتبدِّياً به[2] ، وكان هناك قصرٌ لسعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفّان ، وكانت بنتُهُ أمّ عبد الملك واسمها سَعْدَةُ ، تحت الوليد بن يزيد ، فمرض سعيدٌ في ذلك الوقت ، فجاء الوليدُ عائداً عَمَّه ـ أبا زوجته سَعْدَة ـ فدخل فلمح سَلْمَى بنتَ سعيدٍ أختَ زوجته ـ أمُها ؛ أمُّ عمرو بنت مروان بن الحكم ، وأمُها بنت عمر بن أبي ربيعة المخزومي الشاعر ـ وقد سترَها حواضِنُها وأختُها ، فقامت ففرعتْهُنَّ طولاً ، فوقعت بقلب الوليد بن يزيد ، لساعتها .

فلمَّا ماتَ أبوهُ يزيدُ ، طلَّقَ أُمَّ عبد الملك زوجته ، وخَطَبَ سلمى إلى أبيها ، وكانت لها أختٌ ثالثة يقال لها أمُّ عثمانَ تحت عمِّه هشامِ بن عبد الملك الخليفة بعد يزيد ، فغضب هشامٌ وبعث إلى أبيها وقال : أَتُريدُ أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلِّق هذه وينكح هذه ! وهكذا فلم يُزوِّجْه سعيدُ ، وردَّهُ أقبحَ رَدٍ ، وهَويهَا الوليدُ ، ورامَ السُّلوَّ عنها ، فلم يَسْلَ ، وبدأتْ قصةُ حُبٍّ طويلةٍ تركتْ لنا شعراً كثيراً[3] . ومما قاله في هذه الفترة قوله مصرحاً بهذا الحب غير مبال بالوشاة والمغرضين :

أَنَــا الـوَليــدُ الإمَــامُ مُفْتخِـراً أُنْعِـمُ بَــالي وَأَتْــبَــعُ الـغَــزَلاَ

---

(١) سعدى : ضبطها العقد الفريد في الصفحة ٤٥٩٢/٤ بالألف المقصورة وضم السين (سُعدى) أما في الأغاني ٢٦/٧ فضبطها بالهاء مع فتح السين (سَعدة) .
(٢) قرين : موضع باليمامة . متبدياً : يقيم في البادية .
(٣) انظر الأغاني ٢٦/٧ .

أَهْـوَى سُلَيْمَى وَهْيَ تَصْـرِمُنِي وَلَيْسَ حَقاً جَفَاءُ مَنْ وَصَـلا
أَسْـحَبُ بُـرْدِي إِلىٰ مَنَـازِلِهَـا وَلَا أُبَـالِي مَـقَـالَ مَنْ عَـذَلَا

وندمَ الوليدُ على طلاقه سُعْدَى أو سَعْدَة ، وراسلَها ، وقد كانت زُوِّجَتْ غيره فلم ينتفعْ بذلك . فقد بعثَ إليها أشعبَ وقال له : يا أشعبُ ! لك عندي عشرةُ آلاف درهم على أن تُبلِّغَ رسالتي سَعْدَة .

فقال : أحضرِ العشرة الآلاف الدرهم حتى أنظُرَ إليها . فأحضرها الوليدُ . فوضعها أشعبُ على عنقه وقال : هاتِ رسالتك .

قال الوليد : قُلْ لها : يقولُ لكِ أميرُ المؤمنين :

أَسَعْدَةُ هَلْ إِلَيْـكِ لَنَا سَبيـلٌ ؟ وَهَلَ حَتَّى القِيَامـةِ مِنْ تَلَاقي ؟
بَـلَى وَلَـعَـلَّ دَهْـراً أَنْ يُؤَاتي بِمَـوْتٍ مِنْ حَليلِكِ أَوْ طَـلَاقِ
فَـأُصْبحُ شَـامِيّـاً وَتَقـرَّ عَيْني وَيُجْمَـعُ شَمْلُنَـا بَعْـدَ افْـتِراقِ

فأتي أشعبُ البابَ ، فأُخبِرَتْ بمكانه ، فأمرتْ بفُرْشٍ لها فَفُرِشتْ ، وجلسَتْ واذِنَتْ له . فلما دخل أنشدَهَا ما أُمِرَهُ . فقالت لخدمِها : خذوا هذا الفاسقَ !

فقال : يا سيدتي إنَّها بعشرة آلاف درهم .

قالت : والله لأقتُلنَّكَ أو تبلِّغَهُ كما بلَّغْتني .

قال : وما تَهبين لي ؟

قالت : بساطي الَّذي تحتي .

قال : قومي عنه . فقامتْ ، فطوَاهُ وجعَلهُ إلى جانبه ، ثم قال : هاتِ رسالتَكِ جُعِلْتُ فداكِ !

قالت : قل له :

أَتَبْكي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا   فَقَدْ ذَهَبَتْ لُبْنَى ، فَمَا أَنْتَ صَانِعُ[1]

فأقبلَ أشعبُ ، فدخلَ على الوليد ، فقال : هِيه ! فأنشدَهُ البيت .

فقال : أَوَّهْ ، قتلْتني يا بنَ الزانية ! فاخترْ أنت الآن ما أنتَ صانعٌ يا بن الزانية ؛ إمَّا أنْ أُدَلِّيكَ على رأسكِ منكَّساً في بئرٍ ، أو أرْميَ بكَ منكَّساً من فوق القصر ، أو أضرب رأسكَ بعمودي هذا ضربة ؛ هذا الذي أنا صانع ، فاخترْ أنت الآن ما أنت صانع !

فقال : ما كُنْتَ لتفعل شيئاً من ذلك !

قال : وَلِمَ يا ابنَ الزانية ؟

قال : لم تكنْ لِتُعَذِّبَ عينَيْنِ نظرَتَا إلى سَعْدَةَ !

قال : أَوَّهْ ! أَفْلَتَّ والله بهذا يا بن الزانية ! اخْرجْ عنِّي .

وظل ندمه على طلاق سعدة ـ أم سعيد ـ يلاحقه ويضنيه ، بعد أن أخفق في الوصول إلى أختها سلمى ، وراح يدعوها إليه في القصيدة تلو القصيدة ، ولكنَّها تزوَّجت ، ولم يعد هناك سبيل إليها ، فمن ذلك قوله :

هَلْ إلىٰ أُمِّ سَعِيدٍ   مِنْ رَسُولٍ أَوْ سَبيلِ
نَاصِحٍ يُخْبِرُ أنِّي   حَافِظٌ وُدَّ خَليلِ
يَبْذُلُ الوُدَّ لِغَيْرِي   وَأُكَافِي بِالجَميلِ
لَسْتُ أَرْضَى لِخَليلي   مِنْ وِصَالي بِالقَليلِ

ويكادُ غزل الوليد بعدَ سَعْدَة يقتصرُ على أختها سلمى بنتِ سعيد بن

---

(١) انظر رواية البيت في آمالي القالي ٢/٣١٥ والأغاني ٧/٢٧ وترجمة قيس .

خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، منذُ رآها وَطَلبَ الزَّواج منها ، فردَّه أبوها ردّاً عنيفاً ، مِمَّا أشعلَ نارَ الوجد في قلبه ، وراحَ ينظم فيها غَزَلَ الحِرْمَانِ زمناً طويلاً طيلةِ خلافة عمِّهِ هشام ، مِمَّا غطَّى مساحةً رائعة من هذا الفن لا يُسْتَهانُ بها ، إلى أن زفَّها أهلها إليه في أوائِلِ خلافته ، ولكنَّ الأيامَ اقتنَصَتْها منه ، إذ ماتتْ بعد أيَّام من زواجها منه .

وكثيرا ما يتحدَّثُ الوليد في غزله عن الحِرْمانِ ، وعمَّا يُحْدِثُه الفراقُ من آلام وأحزان تجعلُ ليلَهُ طويلاً ، ونومَهُ سُهاداً ، وأُنسَه وَحْشَة ، وقلبَهُ متشعباً ، فسلمى هَوَاهُ ودُنْياه لا يذكرُ غيرَهَا ؛ فَها هُوَ يستغيثُ حسرةً لِقلبِهِ مُنوِّهاً باسم حبيبته ، فيقول :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ في الهَوَى مُتَشَعِّبٍ بَلْ مَنْ لِقَلْبٍ بِالحَبِيبِ عَمِيدِ[1]
سَلْمَى هَوَاهُ فَلَيْسَ يَذْكُرُ غَيْرَهَا دُونَ الطَّرِيفِ وَدُونَ كُلِّ تَلِيدِ[2]

ومرَّةً أخرى يصرخُ غياث قلبه الذي التهمَهُ الحزن واستباحتْه الكآبة فغدا معلَّقاً بين اللهاة والتراقي ، فيخاطبُها مباشرةً ويُعْلِمها أنَّه ما ذكرَهَا إلَّا وقدْ شرقَتْ مآقيهِ بالدُّموع ، يقول :

مَنْ لِقَلْبٍ أَمْسَى كَئِيباً حَزِيناً مُسْتَهَاماً بَيْنَ اللَّهَا وَالتَّرَاقِي[3]
أُمَّ سَلَّامٍ ! مَا ذَكَرْتُكِ إلَّا شَرِقَتْ بِالدُّمُوعِ مِنِّي المَآقِي

ومرَّةً تراهُ يشكوُ طولَ اللَّيل حين يفقِدُها ، وأقصرَ شيءٍ حين يَلْقَاهَا ، وهذه سمةٌ من السمات التي تعْتَوِرُ العشَّاقَ والمُدنَفين حين تُسْهِرُهم عيونُ من يهوون ،

(١) العميد : الذي أسقمه الحب .
(٢) الطريف : الحديث . التليد : القديم .
(٣) اللهاة : الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم وتجمع على اللها . والتراقي : جمع ترقوه وهي العظم الذي بين ثُغرة النحر والعاتق ولا تضم التاء بل تفتح .

وتنامُ عيون المعشوقين هانئةً قريرةً ، والوليدُ لا يشكو ذلك ولا يسألُ الله أنْ يغيِّرَ هذا وكأنَّهُ يلتَذُّ إذا ما أسهرَتْ عينيْهِ عَيْناهَا ، فيقول :

لَا أَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيراً لِمَا صَنَعَتْ نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا
فَالِلَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقِدُهَا وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

وحين كان ينبُوه المضجَعُ لبُعدِها ، ويؤرِّقه الوجدُ لنأيِها ، تضجُّ به الأشواق ، ويعصفُ به الحبُّ فيجأرُ بالشكوى ، ويصرخ متضرِّعاً علَّها تشفي ما في قلْبه من أوصاب ، وتبرِّدُ ما يشتعلُ بينَ حناياهُ من وجدٍ ، كقوله :

أَرْسِلِي بِالسَّلَامِ يَا سَلْمُ إِنِّي مُنْذُ عُلِّقْتُكُمْ غَنِيٌّ فَقِيرُ
وَيْحَ نَفْسِيَ ! تَسْلُو النُّفُوسُ وَنَفْسِي فِي هَوَى الرِّيمِ ذِكْرُهَا مَا يَحُورُ

ويلجُّ الوليدُ في ترديدِ كُنْيتها استجابةً لاصطلام اللَّهيب المشتعل بين حنايا صدره ، ثم يُثنِّي بذكرِ اسمها علَّهُ يكونُ برداً وسلاماً على قلبه ، ولكنْ هيهاتَ أن تسمعَ لُهَاثَ روحِه ووجيبَ قلْبِهِ ! إنَّهُ يرجُوها أن تُثيبَ عذاباتِهِ ، أمَا يكفيه أنَّه لا يلهجُ إلّا باسمها ولا يهذي إلاَّ بها ؟ ولا تسيل نفسه إلاّ على دروب حبِّها ؟ ويُقْسمُ لها على ذلك بأغلظ الأيمان فيقول :

أُمَّ سَلَّامٍ ! أَثِيبِي عَاشِقاً يَعْلَمُ اللهُ يَقِيناً رَبُّهُ
أَنَّكُمْ مِنْ عَيْشِهِ فِي نَفْسِهِ يَا سُلَيْمَى فَاعْلَمِيهِ ، حَسْبُهُ
فَارْحَمِيهِ إِنَّهُ يَهْذِي بِكُمْ هَائِمٌ صَبٌّ قَدَ أَوْرَى قَلْبُهُ

ويُوغِلُ الوليدُ في دروب عشقِه المحروم ، وحُبِّه الذي لوَّحه الحِرْمانُ بالصدِّ والجحود، فإذا به يربطُ مصيرَهُ بمصيرها، لا فحسب، بل إنَّهُ لا يتمنى لها الموْتَ، ولو قدَّرَ الله وأُنسِيءَ أجلُه لبَكَاهَا ، لأنَّها بنظره تعدِلُ الدُّنيا ومَنْ عليها ، وأنَّها لو أمرتْهُ بالموت لَمَا عَصاها ، ولما أَسِفَ إلا على فقدِهِ لرُؤْيتها ، ومادامَ عاشِقٌ هذا دأْبُهُ

وحُبُّه وكلفهُ بها ، فإنَّه يطلب منها أن تُثيبَهُ على ذلك ، وهو الذي لا ينْسَاها ولا يلْهَجُ إلّا بذكرها ، ولا يستنجدُ إلّا بها ، كقوله :

أَرَاني اللهُ يَـا سَـلْمَى حَيَـاتي وفي يـومِ الحِسَابِ كَمَا أَرَاكِ !
أَلَا تَجْـزِينَ مَنْ تَـيَّمْـتِ عَصْراً وَمَنْ لَـوْ تَطْلُبِـينَ لَقَدْ قَضَـاكِ ؟
وَمَنْ لَـوْ مُتِّ مات وَلَا تَمُـوتي وَلَـوْ أُنْسِي لَـهُ أَجَـلٌ بَكَـاكِ
وَمَنْ حَقّـاً لَوَ أُعْـطِيَ مَـا تَمَنَّى مِنَ الـدُّنْيَا العَـرِيضَةِ مَـا عَدَاكِ
وَمَنْ لَوْ قُلْتِ مُتْ فَأَطَاقَ مَوْتاً إذاً ذَاقَ المَمَـاتَ وَمَـا عَصَـاكِ
أَثِـيبِـي عَـاشِقـاً كَـلِفـاً مُعَـنًّى إذَا خـدِرَتْ لَهُ رِجْـلٌ دَعَـاكِ[1]

وتظلُّ ملامحُ الحبِّ النَّظيف تطبعُ شعرَ الوليد حتّى في أحلَكِ حالات الشكوى والعتاب الحار من حبِّها الذي يُتلفُه ويُعَنِّيه ، ويحبُّ هذا التَّلَفَ وذاكَ العناءَ ولا يقبلُ أقوال النُصحاء في حبِّها حتّى ولو بَرَاهُ وأَنْحَلَهُ ، كقوله :

وَيْـحَ سَـلْمَـى لَـوْ تَـرَاني لَـعَـنَـاهَـا مَـا عَـنَـاني
مُـتْـلِفـاً في الـلَّهْـوِ مَـالي عَـاشِـقـاً حُـورَ الـقِـيَـانِ
إنَّمَـا أَحْـزَنَ قَـلْبِـي قَـوْلُ سَـلْمَـى إذْ أَتَـاني
وَلَـقَـدْ كُـنْـتُ زَمَـانَـاً خَـالِيَ الـذَّرْعِ لِـشَـاني
شَـاقَ قَـلْبِـي وَعَـنَـاني حُـبُّ سَـلْمَـى وَبَـراني
وَلَـكَـمْ لَامَ نَـصِـيـحٌ في سُـلَيْـمَـى وَنَهَاني[2]

ولما كانتْ سلمى تُصِمُّ أُذنَيْهَا عن نداءاتِ الحرمان التي يَجْأَرُ بها قلبُ الوليد المُعَنَّى ، فإنَّه يطالبُ النَّاسَ أن يبلِّغَا نِيَابَةً عنه هذه المحبوبة القاسية ، ويَسْأَلاهَا عمَّا

---

(١) كانت العرب تقول : إن الإنسان إذا خدرت قدمه دعا أحب الناس إليه فسكنت . انظر الأغاني ٣٨/٧ .
(٢) انظر الأغاني ٣٩/٧ .

جعلها تسلاهُ ، وأنْ يصفوا لها ما حلَّ به من عشقها ، وما فعلتْهُ في عاشقٍ صبٍّ أسقمه الحبُّ ولوَّحهُ الشوق، فأصبحَ هدفاً للهموم والأسْقام. وهَلْ قضى الله أنْ تُصبحَ همَّهُ الدائم ؟ ونبعَ عذابه الذي لا ينضَبْ ؟ فماذا يصنَعُ وهو الذي أعلمَها أن بَيْنَهَا قاتلُهُ ، وأنَّها احتلت قلبَهُ عنْوةً ولا يستطيعُ لها دفعاً ؛ فيقول :

بَـلِّغَـا عـنِّي سُـلَيْـمـى وسَـلاهَـا لِيَ غَـمَّا
فـعـلتْ في شـأْنِ صَـبٍّ دَنِـفٍ أُشْـعِـرَ هَمَّـا
ولـقـدْ قـلتُ لِـسَـلْمـى إنَّ قـتـلتُ الـبَـيْنَ عِـلْمَا
أنْـتِ هَميٌّ يـا سُـلَيـمْـى قـدْ قَضَـاهُ الـرَبُّ حَتْـمَا
نَـزَلَتْ في القَـلْبِ قَسْـراً مَنْـزِلاً قَـدْ كَـانَ يُحْمَى

وهكذا اعتادَ لسانُ الوليدِ تَرْدَادَ اسمِ سَلْمى حتى غَدَا سَلْوَاهُ، وَمُبْتَرَداً لنيران الهوى التي تَشْتَعلُ في فُؤاده، ورُبَّما تعويذةً يُردِّدُها كلَّما ادْلهمَّتْ به الأشواق وداهمتْهُ أمواجُ العذاب، فيصرخُ باسْمهَا، ويستعْطِفَها، أَوَ لَيْسَتْ هي ابنَةَ عَمِّه؟! فكيفَ تتْرُكُهُ فريسةً للأشْواقِ والهُمُومِ ؟ وتُصدِّقُ فيه أقْوَالَ الوُشاة؟ وحقُّهُ كابْنِ عمٍّ لها، أن تطرُدَ هَؤُلاءِ الوُشَاةِ وتملأَ أفْوَاهَهُمْ تُراباً، آهٍ!! إنَّه يتذكَّرُ رِيقَها عندما تَسْتَفيقُ من النَّومِ صُبْحاً فلا يجدُ مُشَابهاً له غيرَ المِسْكِ والشَّهْدِ، فَيَقُولُ:

يـا سُليْمَى يَـا سُلَيْمَى كُـنْـتِ لـلقَـلْبِ عَـذَابَـا
يـا سُلَيْمَى ابنـةَ عَمِّي! بَـرَدَ الـلَّيـلُ وَطَـابَـا
أَيُّمَـا وَاشٍ وَشَى بِي فَـامْـلَيء فَـاهُ تُـرَابَـا
رِيقُهَـا في الصُّبْحِ مِسْـكٌ بَـاشَرَ العَـذْبَ الـرُّضَـابَـا[1]

إذا كانت سليمى قد صَمَّت أذنيها دون نداءات استغاثته بها، فما عليه إلا

---

(١) الرضاب: الشهد أو العسل المصفى.

أن ينكفىء على نفسه، يندب قلبه المعذّب الذي صدعه الهوى وأوجعه الحبُّ، حبُّ سلمى الذي لا يعرف غيره، لا في الماضي ولا في الحاضر، كيف لا! وقد ألّفت بينهما أواصر القرابة والسعادة، فهما أبناء عمومة. ثم ينثني على معالجة قلبه فيشكوه كلف فؤاده بغادته الحسناء التي تستبي روحه بقامتها الممتلئة، وساقها المنسوبة وحيائها الخفر الذي يشدُّه إليها:

يَا مَنْ لِقَلبٍ في الهَوَى مُتَشَعِّبٍ   بَلْ مَنْ لِقَلْبٍ بالحبيبِ عَميدِ[1]
سَلْمَى هَوَاهُ لَيْسَ يَعْرِفُ غَيْرَهَا   دُونَ الطَّرِيفِ وَدُونَ كُلِّ تَليدِ
إنَّ القَرَابَةَ والسَّعَادَةَ أَلَّفَا   بَيْنَ الوَليدِ وَبَيْنَ بِنْتِ سَعيدِ
يَاقَلْبُ كَمْ كَلِفَ الفُؤَادُ بِغَادَةٍ   مَمْكُورَةٍ رَيَّا العِظَامِ خَرِيدِ[2]

إنَّ حبَّ سليمى يملأ عليه أيّام صحوه، وها هو يغزو لياليه المسهّدة الطوال، فإذا ماقدِّر لأجفانه أن تكتحلَ بالسهد طاف خيالُها حوله ليهيجَ لواعج الشوق فيه ويذكي عازِبَ همه، فيناديه يسأله عن عهود الحبّ التي ولت فاستحالت حياته بعدها صحراء قاحلة لاتنبت شيحاً ولاحمضاً، فيعوج هذا الطيف ليؤنس وحشته، ويطلب منه أن يوقد له سراجا يضيء صحارى حياته، فيقول:

طَافَ منْ سَلْمَى خَيَالٌ   بعدَمَا نِمْتُ فَهَاجَا
قُلْتُ عُجْ نَحْوي أُسَائِلـ   ـكَ عَنِ الحُبِّ فَعَاجَا
يَا خَليلي يَانَديمي   قُمْ فَأَنْفُثْ لي سِرَاجَا[3]
بِفَلاةٍ لَيْسَ تُرْعَى   أَنْبَتَتْ شِيحاً وَحَاجَا

إنْ كان طيف سليمى لايلبِّي دعوته ويشفي ما به، إذا فليتوجَّه إليها يناديها

(١) عميد: العاشق الذي أوجعه الحب وأضناه.
(٢) ممكورة: مستديرة الساقين لسمنتها. الخريدة: من الخريدة كثيرة الحياء وتجمع على خرائد.
(٣) لايوجد نفثْ بهمزة قطع بل وصل.

بكنيتها أمّ سلام، يستعطفها أن تثيب عاشقاً أستباحت نفسه وتربّعت على عرش قلبه، فمن حقّه أنْ ترحمه، وتشفق على من يهذي باسمها ويهيم بحبّها هياماً أذابَ قلبه وأودى به، فإنْ استجابت، فعندها تصفو الحياةُ ولايكدر شربه وصفاءه شيء:

أُمَّ سَلامٍ أثيبي عاشِقاً يَعْلَمُ اللهُ يَقيناً رَبُّهُ
أَنَّكُمْ مِنْ عَيْشِهِ في نَفْسِهِ يَاسُلَيْمى فَاعْلميهِ حَسْبُهُ
فَارْحَميهِ إنَّهُ يَهْذِي بِكُمْ هَائِمٌ صَبٌّ قَدَ أوْدَى قَلْبُهُ
أَنْتِ لَوْ كُنْتِ لَهُ رَاحِمَةً لَمْ يُكَدَّرْ يَاسُلَيْمى شِرْبُهُ

إذا انقشّعت الغمّة، وأخذ توهجّ الشكوى ينطفىء، وندَاآت الشوق تضمحلّ، وتهدأ لواعجُ الحرمان، فإنها تُخَلِّف حنيناً خافتَ النأمة، يبعث في الذكرى رجاءً، وفي التمني والدعاء ملاذاً، وتعلو صفحة عاطفته المستكينة غلالة من التوق المغمس بالمنى، ولهفة إلى الديار والمنازل، وأملًا بسلامة المحبوب ودعاء لها بالوقاية مِنْ غدر الزمان؛ ولايبقى غير الخوف من الغربة وديارها النائية، والخشية مما يكِنُّه الغيب:

رُبَّ بَيْتٍ كَأنَّهُ مَتْنُ سَهْمٍ سَوْفَ نَأتيهِ مِنْ قُرَى بَيْرُوتِ
مِنْ بِلادٍ لَيْسَتْ لَنَا بِبِلادٍ كُلَّمَا جِئْتِ نَحْوَهَا حُيِّيتِ
أُمَّ سَلامٍ لابَرِحْتِ بِخَيْرٍ ثُمَّ لازِلْتِ جَنَّتِي مَا حَيِيتِ
طَرَباً نَحْوَكُمْ وَتَوْقاً وَشَوْقاً لادِّكَارِيكُمُ وَطيبِ المَبيتِ
حَيْثُمَا كُنْتِ مِنْ بِلادٍ وَسِرْتُمْ فَوَقَاكِ الإلَهُ مَا قَدْ خَشيتُ

وتظلُّ سليمى قبلته ومحجّته ومثابه، ويبقى شعره فيها بيرقا منشورا يرفرف في سماء الحب، ويردّده البدو والحضر، ويتهاداه العشّاق والعذارى لصدقه وحسن تعبيره عن أحوالهم، كشعر جميل بثينة وعمر بن أبي ربيعة، بل ربّما غلابِه غلواً كبيراً، فهو يلثم مواضع أقدامها ويسجد لأي أثر من آثارها، بل ربّما جعله كما قلنا

حجّهُ ومعتَمَرهُ، وإماماً مرتضى يَأْتَمُّ به ويؤمن على يديه، إن سليمى قمرٌ في أعلى بروج السماء، وليس هو بمغال ولا بمتحرج لو سجد لذاك القمر.

شَاعَ شِعْري في سُلَيْمَى واشْتَهرْ ... وَرَوَاهُ النَّـاسُ، بـادٍ وَحَضرْ[1]
وَتَهَـادَتْـهُ الـعَـذَارَى بَـيْـنَهَـا ... وَتَـغَنَّـيْنَ بِـهِ حَـتَّى اشْـتَهَـرْ[2]
قُلْتُ قَـوْلاً لِسُلَيْمَـى مُعْجِبـاً ... مِثْـلَ مَـا قَـالَ جَميـلُ وَعُمَـرْ
لَـوْ رَأَيْنَـا لِسُـلَيْمَـى أَثَـراً ... لَسَجَـدْنَـا أَلْـفَ أَلْفٍ لـلأَثَـرْ
وَاتَّخَـذْنَـاهَـا إمَـامـاً مُـرْتَضَى ... وَلَكَـانَتْ حَـجَّنَـا وَالْمُعْـتَـمَـرْ
إنَّمَـا بِـنْـتُ سَـعـيـدٍ قَـمَـرُ ... هَلَ حَرِجْنَا إنْ سَجَدْنَا لِلْقَمَرْ؟[3]

وهو إذا ما جالس الصحب وشربوا، ثم راحوا يتمنون مايحبون في هذه الدنيا من خمور وذهب ومواشٍ، وسألوه أن يتمنّى هو مثل مايتمنّون، فإنّه لايتمنّى غير حبيبته سلمى ابنة عمه ذات الحسب الرفيع:

قَـدْ تَمَنَّى مَعْشَرٌ إذْ أُطْـرِبُـوا ... مِـنْ عُـقَـارٍ وَسَـوَامٍ وَذَهَـبْ[4]
ثُمَّ قَـالُـوا لي تَمَنَّ وَاسْتَمِـعْ ... كَيْفَ نَنْحُو في الأَمَاني وَالطَّلَبْ
فَـتَـمَـنَّـيْـتُ سُـلَيْـمَـى إنَّهَا ... بِنْتُ عَمِّي مِنْ لَهَاميمِ العَرَبْ[5]

وكان إذا داهمته الأشواق، وأوجعه الجفاء، وطال مَطْلُ سليمى له، صوّرت له نفسه تراجعها عن صدِّها، وتخيَّل أنَّها تحبُّه كما يحبُّها، ولكنْ ماحيلتها إذا منعها أبوها من وصاله، ولابدَّ أنَّها مشوقةٌ إليه، وتهديه سلامها، فيقول ذلك على لسانها:

---

(١) انظر العقد الفريد حيث رواية البيت: «ورواه كل بدوٍ وحضر» وكذلك بقية الأبيات ٤/٤٥٣ - ٤٥٤.

(٢) في الديوان صفحة ٣٤: حتى انتثر.

(٣) انظر ديوان الوليد صفحة ٣٤.

(٤) السوام: كل ما رعى من المال في الفلوات.

(٥) اللهاميم: جمع لهموم، وهو الجواد من الناس والخيل.

اقْرِ مِنِّي عَلَى الوَلِيدِ السَّلامَا   عَدَدَ النَّجْمِ قَلَّ ذَا لِلْوليدِ
حَسَداً مَاحَسَدْتُ أُخْتِي عَلَيْهِ   رَبُّنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَعيدِ

ويروى عن النضر عن ابن الكلبي عن أبيه: أن الوليد خرج يتصيَّد ذات يوم، فصادت كلابه غزالا، فأُتي به، فقال: خَلُّوه، فما رأيت أشبه منه جيدا وعينيين بسلمى ثم أنشأ يقول:

وَلَقَدْ صِدْنَا غَزَالا سَانِحاً   قَدْ أَرَدْنَا ذَبْحَهُ لَمَّا سَنَحْ
فَإِذَا شِبْهُكِ مَا نُنْكِرُهُ   حِينَ أَزْجَى طَرْفَهُ ثُمَّ لَمَحْ
فَتَرَكْنَاهُ وَلَوْلا حُبُّكُمْ   فَاعْلَمِي ذَاكَ لَقَدْ كَانَ انْذَبَحْ
أَنْتِ يَاظَبْيُ طَلِيقٌ آمِنٌ   فَاغْدُ فِي الغِزْلانِ مَسْرُوراً وَرُحْ

وقال الوليد بن يزيد يذكر منازل سلمى وقد عفتْ عليها يدُ القدر، وَيَعِدُ سلمى بحفظ سرِّها على الرغم من الأحزان التي تفضح سِرَّهُ وتبينُ مكنون صدره:

مَنَازِلُ قَدْ تَحُلُّ بِهَا سُلَيْمَى   دَوَارِسُ قَدْ أَضَرَّبِهَا السِّنُونُ
أُميتُ السِرَّ حِفْظاً يَاسُلَيْمَى   إذَا مَا السِرُّ بَاحَ بِهِ الحُزُونُ(١)

وقال فيها قبل أن تزف إليه، يسأل العلي القدير ألا تُغيِّر ماصنعت به، وماصنعته به شيء كثير، إذ نامت هادئة البال قريرة العين، وبات هو مسهداً قصير الأجفان لايغمض له جفن، فلياليه طويلة حين يفقدها وقصيرة حين يلقاها.

لاأَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيراً لِمَا صَنَعْتْ   نَامَتْ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حينَ أَفْقِدُهَا   وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا(٢)

وقال قبل تزوجه لها يرجو الله أن يجمعه بها، ويفعل به بعدها مايشاء:

---

(١) الحزون: الكثير الحزن.
(٢) انظر الذخيرة الجزء الأول المجلد الثاني صفحة ٧٦ .

لَعَلَّ اللهَ يَجْمَعُنِي بِسَلْمَى ... أَلَيْسَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
وَيَأْتِي بِي وَيَطْرَحُنِي عَلَيْهَا ... فَيُوقِظُنِي وَقَدْ قُضِيَ القَضَاءُ
وَيُرْسِلُ دِيمَةً مِنْ بَعْدِ هَذَا ... فَتَغْسِلُنَا وَلَيْسَ بِنَا عَنَاءُ

وربّما عمدَ الوليدُ في تضاعيف غزله المشبع بنكهة الحرمان والنأي، إلى ذكر محاسن سلمى، ولكنَّه ذِكْرٌ نظيف عفيف، فلم يكن ليفحش فيه ولايتبذَّل، وإنما كان يصف ريقَ سلمى الذي يفوق أنواعَ الأشربة كلِّها، فلا العسلُ الممزوج بالزنجبيل أو ألبان اللقاح، والخمورُ المعتقة بالزقاق بأشهى من مُجاجةِ ريقها:

فَمَا مِسْكٌ يُعَلُّ بِزَنْجَبِيلٍ ... وَلا عَسَلٌ بِأَلْبَانِ اللِّقَاحِ
بِأَشْهَى مِنْ مُجَاجَةِ رِيقِ سَلْمَى ... وَلا مَا فِي الزِّقَاقِ مِنَ القَرَاحِ
وَلا وَاللهِ لا أَنْسَى حَيَاتِي ... وَثَاقَ البَابِ دُونِي وَأطِّرَاحِي

ومرة أخرى يشبِّهها بالظبية الأدماء مثل الهلال، أويشبِّه وضاءتها بقرن الشمس تسطع في رؤوس الجبال، وأنَّها ألوفٌ بالنسبة إليه، قتَّالةٌ لغيره من الرجال، وهي لاتني تزورُه في المنام إذا ما هجعَ الصحاب، قاطعةً إليه الفيافي متجشِّمة الصعاب والأهوال:

طَرَقَتْنِي وَصِحَابِي هُجُوعٌ ... ظَبْيَةٌ أَدْمَاءُ مِثْلُ الهِلالِ
مِثْلُ قَرْنِ الشَّمْسِ لَمَّا تَبَدَّتْ ... وَاسْتَقَلَّتْ فِي رُؤوسِ الجِبَال
تَقْطَعُ الأَهْوَالَ نَحْوِي وَكَانَتْ ... عِنْدَنَا سَلْمَى أَلُوفُ الحِجَالِ
كَمْ أَجَازَتْ نَحْوَنَا مِنْ بِلادٍ ... وَحْشَةٍ قَتَّالَةٍ لِلرِّجَالِ

وموضوعُ طروقِ خيالها يظل يتلامحُ له في اليقظة والمنام، فما أن يلم به طيفها حتى يهبَّ كالمفجوع يناجيه، فيقول:

طَافَ مِنْ سَلْمَى خَيَالٌ ... بَعْدَ مَا نِمْتُ وَهَاجَا

قُلْتُ: عُـجْ نَحْـوي أسَـائِلْـ ـكَ عَـنِ الحُـبِّ، فَـعَـاجَـا

وَيَظَلُّ خَيَالُهَا يَطْرُقُهُ، في حِلِّه وَتَرْحَالِهِ، فَهَا هُوَ يُلِمُّ بِهِ وَهُوَ في البَلْقَاءِ فَيَقُولُ:

تَـذَكَّـرَ شَجْـوَهُ القَلْبُ القَـريـحُ فَـدَمْـعُ العَـيْـنِ مُنْهَـلٌّ سَفُـوحُ
أَلا طَـرَقَتْـكَ بِـالبَلْقَـاءِ سَلْمَى هُـدُوءاً وَالمَـطِيُّ بِـنَـا جَنُـوحُ
فَبِتُّ بِهَـا قَـريـرَ العَـيْـنِ حَتَّى تَكَلَّمَ نَـاطِقُ الصُّبْـحِ الفَصيـحُ

لا الحلم بها يكفيه، ولا الطروق يشفيه، فقد راح يسترق السمع لما يقوله الناس فيها، فإذا بهم يشبِّهونها بالطير الجميل على غصن يتفلَّى، فيصدِّقُ ذلك، إذاً لِمَ لايناجي هذا الطير، يُناجيها، ويدعوها إليه، فيدنوا منه ويسأله: هل تعرف سلمى؟ ولكنَّ الطيرَ للأسف يُنكرُ معرفتَه بسلمى، فينكأ جراحات قلبه ويولِّي هارباً، تاركاً نارَ الجوى تعصف في قلبه:

حَـدَّثُـوا أَنَّ سُـلَيْـمَـى خَـرَجَـتْ يَـوْمَ المُـصَـلَّى
فَـإِذَا طَـيْـرٌ مَـلِيـحٌ فَـوْقَ غُـصْـنٍ يَـتَـفَـلَّى
قُـلْتُ: يَـاطَـيْـرُ أدْنُ مِنِّي فَـدَنَـا ثُـمَّ تـدَلَّى
قُلْتُ هَـلْ تَعْـرِفُ سَلْمَى قَـالَ لا ثُـمَّ تَـوَلَّى
فَـنَـكَـا في الـقَـلْبِ كَلْماً بَـاطِـنـاً ثُـمَّ تَخَـلَّى(١)

وله في وصفها وذكر محاسنها، كلونها الأبيض، وشعرها المسترسل الطويل، ومشيتها المتّئدة المختالة، قوله:

غَـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ يُسْتَضَـاءُ بِهَـا تَمْشي الهُوَيْنَى إِذَا مَشَتْ فُضُلاَ(٢)

ويتجاوز الوليد في وصفه لمحاسن سلمى سُلَّمَ أولويات الجمال الذي درج

(١) نكا: بالهمز نكأ وسهل لضرورة الشعر، وهو بمعنى جد الألم أو الجرح. الكلم: الجرح.
(٢) الغراء: البيضاء. الفرعاء: طويلة الشعر. الهويني: التؤدة والوقار. الفضل: المشية فيها اختيال.

عليه الشعراء قبله ، فهي لجمالها الفذّ النادر لو رآها الرائي لسماها إلاهاً ، أو ربة الطاء والسن وطاها .

وُصِفَتْ عِنْدي سُلَيْمَى فَاشْتَهَي قَلْبِي يَرَاهَا
لَوْ يَرَى سَلْمَى خَلِيلي لَدَعَا سَلْمَى إلَاهَا
وَرَأى حِينَ يَرَاهَا رَبَّ طَاسِينَ وَطَاهَا

وقال يصف سلمى مشبِّهاً أيَّاها بالغزال رشاقةً وسحرَ عينين ، وطولَ عنق ويغري بها من زائرةٍ :

أَلَا أَحْبِبْ بِزَوْرٍ زَا رَ مِنْ سَلْمَى بِبَيْرُوت
غَزَالٌ أَدْعَجُ العَيْنَيْنِ نَقِيُّ الجِيدِ وَاللِّيتِ[1]

ثم يعاودُ كَرَّةً أخرى وقد أثملَه ريقُها العذب . وسَحَرَه غُرُوبُ فمها المطيَّب ، وهو وإنْ توجَّه بقوله هذا إلى أمِّ حبيب بنت عبد الرحمن بن مصعب وقد مرُّوا بين يديها بالشمع ليلاً ، فلما رآها أعجبته وراعه جمالُها وحسنها ، فسأل عنها فقيل له : إن لها زوجاً ، فأنشأ يقول[2] :

إنَّما هَاجَ لِقَلْبِي شَجْوَهُ بَعْدَ المَشيبِ
نَظْرَةٌ قَدْ وَقَرتْ في الـ ـقَلْبِ مِنْ أُمِّ حَبيبِ
فَإِذَا مَا ذُقْتُ فَاهَا ذُقْتُ عَذْباً ذَا غُرُوبِ[3]
خَالَطَ الرَّاحَ بِمِسكٍ خَالِصٍ غَيْرِ مَشُوبِ

وأما ما تبقى من غزله ، فيندَرِجُ تحت النقاط التالية :

---

(١) إلاها ، وطاها : أتبعناهما على اللفظ .
(٢) الليت : صفحة العنق .
(٣) انظر الأغاني ٧/٥٥ .
(٤) الغروب : جمع غرب وهو كثيرة ريق الفم وبلله . وغروب الأسنان : مناقع ريقها وقيل أطرافها وحدتها .

آ ـ فهو إمّا أن يشكوَ من سُقْم الحبِّ الرخيص ودوائه الغالي .

أَرَاني قَدْ تَصَابَيْتُ وَقَدْ كُنْتُ تَنَاهَيْتُ
وَلَوْ يَتْرُكُني الحُبُّ لَقَدْ صُمْتُ وَصَلَّيْتُ
إِذَا شِئْتُ تَصَبَّرْتُ وَلاَ أَصْبِرُ إِنْ شِيبْتُ
وَلاَ واللهِ لاَ يَصْبِـ ـرُ في الدَّيْمُومَةِ الحُوتُ[3]
سُلَيْمَى لَيْسَ لي صَبْرٌ وَإِنْ رَخَّصْتِ لي جِيتُ

ب ـ أو يقسم في مقطوعة ثانية أنّه ما أدنى كفَّهُ لريبة ، ولا حملتْه قدمُه لفاحشةٍ .

جـ ـ ويطلبُ في ثالثةٍ الكفَّ عن عذْلِهِ فذلك يزيده غيّاً .

د ـ ويقف في رابعةٍ على طَلَلٍ موحش بدت بقاياه كخط في صحيفة تآكلتها الأيّام .

عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ عَسُوفِ الوَبْلِ هَطَّالِ
عَرَفْتُ المَنْزِلَ الخَالي عَفَا مِنْ بَعْدِ أَحْوَالِ
لِسَلْمَى قُرَّةِ العَيْنِ وَبِنْتِ العَمِّ وَالخَالِ
بَذَلْتُ اليَوْمُ في سَلْمَى خِطَاراً أَتْلَفَتْ مَالي[1]
كَأَنَّ الرِّيقَ مِنْ فِيهَا سَحِيقٌ بَيْنَ جِرْيَالِ[2]

هـ ـ ونلتقي بمقطوعة يبدو أنَّه نظمها حين أحسَّ بالندم بعد أن طلق سعدة بنت سعيد يتساءل فيها مغموماً عن السبيل إليها بعدما تزوَّجت بشر بن الوليد بن عبد الملك .

(١) الخطار : بالتحريك جمع خطر وهو السبق الذي يترامى عليه في الرهان .
(٢) الجريال : صفوة الخمرة . انظر في اللسان مادة جرل . السحيق : المسك .
(٣) الديمومة : الصحراء البعيدة .

و ـ ونقع على أخبار متفرقة عن مغامرات غزليةٍ قام بها ، أو حكايةٍ عن لقاءات عابرة مع بعض النسوة ، لا ندري مدى صِدقها ، منها : ما روي عن عمر بن جبلة من أن الوليد بن يزيد بات عند امرأة وعدتْه المبيت ، فقال حين انصرف :

قَـامَتْ إِلَيَّ بِتَقْبِيـلٍ تُعَـانِقُني   رَيَّا العِظَامِ كَأَنَّ المِسْكَ في فِيهَا
أُدْخُلْ فَدَيْتُكَ لَا يَشْعُرْ بِنَا أَحَدٌ   نَفْسي لِنَفْسِكَ مِنْ دَاءٍ تُفَـدِّيهَـا
بِتْنَا كَذَلِـكَ لَا نَوْمٌ عَـلَى سُرُرٍ   مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ تُدْنيني وَأُدْنيهَـا
حَتَّى إِذَا مَا بَدا الخَيْطَانِ قُلْتُ لَهَا :   حَانَ الفِراقُ فَكَادُ الحُزْنُ يُشْجِيهَا
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَلَمْ يَشْعُرْ بِنَا أَحَدٌ   وَاللهُ عَنِّي بِحُسْنِ الفِعْلِ يَجْزِيهَا

وفي رواية عن خالد بن سعيد قال : مرَّ الوليد بن يزيد وهو متصيِّد بنسوة من كلب من بني المنجاب ، فوقف عليهنَّ ، واستسقاهنَّ ، وحدَّثهنْ وأمر لهنَّ بصلة ، ثم مضى وهو يقول :

وَلَقَـدْ مَـرَرْتُ بِنِسْـوَةٍ أَعْشَيْنَني   حُورِ المَدَامِـعِ مِنْ بَنِي المُنْجَابِ
فِيهِـنَّ خَـرْعَبَـةٌ مَـليـحٌ دَلُّهَـا   غَرْثَى الوِشَـاحِ دَقِيقَةَ الأَنْيَـابِ(١)
زَيْنُ الحَوَاضِرِ مَاثَوَتْ في خَصْرِهَا   وَتَـزِينُ بـادِيهَـا مِنَ الأَعْـرَابِ

وغزل الوليد بصورة عامةٍ في غير سلمى ، غزل خالٍ من حرارة الحبِّ وصدق العاطفة ، فقد روي له شعر في نصرانيَّة يوم عيد من أعيادها ، ومطلعها :

«أضحى فؤادك يا وليد عميدا»

يقول فيها :

---

(١) الخَرْعَبَةُ : اللينة الرخصة الحسنة الخلق من النساء . غرثى : العطشى ، وغرثى الوشاح : قلقة الوشاح لدقة خصرها

مَــازِلْتُ أَرْمُقُـهَـــا بَعَيْنِي وَامِـقٍ حَتَّى بَصُرْتُ بِهَا تُقَبِّلُ عُــودَا
عُودَ الصَّلِيبِ فَوَيْحَ نَفْسِي مَنْ رَأَى مِـنْكُمْ صَلِيبــاً مِثْلَهُ مَعْبُــودَا
فَسَــأَلْتُ رَبِّي أَنْ أَكُـونَ مَكَـانَـهُ وَأَكُـونَ فِي لَهَبِ الجَحِيمِ وَقُودَا

وروى ابن سلّام والمدائني قالا : وخرج الوليد بن يزيد يريد فرتني[1] لعلّة يراها ـ يقصد سلمى ـ فلقيه زيات معه حمار عليه زيت ، فقال له : هل لك أن تأخذ فرسي هذا وتعطيني حمارك هذا بما عليه ، وتأخذ ثيابي وتعطيني ثيابك ؟ ففعل الزيات ذلك . وجاء الوليد وعليه الثياب وبين يديه الحمار يسوقه متنكّراً حتى دخل قصر سعيد ، فنادى : من يشتري الزيت !؟ فاطلع بعض الجواري فرأينه ، فدخلن إلى سلمى وقلن : إن بالباب زياتاً أشبه الناس بالوليد ، فأخرجي فانظري إليه .

فخرجت ، فرأته ، ورآها ، فرجعت القهقرى ، وقالت : هو والله الفاسق الوليد ! وقد رآني !

فقلن له : لا حاجة بنا إلى الزيت . فانصرف وقال :

إِنَّــنِي أَبْـصَـرْتُ شَـيْـخـاً حَـسَـنَ الـوَجْـهِ مَـلِيحْ
وَلِـبَـاسِي ثَـوْبُ شَـيْـخٍ مِـنْ عَـبَـاءٍ وَمُـسُـوحْ
وَأَبِـيـعُ الـزَّيْـتَ بَـيْـعـاً خَـاسِراً غَـيْرَ رَبِـيـحْ[2]

وقال المدائني وابن سلام : فلما طال بالوليد ما به ـ من عشق سلمى ، وعدم وصلها له ـ كتب إلى أبيها سعيد ـ يرجوه أن يزوجه إياها ـ :

أَبَا عُثْمَانَ ! هَلْ لَكَ فِي صَنِيعٍ ؟ تُصِيبُ الرُّشْدِ فِي صِلَتِي هُـدِيتَا
فَأَشْكُرَ مِنْكَ مَا تُسْدِي وَتُحْيِي أَبَــا عُـثْمَــانَ مَـيِّـتَـةً وَمَـيـتَـا

(١) فرتنى : قصر بمرو الروز .
(٢) انظر الأغاني ٧/٢٨ ـ ٢٩ .

قالوا : فلم يجبه إلى ذلك حتى ولي الخلافة ، فلما وليها زوجه إياها ، فلم تلبث إلّا مدة يسيرة حتى ماتت . وقال فيها ليلة زفت إليه من قصيدة طويلة ، منها :

خَفَّ مِنْ دَارِ جِيرَتِي يَا ابْنَ دَاوُدَ أُنْسُهَا
أَوَلَا تَخْرُجُ الْعَرُو سُ فَقَدْ طَالَ حَبْسُهَا
قَدْ دَنَا الصُّبْحُ أَوْبَدا وَهْيَ لَمْ يُقْضَ لُبْسُهَا
بَرَزَتْ كَالْهِلَالِ فِي لَيْلَةٍ غَابَ نَحْسُهَا
بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أَكْرَمُ الْخَمْسِ جِنْسُهَا

وقال الوليد بن يزيد في سلمى بنت سعيد بن خالد ، وقد زفت إليه معرضاً باللائمين داعياً عليهم بالموت وراحة الناس منهم :

أَنَا فِي يُمْنَى يَدَيْهَا وَهْيَ فِي يُسْرَى يَدَيَّهْ
إِنَّ هَذَا لَقَضَاءٌ غَيْرُ عَدْلٍ يَا أُخَيَّهْ
لَيْتَ مَنْ لَامَ مُحِبّاً فِي الْهَوَى لَاقَى مَنِيَّهْ
فَاسْتَرَاحَ النَّاسُ مِنْهُ مِيتَةً غَيْرَ سَوِيَّهْ[1]

ولم تمكث سلمى عنده طويلاً ، قيل سبعة أيام ، وقيل أربعين يوماً ، ثم ماتت ، فقال فيها :

أَلَمَّا تَعْلَمَا سَلْمَى أَقَامَتْ مُضَمَّنَةً مِنَ الصَّحْرَاءِ لَحْدَا
لَعَمْرُكَ يَا وَلِيدُ لَقَدْ أَجَنُّوا بِهَا حَسَباً وَمَكْرُمَةً وَمَجْدَا
وَوَجْهاً كَانَ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاهُ شُعَاعُ الشَّمْسِ أَهْلٌ أَنْ يُفَدَّى
فَلَمْ أَرَ مَيِّتاً أَبْكَى لِعَيْنٍ وَأَكْثَرَ جَازِعاً وَأَجَلَّ فَقْدَا
وَأَجْدَرَ أَنْ تَكُونَ لَدَيْهِ مِلْكاً يُرِيكَ جَلَادَةً وَيُسِرُّ وَجْدَا

(١) انظر ديوان الوليد صفحة ١٤ .

وكثيرة هي القصائد التي رثى بها سلمى ، تعبيراً عن الحزن الذي عصف به بعدها ، فقد كانت جنَّته التي يفيء إليها ، وكرمَهُ الداني القطوف ، ففاجأه القدرُ إذْ تخطَّفها من بين يديه ، فاستحالت الجنّةُ إلى جحيم، والكروم قد صوحت وماتت :

يَا سَلْمُ كُنْتِ كَجَنَّةٍ قَدْ أَطْعَمَتْ   أَفْنَانُهَا دَانٍ جَنَاهَا مُوَضَّعُ
أَرْبَابُهَا شَفَقاً عَلَيْهَا نَوْمُهُم   تَحليلُ مَوْضِعَهَا وَلَّمَا يَهْجَعُوا
حَتَّى إِذَا فَسَحَ الرَّبيعُ ظُنُونَهُمْ   نَثَرَ الخَرِيفُ ثِمَارَهَا فَتَصَدَّعُوا(١)

ومن أرق وأجمل ما قاله في الغزل ، ولم يسبقه إليه أحد ، قوله :

لَا أَسأَلُ الله تَغْيِيراً لِمَا صَنَعَتْ   نَامَتْ وقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنَيَّ عَيْنَاهَا
فَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيءٍ حينَ أَفْقِدُهَا   وَاللَّيْلُ أقْصَرُ شَيءٍ حينَ أَلْقَاهَا(٢)

تلك هي أبرزُ المعاني التي ضمَّنها الوليدُ غزلَه ، وهي معانٍ عفيفةٌ في أغلبها ، تترفَّعُ عن أدران المادة ، وتجول في دنيا العُذريين ، مسربلةً بالآهاتِ والحسرات والدموع . وقد يستغربُ القارىء هذا الغزل ، كيف يصدر عَمَّنْ شُهِرَ باللّهو والمجون والاستهتار بالقيم والمقدّسات ؟ ولكنّا ندفع عنه هذا الإستغراب إذْ نقول :

آ ـ لقد وقع الوليدُ أسيرَ حبيبته ، فظنَّ في بادىء الأمر أنَّ بمقدوره إرواءَ غليل نفسه منها بزواجٍ يتِمُّ حال خطبتها من أبيها ، ولم يخطرْ بباله موضوعُ الرفض لا من قريب ولا من بعيد ، وكيف يخطرُ بباله وهو وليُّ العهد ، ويتمتَّعُ بالشباب والمال والسلطة ؟

---

(١) انظر الأغاني ٧/٦٥ .
(٢) انظر محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك للباحث محمد حسن عواد صفحة ٢٩ ـ ٣٠ .

ولكنَّ آمالَ الوليد خابتْ حين فوجيء بالردِّ العنيف الذي قابله به سعيد بن خالد والد معشوقته سلمى ، تحت تأثيرات هشام . ولم يكن بمقدور الوليد أن يفعل شيئاً ، فسعيدُ هذا هو أحدُ أحفاد الخليفة عثمان بن عفان ، وهو أحدُ النافذين المقرّبين من عدوِّه اللدود الخليفة هشام بن عبد الملك . وهكذا عرف الوليدُ المحبُّ مرارةَ الحبِّ ودموعَه ، ومضى يُعبِّرُ عن ذلك شعراً مصبوغاً باللَّوعة والأسى .

ب ـ ومثلما حالتْ سمعةُ الوليد ، والظروفُ السياسية التي كان يعيشها ، بَيْنهُ وبين من يحبُّ ، فقد حالتْ طبيعته العاطفية بينه وبين السلوان .

فالوليدُ لم يكنْ يعرفُ الإتِّزان العاطفيّ ، فهو إنْ حقدَ ذهب به حقدُه حتى حدودِ الانتقام الذي لا يعرفُ تسامُحاً ولا غُفراناً ، وهذا ما كان حين اعتلىٰ عرش الخلافة ، فقد شَهَرَ سيفَ الانتقام ، وراح يسفكُ دماءَ أهل هشام وهم أهله ، ويصادر أموالهم وممتلكاتهم ، حتى أثار عليه النفوسَ ، وأضغنَ القلوب .

وهو إن أحبَّ ، ذهبَ به حبُّهُ حتى حدود العِشق الذي ما بعده عشق ، فقد أثَّرَ ذلك كله في حياته ، فقوى نزواته التي جمحتْ به نحو المجون والتهتُّك والإستهتار بعواقب الأعمال ، وهذا ما دفعه رغمَ مكانته السامية إلى التنكُّر بزيِّ زيَّاتٍ ليدخلَ قصرَ محبوبته فيحظى بنظره منها ، وهو السبب ذاته الذي جعلَه يُشهِر سيف الانتقام فيسفكُ الدماءَ ويزهقُ الأنفسَ لأقاربه متناسياً أنَّهم عصبُ المُلك وبهم يثبُتُ ويستمرُّ .

لقد أذهبَ الوليد مُلكَه بإسرافه الشديد في الميل إلى الأشياء أو النُّفور منها . فالإتِّزانُ لم يكن يعرفُ طريقاً إلى قلبه ، والتعقُّل لم يهتدِ أبداً إلى نفسه .

وأمَّا غزله في غير سلمى فهو غزل فنيٌّ بحتٌ ليس فيه حرارةُ الحبِّ ،

ولا لوعةُ الحرمان ، ولا صدقُ العاطفة ، وقد نظمَ معظَمَهُ لمجالس الغناء ، أو وصفِ اللهو والعبث والمجون ، لذا نجده ليناً مهلهلاً ، فيه العذبُ الرقيق ، وفيّه السفسافُ الركيكُ .

ب - خمرياته ..

نشأ الوليدُ في بيت أبيه يزيد بن عبد الملك بدمشق نشأةَ عزٍّ ودلال وترفٍ، وكان أكبرَ أولاده، وكان أبوه من فتيان أُميَّة المعدودين، يحبُّ الغناء واللهو والعبث، وقد مرَّت معنا حكايتُه مع قَينتَيه حَبَابَةَ وسلامةَ، فليس بدعاً أن يرثَ الوليدُ عن والده يزيد اللَّهْوَ والعبثَ والمجونَ، بَعْدَمَا علقت أذناه السماعَ، وسكنت نفسُه إلى الرخاء والدعَة، ثم مات أبوه يزيدُ، والوليدُ لايزال فتىً، لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، في سنِّ الطيش والجهل والغرورِ[1]، فاندفع في السبيل الذي استنَّهُ له أبوه، فَلَهَا واستمعَ إلى الغناء، واستهْتَرَ ونادمَ الخُلَعاء، وشرِبَ الخمرَ وتهتَّكَ في حبِّ النساء،وزاد في الطين بِلّه أن اختار له أبوه عَبْدَ الصَّمد بن الأعلى الشيباني ليؤدِّبَهُ وينشئَهُ، وكان هذا سيِّءَ السيرة متَّهماً في دينه، فحمَّلَهُ الناسُ أكثرَ ماتورَّط به الوليدُ، أضف إلى ذلك صِحاب السُّوءِ كحمَّاد عجرد المشهور بخلاعته وفسقه[2].

وهكذا انطلق الوليدُ متأثِّراً بأبيه ومؤدِّبه وأصدقاءِ السوء ليحيا حياةَ المجون والترف، فانصرف إلى ملذّاته المتمثّلة بالخمرِ والغناء والصَّيدِ، فابتعدَ إلى قصره ببادية الأردنِّ، يستدعي إليه المغنين والمغنياتِ وآلاتِ اللهو والطرب من سائر أنحاء المملكة.

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٤٦٣/٢ .
(٢) الوفيات ٢١١/٢ .

وكان الوليد شجاعاً أبيّاً مترفعاً لمّاحاً سريعَ البديهة، لايسكتُ على الدنيَّة، فقد روى أنَّه دخل يوماً مجلس هشام بن عبد الملك، وقد كان في ذكره قبل أن يدخل، فحمَّقَهُ مَنْ حضر من بني أميَّة. فلمَّا جلس، قال له العبَّاسُ بن الوليد بن عبد الملك وعمر بن الوليد أخوه: كيف حبُّك ياوليدُ للروميَّات، فإن أباكَ كان بهنَّ مَشْغوفاً؟

قال: إني لأحبُّهُنَّ؛ وكيف لاأحبُّهُنَّ ولن تزالَ الواحدةُ منهنَّ قد جاءت بالهجين مثلكَ[1].

قال: اسكت فليس الفحل يأتي عسبه بمثلي[2].

فقال له الوليد: اسكت يابن البظراء! أتفخرُ عليَّ بما قُطِعَ من بظر أمِّك.

وأقبل هشام على الوليد فقال له: ماشرابُكَ؟

قال: شرابُكَ ياأمير المؤمنين! وقام مغضباً فخرج.

فقال هشام: أهذا الذي تزعمون أنه أحمقُّ! ما هو أحمق، ولكنّي لاأظنّه على المِلّة[3].

وروى المدائني قال: وبلغ الوليدَ أنَّ العبّاس بنَ الوليد بن عبد الملك وغيره من بني مروان، يَعيبونه بالشراب؛ فلعنهم وقال: إنَّهم يَعيبُون عليَّ ما لو كانت لهم فيه لذَّةٌ ماتركوه، وقال:

وَلَقَــدْ قَضَيْتُ ـ وَإِنْ تَجَلَّلَ لِمَّتِي شَيْبٌ ـ عَلَى رَغْمِ العِدَا لَـذَّاتي

(١) وقد كانت أم العباس هذا رومية الأصل.

(٢) العسب: طرق الفحل، وقيل ماء الفحل فرساً كان أو بعيراً، ويقال: قطع الله عسبه أي ماءه ونسله.

(٣) انظر الأغاني ٧/٤ ـ ٥ ز

مِنْ كَاعِبَاتٍ كَـالدُّمَى وَمَنَاصِفٍ وَمَـراكِبٍ للصَّيْـدِ وَالنَّشَـوَاتِ[1]
فِي فِتْيَـةٍ تَأْبَى الهَـوَانَ وَجُـوهُهُمْ شُمِّ الأُنُـوفِ جَحَاجِحٍ سَادَاتِ
إنْ يَـطْلُبُوا بِـتِرَاتِهِمْ يُعْـطُوا بِهَـا أَوْ يُطْلَبُوا، لا يُدْرَكُوا بِـتِرَاتِ[2]

ولقد ألمَّ الوليد بالمعاني الخمريّة التي طرقها شعراءُ العصر الجاهلي، وأوائل العصر الأمويِّ، فتحدَّث عن قِدم الخمرة، ولونها وشعاعها، وطيبها، وأثرِها في النفس، وأوقاتها، ووصفَ مجلسَها بندمائه وساقيه وآلاته وكؤوسه، كمثل قوله:

قُمْ فَاسْقِنِي قَبْلَ أَصْوَاتِ العَصَافِيرِ إنِّي أَرَى الصُّبْحَ قَدْ نَادَى بِتَبْشِيرِ
صَفْـرَاءَ مِنْ خَمْرِ بَـيْرُوتٍ مُعَتَّقَةً تَـرْمِي النَّـدَامَى بِتَخْشِـيرٍ وَتَفْتِـيرِ
سَقِّ النَّدِيمَيْنِ مِنْ كَأْسٍ لَهَا حَبَبٌ قَبْلَ الحُمَيَّا رهيناً غَيْرَ مَنْزُورِ[3]

وقال يخاطب ساقيه أنْ أدِرْ علينا الخمرة فقد طربنا، ولتكنْ خمرةٌ معتّقة كَدَمِ الخِشف:

إسْقِنَـا يَـا يَـزِيدُ بِـالقَرْقَـارَهْ قَـدْ طَرِبْنَـا وَحَنَّتِ الـزمَّـارَهْ
مِنْ شَرَابٍ كَـأَنَّـهُ دَمُ خِشْـفٍ عَـتَّقَـتْـهُ هَـشِـيـمَـةُ الخَـمَّـارَهْ[4]

وفي قصيدة أخرى يصف لنا جوهرَ الخمرِ التي تبدَّت في منظر عجب، فهي كالشررِ قبل المزج وكالذهبِ السائل بعد المزج، لذا فهي تشعشعُ أقباساً في أقداحها، فتزداد ضياءً في عيون المراقبين لها:

فَقَـدْ تَجَلَّتْ وَرَقَّ جَـوْهَـرُهَـا حَتَّى تَبَـدَّتْ فِي مَنْـظَرٍ عَجَبِ

---

(١) المناصف: المتوسطات من النساء بين الحداثة والكبر.
(٢) الترات: طلب الثأر.
(٣) الحبب: الفقاقيع التي تطفوا على سطح الخمر. الحميّا: سورة الخمر وشدتها، وقيل إسكارها وحدتها وأخذها بالرأس انظر شعر الوليد.
(٤) الخشف: ابن الغزال، انظر شعر الوليد ٦٨ .

فَهْيَ بِغَــيْرِ المِـزَاجِ مِنْ شَــرَرٍ   وَهْيَ لَدَى المَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَـأَنَّهَا فِي زُجَـاجِـهَــا قَــبَسٌ   تَذْكُو ضِيَاءً فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ[1]

وإضافة إلى هذه المعاني التقليديَّة المعروفة، فقد عبَّر الوليدُ عن آرائه في الحياة، وعدَّدَ ركائزَها، وذكرَ مستلزماتِها التي لاتعدو من وجهة نظره؛ النساءَ، والطلاءَ، والغناءَ، فالحياة إلى زوال، وليس بالمُلكِ والسلطانِ يحيا الإنسانُ، ولنا من مقولة طَرَفة إرهاصاً لقول الوليد الذي زاد فيه:

خُذُوا مُلْكَكُمْ، لا ثَبَّتَ اللهُ مُلْكَكُمْ   ثَبَـاتاً يُسـاوِي مَـاحَيِيتُ عِقَـالا[2]
ذَرُوا لِيَ سَلْمَى وَالـطِّلاءَ وَقَيْنَـةً   وَكَأْساً، أَلا حَسْبِي بِذَلِكَ قَـالا
أَبِا لْمُلْكِ أَرْجُو أَنْ أُعَمَّرَ فِيكُمُ؟   أَلا رُبَّ مُلْكٍ قَدْ أُزِيلَ فَـزَالا
أَلا رُبَّ دَارٍ قَـدْ تَحَمَّلَ أَهْلُهـا   فَـأَضْحَتْ قِفَـاراً وَالبِقَـاعُ تِـلالا

ولايكتفي الوليد بذكر فلسفته في الحياة عَرَضاً، بل يؤكِّدُها، باستمرار ويجعلها وُكْدَهُ في كل مرة، ويتمنَّى أن يكون حظَّهُ من هذه الدنيا خمرةً يبذل فيها قديمه وجديدَه، ويهيمُ بفعل حُمَيّاها في كلِّ وادٍ، ففي هذا صلاحُه ورشادُه:

لَـيْتَ حَـظِّي الـيَـوْمَ مِنْ كُـ   ـلِّ مَـعَــاشٍ لِي وَزَادِ
قَـهْـوَةٌ أَبْـذُلُ فِـيـهَـا   طَـارِفِي ثُـمَّ تِـلادِي[3]
فَـيَـظَـلُّ الـقَـلْـبُ مِـنْهَـا   هَـائِـمـاً فِي كُـلِّ وَادِي
إنَّ فِي ذَاكَ صَــلاحِـي   وَفَـلاحِـي وَرَشَــادِي

ولايفتأُ الوليدُ ينشرُ تهتُّكَهُ بصراحتِه المعهودة التي كثيراً ماأساءت إليه، وتهتُّكُه هذا يدورُ حول الطِلاء والغناء والنساء، ويقسم على ذلك، فيقول:

---

(١) شعر الوليد ١٧ .
(٢) عقالا، أو قبالا: والقبال: زمام النعل .
(٣) الطارف: المال المستحدث. والتلاد: المال الموروث.

أُحِبُّ الغِنَاءَ، وَشُرْبَ الطِّلاءِ   وَأُنْسَ النِّسَاءِ، وَرَبَّ السُّوَرْ
وَدَلَّ الغَوَانِي، وَعَرْفَ القِيَانِ   بِصَنْجٍ يَمَانٍ قُبَيْلَ السَّحَرْ

فإذا كان الوليد يتماجَنُ ويتعابَثُ، وينفقُ طارفَه وتليدَه فإنَّما يفعل ذلك ليحقِّقَ البهجةَ لروحه الحزينة، والمسرَّةَ لنفسه التي كانت تشعر أنَّ الموتَ والزوالَ آتيان، وأن داءَ الحياة لايمكن علاجُه إلا بالمسكِّنات. ويلتقي الوليدُ في آرائه هذه بالشاعر الجاهلي طَرَفَةَ بن العبد، واللذين سخرا من لوم اللائمين ورأيا في مذهب اللهو واللَّذة عاصِمًا لهما من الألم والقلق والضياع.

ويمثِّل هذا المذهب شخصيةَ طَرَفَةَ والوليد أصدق تمثيل بما يعكسه من ألم ناتج عن الواقع الحياتي الذي يعاني عقدةَ الاضطهاد، وثورةٌ ترفضُ هذا الواقعَ رفضاً سلبياً، قائماً على الهروب وتجنُّبِ المواجهة، نتيجةً للظلمِ. ودوافعُ كِلا الشاعرين واحدةٌ، والظلم والاضطهادُ واحد ذاكَ الذي عانى منه الشاعران، فقال طرفة: لولا ثلاثُ لذاتٍ في الحياة مااهتممْتُ بالموت يأتيني في أية ساعة:

وَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشَةِ الفَتَى   وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي[1]
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي العَاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ   كُمَيْتٍ مَتَى مَاتُعْلَ بِالمَاءِ تُزْبِدِ[2]
وَكَرِّي إِذَا نَادَى المُضَافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا - نَبَّهْتَهُ - المُتَوَرِّدِ[3]
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ

فالشاعران عانيا من ظُلمِ العمِّ، ورأيا أنَّهما مُنِعَا من ميراثِ الأب، فَكان

---

(١) الجد: الحظ والجمع جدود. العوَّد: جمع عائد من العياة أثناء المرض.
(٢) سبقي العاذلات بشربة: مباكرته شرب الخمرة قبل انتباه العواذل. الكمت: الحمراء المائلة للسوداء.
(٣) المضاف: الخائف المذعور. والمضاف: الملجأ أيضاً. المحنب: الذي في يه انحناء. السيد: الذئب. الغضا: نوع من الشجر.

لذلك فِعْله في نفسيهما، إذ دفعهما إلى الارتماء في أحضان الملذات والملاهي، ينشدان فيها التعويضَ عن مشاعر الغبنِ والاجحاف بمشاعر الزهو والخيلاء التي تُخلِّفُها مجالسُ الخمر في النفس، يقول طرفة:

وَمَا زَالَ تَشْرَابي الخُمُورَ وَلَـذَّتي   وَبَيْعي وَإِنْفَـاقي طَريفي وَمُتْلَدِي
كَـريمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حَيَـاتِـهِ   سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنَا غَداً، أيُّنا الصَّدي
أرَى العَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ   وَمَا تَنْقُصِ الأيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنفَـد

وهكذا كان الوليدُ يهربُ إلى الخمرةِ واللهو علَّه يجدُ فيهما دواءً يستعينُ به على خصومه الذين أفسدوا عليه حياتَه بافتراءاتِهم ومؤامراتِهم ولومهم، فهو لذلك يتداوىٰ بخمرِها، ويغيظُ من يحاولون الحِفاظَ على سمعتهم لكونهِ واحداً منهم، وعلى حساب عمرهِ وحياتِهِ، فينصرفُ إليها ويُتهَّم بتعاطيها، ويكايدُهم بإشهارِ استهتاراتِه فيقول:

إِذَا لَمْ يَكُنْ خَيْرٌ مَعَ الشَرِّ لَمْ تَجِدْ   نَصيحاً وَلاذَا حَاجَةٍ حينَ تَفْزَعُ
وَكَانُوا إذَا نَصحُوا بِإحْدَى هَنَاتِهِم   حَسَرْتُ لَهُمْ رَأْسي فَلا أَتَقَنَّـعُ(١)

ونراه يخاطب اللائمين بقوله:

أَقْصِـدَا عَنْ مَـلامَتي عَـاذِلَيَّـا   إنَّ عَـذْلي يـزَيـدُني اليَـوْمَ غِيَّـا

ويتحدَّى قومه محاولاً إغاظتهم بلهوه وعبثه وسكره فيقول:

أَصْـبَـحَ اليَـوْمَ وَلِـيـدُ   هَـائِـمـاً بِـالـغَـانِـيَـاتِ
عِـنْـدَهُ طَـاسٌ وَإبـريـــ   ـــقٌ وَرَاحٌ بِـالـفَـلاةِ
إبْـعَـثُـوا خَـيْـلاً لِخَيْـلٍ   وَرُمَــاةً لِـرُمَــاةِ

ومرَّة أخرى يسخر من أمِّ حكيم زوج هشام، ويتهِّمهما بشرب الخمر-

---

(١) الأغاني ٧/٢١ .

الرساطون ـ صرفا، مالو شربه الفيل أو البعير لسكر وغرق في غمٍّ عميق:

إنَّ كَأْسَ العَجُوزِ كَأْسٌ رُوَاءٌ لَيْسَ كَأْسٌ كَكَأْسِ أُمٍّ حكيمِ
إنَّهَا تَشْرَبُ الرَسَاطُونَ صِرْفاً في إنَاءٍ مِنَ الزُّجَاجِ عَظيمِ
كَوْبِهِ يَشْرَبُ البَعيرُ أو الفيـ ـلُ لَظَلَّا في سَكْرَةٍ وَغُمُومِ

ويبدو أن أمَّ حكيم زوجة عمِّه هشام، كانت تسلقه بلسانها وانتقاداتها، فإذا لم يشف غليله منها بأبياته السابقة، هاجمها بأخرى، فيقول:

عَلِّلاني بِعَاتِقَاتِ الكُرُومِ وَاسْقِيَاني بِكَأْسِ أُمِّ حَكيمِ
إنَّهَا تَشْرَبُ المُدَامَةَ صِرْفاً في إنَاءٍ مِنَ الزُّجَاجِ عَظيمِ
جَنِّبُوني أذَاةَ كُلِّ لئيمٍ إنَّهُ مَاعَلِمْتُ شَرُّ نَديمِ
ثُمَّ إنْ كَانَ في النَّدَامَى كَريمٌ فَأذيقُوهُ مَسَّ بَعْضِ النَّعيمِ

ثم يخاطب اللائمين حاملاً على جهلهم وغبائهم، فهو لايطلب من الدنيا بشراً غير حبيبته سلمى، فيقول:

لَيْتَ حَظِّيٌ مِنَ النِّسَاءِ سُلَيْمَى إنَّ سَلْمَايَ جَنَّتي وَنَعيمي
فَدَعُوني مِنَ المَلامَةِ فيهَا إنَّ مَنْ لا مَني لَغَيْرُ حَكيمِ

وقال في مسلمة بن هشام وأمّه أمّ حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي، وكان يكنى أبا شاكر، حينما سأله هشام: ليت شعري مادينك، أعلى الإسلام أنت أم لا؟ فكتب إليه الوليد:

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ دِينِنَا نَحْنُ عَلَى دِينِ أَبِي شَاكِرِ
نَشْرَبُهَا صِرْفاً وَمَمْزُوجَةً بِالسُّخْنِ أَحْيَاناً وَبِالفَاتِرِ

وهكذا جعل الوليدُ شعرَه الخمريَّ لوحةً ملوَّنةً، رسم فيها كلَّ مايتَّصل بالخمر من ندماءَ ومغنين وآنية وساقيات، وسِجِلاً أمينا لمذهبه في الحياة، وآرائه

المتعلّقة بحقيقة السعادة، ومعرضاً زاخراً بشتى أنواع العواطف التي تتراوح بين الحبِّ الحارق والحقد القاتل. وربّما صحَّ مانسبوه إليه من شعرٍ في الزندقة، فإنْ صحَّ ذلك فإنه يكون قد سبق عمرَ الخيام إلى الشكِّ والريبة في الخالق ويوم الحساب، يقول:

تَلَعَّبَ بِالخِلافَةِ هاشِمِيٌّ ... بِلا وَحْيٍ أَتاهُ وَلا كِتابِ
فَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُني طَعامِي ... وَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُني شَرَابِي
يُذَكِّرُني الحِسَابَ وَلَسْتُ أَدْرِي ... أَحَقّاً مَا يَقُولُ مِنَ الحِسَابِ؟

وقد ذهبَ إلى أبعدَ من ذلك فقد رُويَ أنَّ الوليد بن يزيد دعا ذات ليلة بمصحف ، فلمّا فتحت وافق فتحه ورقة فيها : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾(١).

فقال: أَسَجْعاً سَجْعاً! علّقوه. ثم أخذَ والقوسَ والنبلَ فرماه حتى مزّقه، ثم قال:

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدِ ... فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدُ
إِذَا لاقَيْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ ... فَقُلْ لِلَّه مَزَّقَني الوَلِيدُ

قال : فما لبث بعد ذلك إلّا يسيرا حتى قُتلَ .(٢) ونحن طبعاً لا نأخذُ بهذه الرواية ولا نصدِّقها لأسبابٍ كثيرة أشرنا إليها في موضعها من هذا الكتاب .

لقد منحَ اللهُ الوليدَ بن يزيد عبقرية فذَّةً كما لم تمنح لخليفة لا قبلَه ولا بعدَه ، ولكن الأقدارَ شاءت لهذه العبقرية أن تتّجه هذا الاتجاه العابثَ نتيجة للاضطهاد الذي عاناه من عمِّه الخليفة هشام بن عبدالملك ، وربّما كان ذلك أيضاً سبباً ليكون

---

(١) انظر السورة ١٤ سورة إبراهيم الآية ١٥ .
(٢) انظر الأغاني ٤٩/٧ .

الوليدُ أوّل من يشقُّ طريقاً جديداً في الخمريات في ذلك العصر ، ويذلِّلُ مسالكه لمن سيأتي بعده في العصر العباسي فيما بعد من أمثال أبي نواس وأضرابه من شعراء الخمر في العصر العباسي . وقد أشاد أبو الفرج الأصبهاني بخمريّات الوليد وعدّه أستاذاً فيها تأتمُّ من بعد الشعراء به ، فقال : «وللوليد أشعار جياد فوق هذا الشعر . . فمنها وهو ما برز فيه وجوّده وتبعه الناس جميعا فيه ، وأخذوه منه ، قوله في صفة الخمر . . . «اصْدَعْ نجيَّ الهُمومِ بِالطَّرَبِ» وقال أيضاً : وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعارٌ كثيرة قد أخذها الشعراءُ فأدخلوها في أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصّة ، فإنّه سلخ معانيَه كلَّها وجعلَها في شعره ، فكرَّرها في عدَّة مواضع منه . [1] وانظر الى قوله لترى الرقة والعذوبة والسهولة والموسيقى تعبقُ فيها :

امْـدَحِ الكَـأْسَ وَمَنْ أَعْمَلَهَـا ... وَاهْـجُ قَـوْمـاً قَتَلُونَـا بِـالعَـطَشْ
إِنَّمَـا الـكَـأْسُ رَبِـيـعٌ بَـاكِـرٌ ... فَـإِذَا مَـا لَمْ نَـذُقْهَـا لَمْ نَعِشْ

وكان الوليد يكثر من زيارة الأديرة لتعاطي الشراب فيها ، والنهل من خمورها المعتّقة ، ولم يفته في كلِّ مرَّة زارَها أن يصف مجالسَه فيها ، فقد روي أنه زار دير «يونا» وبعد أن قضى وطرَه فيه ، راح يصف لنا هذه الزيارة ويغري بزيارتها حيث عاقرَ فيها لذيذ الشراب واستمع خيرَ الغناء ، ووصف لنا كيف كانت تُدار عليهم قوارير الخمر الزجاجيّة فيكرعونها ويسكرون من خمرها حتى يظنَّ الجاهلون أنهم جنّوا لشدَّة سكرهم ، ثم مرّوا بنسوة جذبتهم إليهنَّ روائحهنَّ العطرة ، وغناؤهنّ الجميلَ وخمرتهنّ المغرية فنزلوا بهنّ وسكروا حتّى جعلوا خليفةَ الله فطروسا مجنوناً وجعلوا مستشاره يوحنا ، وعرف الناسُ كلَّ هذا عنهم :

حَبَّـذَا لَيْـلَتِي بِـدَيْـرِ يُـونَـا ... حَيْثُ نُسْقَـى شَرَابَنَـا وَنُـغَـنَّى

(١) انظر الأغاني ١٨/٧ - ٢٠ .

كَيْفَ ما دَارَتِ الزُّجَاجَةُ دُرْنَا يَحْسَبُ الجَاهِلُونَ أَنَّنَا جُنِنَّا
وَمَرَرْنَا بِنُسْوَةٍ عَطِرَاتٍ وَغِنَاءٍ وَقَهْوَةٍ فَنَزَلْنَا
وَجَعَلْنَا خَلِيفَةَ اللهِ فَطْرُوساً مَجْنُوناً ، وَالْمُسْتَشَارَ يُحَنَّا
فَأَخَذْنَا قُرْبَانَهُمْ ثُمَّ كَفَرْنَا لِصُلْبَانِ دَيْرِهِمْ فَكَفَرْنَا
وَاشْتَهَرْنَا لِلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُونَ إِذَا أُخْبِرُوا بِمَا قَدْ فَعَلْنَا

وكان يقصدُ مواطنَ الخمرة في كلِّ مكانٍ وجدت فيه ، فقد روى صاحبُ الأغاني قوله: خرج عبدُ الوهاي بن إبراهيم الإمام يوماً إلى بعضٰ الأديرة فنزل فيه وهو والٍ على الرملة ، فسأل صاحبَ الدير : هل نزل بك أحد من بني أمية ؟

قال : نعم ، نزل بي الوليد بن يزيد ومحمّد بن سليمان بن عبدالملك .

قال : فأي شيء صنعا ؟

قال : شربا في ذلك الموضع ، ولقد رأيتهما شربا في آنيتهما ، ثم قال أحدهما لصاحبه : هلم نشرب بهذا الجرن[1] ـ وأومأ إلى جرن عظيم من رخام ـ قال : أفعل . فلم يزالا يتعاطيانه بينهما ويشربان حتى ثملا .

فقال عبدالوهاب لمولى له أسود : هاته .

قال ضمرة الراوي : وقد رأيته وكان يوصف بالشدة ، فذهب يحرِّكه فلم يقدر .

فقال الراهب : والله لقد رأيتهما يتعاطيانه ، وكلٌّ واحد منهما يملؤه لصاحبه ، فيرفعه ويشربه غير مكترث .[1]

وقال : ومما يُغَنَّى من خمرياته ، قوله :

اسْقِنِي يا ابْنَ سَالِمٍ قَدْ أَنَارَا كَوْكَبُ الصُّبْحِ وَانْجَلَى وَاسْتَنَارا

---

(١) انظر الأغاني ٢٣/٧ ـ ٢٤ .

اسْقِنِي مِنْ سُلَافِ رِيقِ سَلْمَى وَاسْقِ هَذَا النَّدِيمَ كَأْساً عُقَارا[١]

وقال يزيد بن أبي مساحق السُّلمي مؤدب الوليد شعراً ، وبعث به إلى النوار جارية الوليد ، فغنته به ، وهو :

مَضَى الخُلَفَاءُ بِالأَمْرِ الحَمِيدِ وَأَصْبَحَتِ المَذَمَّةُ لِلْوَلِيدِ

تَشَاغَلَ عَنْ رَعِيَّتِهِ بِلَهْوٍ وَخَالَفَ فِعْلَ ذِي الرَّأْيِ الرَّشِيدِ

فكتب إليه الوليد يعرب عن أمانيه في الحياة ، والتي تتلخَّصُ بشربِ الخمرة وإفناءِ طارِفه وتليدِه في شربها ، وهذا وحدَه ما يشغَلُه ويهمُّه ، ويتمنى أن يشربَها ويهيمَ في كل وادٍ ، فقال :

لَيْتَ حَظِّي اليَوْمَ مِنْ كُلِّ مَعَاشٍ لِي وَزَادِ

قَهْوَةٌ أَبْذُلُ فِيهَا طَارِفِي ثُمَّ تِلَادِي[٢]

فَيَظَلُّ القَلْبُ مِنْهَا هَائِماً فِي كُلِّ وَادِ

إِنَّ فِي ذَاكَ صَلَاحِي وَفَلَاحِي وَرَشَادِي[٣]

ولقد ساهم الوليدُ بن يزيد في دفع حركة الغناء في العصر الأموي دفعاً حثيثاً ، بما نظمه من شعرٍ للمغنين والمغنيّات ، وجمعِه لكوكبةٍ منهم حوله في حلِّه وترحاله ، واستقدامِه لهم من كلِّ الجهات . وهو نفسه كان يضربُ بالعود ، ويوقِّع بالطبل ، ويمشي بالدُفِّ على مذهب أهلِ الحجاز ، وبلغ مرحلة متقدِّمة في ذلك ، فكان يصنعُ الألحان بنفسه ويدمدمُ بها ، وهذا يحدث لأوَّل مرةٍ في تاريخ الشعراء والخلفاء والملوك ، وكثيرةٌ أشعاره التي غنَّى بها المغنون ، من مثل قوله :

وَصَفْرَاءَ فِي الكَأْسِ كَالزَّعْفَرَانِ سَبَاهَا التُّجَيْبِيُّ مِنْ عَسْقَلَانِ[٤]

(١) السلاف : الخمر المعتقة . والعقار : الخمر أيضاً .

(٢) القهوة : اسم من أسماء الخمرة .

(٣) الأغاني ٧/٧٠ .

(٤) سباها الدهاقين من عسقلان كما في العقد الفريد ٤/٤٥٩ .

تُـريكَ القَـذَاةَ وَعَـرْضَ الإنَـا ءِ سِـتْرٌ لَهَا دُونَ لَمْسِ البَنَـانِ
لَهَـا حَـبَـبٌ كُـلَّمَا صُـفِّـقَـتْ تَـرَاهَـا كَـلَمْعَـةِ بَـرْقٍ يَمَـانِ

«ومن هنا فهو بحقٍّ مؤسِّسُ الغناءَ في المدرسة الشاميَّة ذلك العصر» وقد كرَّس أكثرَ شعره لمجالسِ الغناء ، أو وصفِ اللهو والعبث والمجون والخمر . وله شعرٌ في ضروب المُزاح والتندُّر والفُكاهةِ ، وهي خِلال تنسجمُ مع خطِّ سير حياته ، بل هي طبعٌ من طباعه ، حتى إنَّه دعا بالإضافة إلى المغنيَّات والمغنِّين ، أصحابَ النوادرِ والمضحكين ، فحملَ إليه شُراعة بن الزندبوذ الماجن وطلبه الفُتْيَا منه في الشراب والمجالس [١] ، وحمل إليه أشعب الشهير وقد مرَّت معنا قصَّة إرساله برسالة إلى سعدى ، فلما صار عنده ألبسه سراويل من جلد قردٍ له ذنبٌ وجعله يرقص ويغنِّي له [٢] . ولعلَّه بذلك سبق جميعَ الملوكِ في استحضار المضحكين إلى قصورهم . وكان أبو كامل مغنيَّه من أصحاب النوادر أيضاً ، وكان يلازمه ويغنِّيه بشعره ، ويمتِّعه بنوادره ، وقد قال الوليد فيه :

مَـنْ مُبْـلِغٌ عَنِّي أَبَـا كَـامِـلِ أَنِّيَ إذَا مَـا غَـابَ كَـالهَـابِـلِ
وَزَادَني شَـوْقَـاً إلى قُـرْبِـهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ دَهْرِنَا الحَائِلِ
إنِّي إذَا عَـاطَـيْـتُـهُ مُـزَّةً ظِلْتُ بِيَـوْمِ الفَـرَحِ الجَـاذِلِ [٣]

ولعلَّه لم يجتمع عند أمير أو عند ملك في مثل تلك الحقبة القصيرة من ملكه مثل ما اجتمع عند الوليد من المغنينَّ ، وقد ذكر الرواة أسماء نفر من هؤلاء كانوا أشهر المغنينَّ في التاريخ العربي على الإطلاق ، منهم : ابن سريج والغريض [٤]

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٥٧ .
(٢) انظر الأغاني ٧/٤٦ والعقد الفريد ٤/٤٥٨ .
(٣) العقد الفريد ٤/٤٥٧ وديوان الوليد صفحة ٥١ .
(٤) الأغاني ٧/٥٦ .

وابن عائشة ومعبد (١) والأبجر (٢) .

وله وقائع ومجالس مع المغنين عمر الوادي ، ومالك بن أبي السمع ، وعطرد ، ودحمان ، وحكم الوادي ، وأبي كامل ، وقيل ، وخالد صامه وغيرهم . وكان الوليد يصف لنا هذه المجالس ، ويذكر أسماء بعض هؤلاء المغنينّ في أشعاره التي حفظها لنا ديوانه . فقد قال في أبي كامل ومعبد شعراً ترى فيه نفسَ المُلوكِ وهيبتَهم ، كقوله :

سَقَيْتُ أَبَا كَامِلٍ   مِنَ الأَصْفَرِ البَابِلِي
وَسَقَّيْتُهَا مَعْبَداً   وَكُلَّ فَتىً فَاضِلِ
لِيَ المَحْضُ مِنْ وُدِّهِمْ   وَيَغْمُرُهُمْ نَائِلي
فَمَا لاَمَنِي فِيهِمْ   سِوَى حَاسِدٍ جَاهِلِ

وقال في عمر الوادي كثير ، فمما قاله :

إِنَّني فَكَّرْتُ في عُمَرٍ   حِينَ قَالَ القَوْلَ فَاخْتَلَجَا
إِنَّهُ لِلْمُسْتَنِيرِ بِهِ   قَمَرٌ قَدْ طَمَسَ السُّرُجَا
وَيُغَنِّي الشِّعْرَ يَنْظِمُهُ   سَيِّدُ القَوْمِ الَّذي فَلَجَا
أَكْمَلَ الوَادِيُّ صَنْعَتَهُ   في لُبَابِ الشِّعْرِ فَانْدَمَجَا (٣)

ويعدُّ الوليد صاحبَ فن الخمريات في الشعر العربي ، وهو الذي نَهَّجَ للشعراء العباسيين أمثال أبي نواس طُرقَها ، وذلَّلَ لهم مسالكَها ، ورسم لهم صورَها ، ووقَّع لهم أنغامها ، فكانوا جميعاً عالةً عليه ، وها هو يَسْتَنُّ لهم قانونَ الخمرة وتعاطيها ليقتدوا به ، فيقول :

(١) العقد ٤/٤٥٥ .
(٢) انظر الأغاني ٣/٣٤٥ .
(٣) الأغاني ٧/٨٥ .

اصْدَعْ نَجِيَّ الهُمُومِ بِالطَّرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ العِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ العَيْشَ في غَضَارَتِهِ لَا تَقِفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الحِقَبِ
أَشْهَى إلى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلْوَتِهَا مِنَ الفَتَاةِ الكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقَّ جَوْهَرُهَا حَتَّى تَبَدَّتْ في مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بِغَيْرِ المِزَاجِ مِنْ شَرَرٍ وَهِيَ لَدَى المَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَنَّهَا في زُجَاجِهَا قَبَسٌ تَذْكُو ضِيَاءً في عَيْنِ مُرْتَقِبِ
في فِتْيَةٍ مِنْ بَني أُمَيَّةَ أَهْـ ـلِ المَجْدِ وَالمَأْثُرَاتِ وَالحَسَبِ
مَا في الوَرَى مِثْلُهُمْ وَلَا فِيهِمُ مِثْلي ، وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبي (١)

وهو أوّل من راح ينثر الدُعابةَ في شعره ، ويُوشي خمرياته بالعبثِ ، لأنَّ الحياة برأيه جديرةٌ بالسخرية والشراب والمجون ، ضارباً عرضَ الحائط بقيم الناس ومعتقداتِهم ، فعتّقَ القولَ في صفات الخمر :

أَدِرْ الكَأْسَ يَمِينًا وَلَا تُدِرْهَا لِيَسَارِ
اسْقِ هَذَا ثُمَّ هَذَا صَاحِبَ العُودِ النُّضَارِ
مِنْ كُمَيْتٍ عَتَّقُوهَا مُنْذُ دَهْرٍ في جِرَارِ
خَتَمُوهَا بِالأَفَاوِيـ ـةِ وَكَافُورٍ وَقَارِ (٢)
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
سَأَرُوضُ النَّاس حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الحِمَارِ
وَذَرُوا مَنْ يَطْلُبُ الجَنَّـ ـةَ يَسْعَى لِتَبَارِ (٣)

---

(١) انظر الأغاني ١٩/٧ .
(٢) الأفاوية : نوع من الطيب المشهي .
(٣) التبار : الهلال ، انظر اختلاف رواية الأبيات في الأغاني ٤٦/٧ خاصة البيت قبل الأخير .

وكان ينفعلُ أمام مرأى الخمرة انفعالَ العاشق أمام معشوقتِه الجميلة الكريمة النسب ، ومن هنا كانت تشيعُ في شعرِه وخمرياته رائحةُ الفُكاهَةِ ، وروحُ المرح ، وخفقاتُ الطرب ، فاستمعْ إليه في قوله في هذه القطعة الرائعةِ حيث تطفُو على حروفها نسائمُ روحِه المتفتِّحة للحياة :

عَــلِّلاَني وَاسْــقِــيَــاني ... مِــنْ شَرَابٍ أَصْــبَــهَــاني
مِنْ شَرَابِ الشَّيْخِ كِسْرَى ... أَوْ شَرَابِ الــقَــيْرَواني [1]
إنَّ في الـكَــأْس لَمِسْكــاً ... أَوْ بِكَــفَّي مَنْ سَقَــاني
أَوْ لَقَــدْ غُــودِرَ فِــيهَــا ... حِينَ صُبَّتْ في الــدِّنَــانِ
كَــلِّلاَنــي تَــوِّجَــانــي ... وَبِــشِــعْــرِي غَــنِّــيَــاني
أَطْــلِقَــاني بِــوَثَــاقــي ... وَاشْــدُدَاني بِــعِــنَــاني
إنَّمَــا الــكَــأْسُ رَبِــيــعٌ ... يُــتَــعَــاطَــى بِــالــبَــنَــانِ
وَحُمَــيَّــا الـكَــأْسِ دَبَّــتْ ... بَــيْــنَ رِجْــلِي وَلِــسَــاني

جـ - أغراضه الشعرية الأخرى ..

طرق الوليدُ بن يزيد معظمَ الفنون الشعرية التي مسَّتْ قلبَه وجوارحَه ، من هجاءٍ وفخر ورثاءٍ ووصف ، وأكثرَ في الغزل والخمر .

- أمَّا مراثيه في سلمى فقد مرَّ معنا ما فيه الكفاية ، وله في رثاء ابنٍ له يقال له مؤمن ما يدلُّ على عاطفةٍ جيَّاشة صادقة ، فقد وردَ نبأُ وفاته وهو في رحلة صيد فلم يقدر أن ينعاه إليه ، حتَّى ثمل ، فنعاهُ إليه سِنان الكاتب ، وكان مغنيًّا ، ومما قاله الوليد في رثائه :

أَتَــاني سِنَــانٌ بِــالــوَدَاع لِمُؤْمِنٍ ... فَقُلْتُ لَهُ : إنيِّ إلىٰ الله رَاجعُ

---

(١) أو شراب الهرمزاني العقد ٤/٤٥٨ .

أَلَا أَيُّهَا الحَانِي عَلَيْهِ تُرَابَهُ هُبِلْتَ ، وَشَلَّتْ مِنْ يَدَيْكَ الأَصَابِعُ
يَقُولُونَ لَا تَجْزَعْ وَأَظْهِرْ جَلَادَةً فَكَيْفَ بِمَا تُحْنَى عَلَيْهِ الأَضَالِعُ

ونام الوليد بعد مجلس شراب وأفاق ، وسأل عن نديمه ابن الطويل ، فقيل له انصرف . فغضب وقال وهو سكران لغلامٍ كان واقفاً على رأسه يقال له سَبْرَةُ : ائتني برأسه ، فمضى الغلامُ حتى ضربَ عنقه ، وأتاه برأسه فجعله في طست بين يديه . فلما رآه أنكره وسأل عن الخبر فَعُرِّفَهُ ، فاسترجعَ وندمَ على ما فرَّط منه ، وجعلَ يقلِّبُ الرأس بيده ، ثم قال يرثيه :

عَيْنَيَّ لِلْحَدَثِ الجَلِيلِ جُودَا بِأَرْبَعَةٍ هُمُولِ[1]
جُودَا بِدَمْعٍ إِنَّهُ يَشْفِي الفُؤَادَ مِنَ الغَلِيلِ
للهِ قَبْرٌ ضُمِّنَتْ فِيهِ عِظَامُ ابْنِ الطَّوِيلِ
مَاذَا تَضَمَّنَ إِذْ ثَوَى فِيهِ مِنَ اللُّبِّ الأَصِيلِ
قَدْ كُنْتَ آوِي مِنْ هَوَا كَ إِلى ذُرَى كَهْفٍ ظَلِيلِ
أَصْبَحْتُ بَعْدَكَ وَاحِداً فَرْداً بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

وشعرُ الرثاءِ عند الوليد على العموم صادقُ العاطفة ، قويُّ النبرات ، يتَّسمُ بشيءٍ من التهويل والمبالغة ، وقال معظمَه إثر موت محبوبته سلمى التي قضت بعد زواجه منها بأيَّام قليلة ، ويبدو في رثائه لها يائساً لفقدِها ، ذاكراً لعهدِها ، معدداً ما كانت تتصَّف به من حسبٍ ومجدٍ ومكارم وجمال ، ويشبهها بجنَّةٍ أثمرتْ أفنانُها ، ولكنَّ الخريف فاجأها فنثرَ ثمارَها ، يقول :

يَا سَلْمَ كُنْتِ كَجَنَّةٍ قَدْ أَطْمَعَتْ أَفْنَانُهَا ، دَانٍ جَنَاهَا مُوضِعُ
أَرْبَابُهَا شَفَقاً عَلَيْها نَوْمُهُمْ تَحْلِيلُ مَوْضِعُهَا وَلَمَّا يَهْجَعُوا

(١) الأربعة : يعني بها اللحاظين والمؤقين ، لأن الدمع يجري من المؤقين فإذا غلب وكثر جرى من اللحاظين أيضاً .

حَتّى إِذَا فَسَحَ الرَّبِيعُ ظُنُونَهُمْ   نَثَرَ الخَرِيفُ ثِمَارَها فَتَصَدَّعُوا

ورثى الوليد عمَّهُ مَسْلَمَةَ بن عبد الملك في مقطوعتين ، رثاءً حاراً ، فقد كان يحبُّهُ ويحترمه لوقوفه في صفِّه ، ودفاعه عنه عندَ هشام ، وكان فارسَ بني أمية بلا منازع ، فلا غَرْوَ إنْ وجدناه يعدِّد مآثرَه ، ويذكر خصاله الحميدة ، ويتفجَّع لفقده وهو العزيز في قومه ، الشجاع في حربه ، الرؤوف باليتامى والمساكين ، وتراه يعقِدُ المقارنة بينه وبين زُعماءِ بني أمية الآخرين ، ويعرِّض بيزيدَ بن الوليد «السقيمِ الصدرِ» وبهشام «الشكسِ النكِد» وبمروانَ الذي «لا يزورُ ولا يزارُ» وقد مرت هذه القصيدة في الصفحة (١٤٩) ، ومن أقواله في عمّه مَسْلَمَةَ :

فَقَدْ كُنْتَ نوراً لَنَا في البِلَادِ   تُضيءُ ، فَقَدْ أَصْبَحت مُظْلِمَةْ
كَتَمْنَا نَعِيَّكَ نَخْشَى اليَقِينَ   فَجَلَّى اليَقِينُ عَنِ الجَمْجَمَةْ
وَكَمْ مِنْ يَتيمٍ تَلَافَيْتَهُ   بِأَرْضِ العَدُوِّ وَكَمْ أَيِّمَةْ
وَكُنْتَ إِذَا الحَرْبُ دَرَّتْ دَماً   نَصَبْتَ لَهَا رَايَةً مُعْلَمَةْ

ـ وله في الوصف قصائد كثيرة ، فيروى أن الوليد خرج بتصيُّد وحدَه ، فانتدب إليه مولىً لهشام يريد الفتك به ، فلما بَصُرَ به الوليد ، حاوله فقهره بفرسه الذي كان تحته فقتله ، وفي ذلك يقول :

أَلَمْ تَرَنِي بَيْنَ مَا أَنَا آمِنٌ ؟   يَخُبُّ بِيَ السِّنْدِيُّ قَفْراً فَيَافِيَا(١)
تَطَلَّعتُ مِنْ غَوْرٍ فَأَبْصَرْتُ فَارِساً   فَأَوْجَسْتُ مِنْهُ خِيفَةً أَنْ يَرَانِيَا
وَلَمَّا بدا لي أَنَّمَا هُوَ فَارِسٌ   وَقَفْتُ لَهُ حَتَّى أَتَى فَرَمَانِيَا
رَمَانِي ثَلاثاً ثُمَّ إِنِّي طَعَنْتُهُ   فَرَوَّيْتُ مِنْهُ صَعْدَتِي وَسِنَانِيَا

وقال الوليد في مناسبة أخرى يصفُ فرسَه السنديَّ :

---

(١) السندي : اسم فرس الوليد .

قَدْ أَغْتَدِي بِذِي سَبيبٍ هَيْكَلِ مُشَرَّبٍ مِثْلِ الغُرابِ أَرْجَلِ[1]
أَعْدَدْتُهُ لِحَلبَاتِ الأَحْوَلِ وَكُلِّ نَقْعٍ ثَائِرٍ لِجَحْفَلِ[2]
وَكُلِّ خَطْبٍ ذِي شُؤُونٍ مُعْضِلِ

- وأمّا فخر الوليد ، فهو من الشعر الجيّد ، لأنه يصدر عن صدق ، ويعبّر عن أعمق المشاعر ، لذا يبدو شديدَ الأسر ، جَزْلاً لا يختلف عن شعر الفحول في العصر الأمويّ ، من ذلك فخره بنفسه ، ثم بقومه ، يقول :

أَنَا الوَليدُ أَبُو العَبَّاسِ قَدْ عَلِمَت عُلْيَا مَعَدٍّ مَدَى كَرِّي وَإِقْدَامي
إِنِّي لَفِي الذُّرْوَةِ العُلْيَا إِذَا نُسِبُوا مُقَابَلٌ بَيْنَ أَخْوَالي وَأَعْمَامِي
بَنَى لِيَ المَجْدَ بَانٍ غَيْرُ مُدَّرَكٍ عَلَى مَنَارٍ مُضيئَاتٍ وَأَعْلَامِ
خُلِقْتُ مِنْ جَوْهَرِ الأَعْيَاصِ قَدْ عَلِمُوا في بَاذِخٍ مُشْمَخِرِّ العِزِّ قُمْقَامِ
صَعْبِ المَرَامِ يُنَاغي النَّجْمَ مَطْلَعُهُ يَسْمُو إلىٰ فَرْعِ مَجْدٍ شَامِخٍ سَامِ[3]

وله في الفخر قصائدُ كثيرةٌ مرَّ بعضُها معنا في التعريف به ، ومن أجود أشعاره في الفخر ، والتي تُضاهي أكرمَ ما قيل في هذا الموضوع ، قوله :

وَنَحْنُ المَالِكُونَ النَّاسَ قَسْراً نَسُومُهُمُ المَذَلَّةَ والنَّكَالاَ
وَطِئْنَا الأَشْعَرِيْنِ بِعِزِّ قَيْسٍ فَيَالَكِ وَطْأَةً لَنْ تُسْتَعَالاَ[4]

والوليد في فخره يتعالى على هشام بن عبد الملك ، في احتماله وشجاعته فيقول :

---

(١) الأحول : يريد به الخليفة هشام بن عبد الملك عمه .
(٢) المشرّب : المزوج لونه بحمرة. الأرجل من الخيل : الذي في إحدى رجليه بياض ، والرجل مكروه في الخيل ، إلّا أن يكون به وضحٌ غيره .
(٣) انظر ديوان الوليد صفحة ٩٠ .
(٤) انظر ديوان الوليد صفحة ٥٠ .

إذَا لَمْ يَكُنْ خَيْرٌ مَعَ الشَرِّ لَمْ تَجِدْ   نَصيحاً ولاَ ذا حَاجَةٍ حينَ تفْزَعُ
إذَا مَا هُمُ هَمُّوا بِإحْدَى هَنَاتِهِمْ   حَسَرْتُ لَهُمْ رأْسي فَلاَ أَتَقَنَّعُ

ويفخر بقوته وأجداده وأهله ولاسيّما من يمتُّ منهم بصلة القربى إلى البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ، الأمر الذي يجعله يعتبر «نبي الهدى» خاله ، فيقول :

أَنَا ابْنُ أَبِي العَاصي وَعُثْمَانُ وَالدي   وَمَرْوَانُ جَدِّي ذُو الفَعَالِ وَعَامِرُ
أَنَا ابْنُ عَظيمِ القَرْيَتَيْنِ وَعِزِّهَا   ثَقيفٌ وَفِهْرٌ وَالرِّجَالُ الأَكَابِرُ
نَبِيُّ الهُدَى خَالي وَمَنْ يَكُ خَالُهُ   نَبِيَّ الهُدَى يَعْلُ الوَرَى في المَفَاخِرِ

ـ وفي باب العتاب له قصائد فذّةٌ، لأن لها صلةً بحالته النفسية، وقد وصف أبو الفرج أبياته التالية التي قالها يُعاتب هشامَ بن عبد الملك ، بأنّها من نادرِ شعره :

فَإنْ تَكُ قَدْ مَلِلْتَ القُرْبَ مِنِّي   فَسَوْفَ تَرَى مُجَانَبَتِي وَبُعْدي
وَسَوْفَ تَلُومُ نَفْسَكَ إنْ بقينَا   وَتَبْلُو النَّاسَ وَالأَحْوَالَ بَعْدِي(١)
فَتَنْدَمُ في الَّذِي فَرَّطْتُ فِيهِ   إذَا قَايَسْتَ في ذَمِّي وَحَمْدِي(٢)

ـ وأمّا شعرهُ في الشماتة فلا يعدُّ ولا يُحصى ، وقد مرَّ معنا منه الشيءُ الكثير في سيرةِ حياته ، وهو تعويض عمّا قاساه أثناءَ خلافة هشام الذي لم يترك له فرصة إلاّ وضيّق بها عليه،وكان من الطبيعي أيضاً أن يكونَ الوليد هجّاءً ، وأن ينصبَّ في هجائه على عمّه هشامِ بن عبد الملك ، وعلى آله وأنصاره ، نتيجةً لما عاناه وما كان يلقاه من معاملة سيئة طالت رزقَه ، وأسقطت عطاء أهله وحرمته وأصحابه

---

(١) تبلو : تجرب .
(٢) قايس بين الشيئين : قارن بينهما أي وازن انظر الديوان ٣٣ والأغاني ٢١/٧ .

وحرسه ، وأشاعت حوله التهم والظنون . ونجدُ الوليدَ يُذَكِّرُ هشاماً وبطانته . بأنّه أصلُ نعمتهم ، ويتّهمه بالغدرِ ، ويشبِّهُهُ بكلبٍ سمَّنه صاحبه للصيد ، وحين سَمِنَ وصار قويّاً انقلبَ عليه :

أَتَشْمَخُونَ وَمِنَّا رَأْسُ نِعْمَتِكُمْ ؟ سَتَعْلَمُونَ إِذَا أَبْصَرْتُمُ الدُّوَلَا ؟
أُنْظُرْ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى مَثَلٍ لَهُمْ سِوَى الكَلْبِ فَاضْرِبْهُ لَهُمْ مَثَلَا
بَيْنَا يُسَمِّنُهُ لِلصَّيْدِ صَاحِبُهُ حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَى مِنْ بَعْدِ مَا هَزُلَا
عَدَا عَلَيْهِ ، فَلَمْ تَضْرُرْهُ عَدْوَتُهُ وَلَوْ أَطَاقَ لَهُ أَكْلًا ، لَقَدْ أَكَلَا

-كما ونجده يسخَر من أمِّ حكيم زوجِ هشام فيصفها بأنّها دائمةُ السكر والعربدة ، لأنها تشرب من كأس عظيم الحجم يُسكِر الفيلَ أو البعير :

إِنَّ كَأْسَ العَجُوزِ كَأْسٌ رُوَاءٌ لَيْسَ كَأْسٌ كَكَأْسِ أُمِّ حَكِيمِ
لَوْ بِهِ يَشْرَبُ البَعِيرُ أَوِ الفِيـ ـلُ لَظَلَّا فِي سَكْرَةٍ وَغُمُومِ

- ومن مجونه وسخريته على شرابه ، قوله لساقيه :

اسْقِنِي يَا يَزِيدُ بِالقَرْقَارَهْ قَدْ طَرِبْنَا وَحَنَّتِ الزُّمَّارَهْ
اسْقِنِي اسْقِنِي ، فَإِنَّ ذُنُوبِي قَدْ أَحَاطَتْ فَمَا لَهَا كَفَّارَهْ[1]

وحين مات هشامٌ ، وزالت مهابةُ الخلافة التي كانت تحول بين الوليد والتغيير الذي يريد ، عَمدَ إلى الشعر فضمَّنه ما كان يشعر به من حقدٍ وكراهية ، وما كانَ يخيفه من إفحاش وإقذاع ، فأظهر شماتةً بموتِ «الأحول المشؤوم» وتشفَّى من إيقاع الظلم بأهله ، وقتل أولاده ، وفضح بناته ، وهتك أعراضهن ، كقوله :

لَيْتَ هِشَاماً عَاشَ حَتَّى يَرَى مِحْلَبُهُ الأَوْفَرَ قَدْ أُتْرِعَا

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣/٢٢٧ .

كِلْنَا لَهُ بـالصَّـاعِ الَّتِي كَـالَهَـا وَمَـا ظَـلَمْنَـاهُ بِهَـا أَصْـوُعَـا

أو كقوله :

إذْ بَـنَـاتُ هِـشَـامٍ يَـنْـدُبْـنَ وَالِـدَهُـنَّـهْ
أَنَـا المُـخَـنَّـثُ حَـقـاً إذَا لَـمْ أنيـكَـنْـهُـنَّـهْ

وروى الضحَّاك بن عثمان ، قال : أراد هشام أن يخلع الوليد ، ويجعل العهد لولده ، فقال الوليد في ذلك شعراً يُعيِّر فيه هشاماً .وكُفرَه باليدِ التي أنعمتْ عليه ، وكان حقُّها عليه الوفاء بالمثل ، ويعيبُ عليه جهله وقلَّة حزمه لأنَّه راح يسعى جاهداً في قطيعته ، وكان الأجدرُ به أن يهدم ما بنى ويشيد علاقة نقية نظيفة معه ، لأنَّه بعمله ذاكَ يسيء إلى نفسه وإلى عقِّبهِ من بعده ولا يجني لهم سوى الشرِّ والبوارِ .

كَفرْتَ يَداً مِنْ مُنْعِمٍ لَوْ شَكَرْتَها جَزَاكَ بِهَا الرَّحْمٰنُ بِالفَضْلِ وَالمَنِّ
رَأَيْتُكَ تَبْنِي جَاهِـداً فِي قَطِيعَتِي وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ لَهَدَّمْتَ مَاتَبْنِي
أَرَاكَ عَـلَى البَاقِـينَ تَجْنِي ضَغِينَةً فَيَاوَيْحَهُمْ إنْ مُتُّ مِنْ شَرِّ مَا تَجْنِي
كَـأَنِّي بِهِمْ يَـوْمـاً وَأَكْـثَرُ قِيلِهِمْ أَلَا لَيْتَ أَنَّا ، حِينَ يَا لَيْتَ لَا تُغْنِي

وكان بين الحكم بن الزبير أخي أبي بكر بن كلاب وبين بكر بن نوفل أحد بني كلاب شيء وكالة للوليد بن يزيد يخاصم الجعفريَّ في الرحبة من أرض دمشق ، وكان الجعفريُّ قد استولى عليها ، فقطع شَفْرَهُ الأعلى ، فاستعدى عليه هشاماً ، فلم يُعْدِهِ ، فقال الوليد في ذلك يهجوه :

أَيَا حَكَمُ المَتْبُولُ لَوْ كُنْتَ تَعْتَزِي إلىٰ أُسْرَةٍ لَيْسُوا بِسُودٍ زَعَانِفِ[1]
لأَيْقَنْتَ قَدْ أَدْرَكْتَ وَتْرَكَ عُنْـوَةً بِلَا حُكْمِ قَاضٍ بَلْ بِضَرْبِ السَّوَالِفِ

---

(١) المتبول : المصاب بتبل وهو الذحل والعداوة . تعتزي : تنتسب .

ـ وقد طرق الوليدُ أبواباً شعريةً غيرَ تلك التي تعارفَ عليها الشعراء قبله ، إنَّها شيءٌ أشبه بالفنون الشعرية المبتدعة في العصر الأموي ، وهي ما أطلق عليها الدارسون اسمَ الشعر السياسي الذي يفضِّلُ مذهباً على آخر ، أو يغلِّبُ فئةً على أخرى . فقد روَى بعض مواليه قال : دخلت على الوليد وقد عقد لابنَيْهِ بعدَه وقدَّم عثمانَ ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ! أقول قول الموثوق بنصيحته أوْ يسعني السكوت ؟

قال : بل قل الموثوقَ الموثوقَ به .

فقلت : إن الناس قد أنكروا ما فعلت وقالوا : يبايع لمن لم يحتلم ! وقد سمعت ما أكره فيكَ .

فقال: عُضُّوا ببظور أمهاتكم، أفأدخل بيني وبين ابني غيري، فيلقى منه كما لقيتُ من الأحول بعد أبي ! ثم أنشأ يقول :

سَرَى طَيْفُ ذَا الظَّبْي بالعَاقِدا ... نِ لَيْلاً ، فَهَيَّجَ قَلْباً عَمِيدَا
وَأَرَّقَ عَيْنِي عَلَى غِرَّةٍ ... فَبَاتَتْ بِحُزْنٍ تُقَاسِي السُّهُودَا
نُؤَمِّلُ عُثْمَانَ بَعْدَ الوَلِيـ ... ـدِ لِلْعَهْدِ فِينَا وَنَرْجُو سَعِيدا[1]
كَمَا كَانَ إِذْ كَان فِي دَهْرِهِ ... يَزِيدُ يُرَجِّي لِتَلْكَ الوَلِيدَا
عَلَى أَنَّهَا شَسَعتْ شَسْعَةً ... فَنَحْنُ نُرَجِّي لَهَا أَنْ تَعُودَا
فَإِنْ هِيَ عَادَتْ فَعَاصِ القَرِيـ ... ـبَ مِنْهَا ، لِتُؤْيِسَ مِنْهَا البَعِيدَا[2]

---

(١) لم نجد في كتب التاريخ ما يدل على أن للوليد ابنا سعيدا ، وفي رواية الطبري ق ٢ ص ١٧٥٦ : نؤمل عثمان بعد الوليد للعهد فينا ونرجو يزيدا .
(٢) انظر الأغاني ٧/ ٧٠ ـ ٧١ .

د ـ كلمة عامة في شعر الوليد بن يزيد ..

سنحاول في هذه الفقرة أن نلقيَ شيئاً من الضوء على خصائص شعره الفنية لنتمِّمَ بها رسمَ صورته الشعرية ، فنقول :

آ ـ لقد طغى الحبُّ وشعرُ الغزل على أغراض الوليد الشعرية ، ولم يدانيه من حيث الكثرة إلا شعرُ الخمرِ ، وعلاوة على ذلك فقد ضمَّن الوليد أشعارَ الخمر والفخر والهجاء ذِكراً لمحبوبته سلمى . وهي أيضاً في شعره اللاهي من المستلزمات الحياتية التي لا يستقيمُ العيشُ إلّا بها . وهي في فخرِهِ سببٌ من الأسباب التي تدعوه إلى ذِكر أمجادِهِ ومكارِمِه . وهي في هجائه مثالٌ يكتشفُ بمقارنته اللاشعورية بالآخرين كمالَه ونقصَهم .

ب ـ ولئنْ جاءَ شعرُ الخمرِ واللهو في الدرجة الثانية بعدَ شعر الحبِّ من حيث الكميةُ وعددُ المقطوعات ، وجاء في الدرجة الأولى من حيثُ الأهميةُ التي اكتسبها في شعر الوليد .

فالوليد لم يُعرف بكونه شاعرَ غزلٍ وحبٍّ ، وإنما عُرف بأنه من شعراءِ الخمرِ واللهوِ ، والسبب في ذلك عائد إلى الدسائس السياسية التي حاكَها الأمويون حولَ الوليد ، للإساءة إلى سمعته وتبريرِ عزْله ، والتي توسَّعَ في نشرِها العباسيّون فيما بعد ، ليسوِّدوا صفحة البيتِ الأمويّ في نظر الناس .

وثمّة سببٌ آخرَ لا يقلُّ أهميَّة عن الأوَّل جعلَ الوليدَ من شعراء الخمر واللهو ، وهو أنَّ هذا الشاعر كان أوّلَ من أفردَ خمريَّاته في مقطوعات مستقلةٍ عن أغراض الشعر الأخرى ، فحفظ لها بذلك وَحدتَها الموضوعية والمعنوية ، وأتاحَ لها فرصةَ الظهور أمام الفنون الشعرية الأخرى بشخصيتها المستقلّة . ولم يكتفِ الوليدُ بإفراد الخمريّات في المقطوعات المستقلّةِ ، بل عمل على المواءمة بينَ الشكلِ

والمضمونِ ، وبينَ المضمونِ والأسلوب ، فاختارَ لها الأوزانَ الخفيفة والمجزوءة ، مثلَ الهزجِ والرملِ ، وهداه ذوقُه الموسيقيُّ الى اكتشاف وزنِ المجتث.[1]

هذا الطبع السليمُ قاده الى الابتعاد عن الألفاظ الضخمة ذاتِ الجلبة والقعقعة إلى أخرى سهلة لينة ترِقُّ حتى تصلُ إلى العاميّة في بعض الأحيان . وهكذا صارت القصيدةُ الخمريَّة عند الوليد قطعةً موسيقيّة ، ضاحكةَ القسمات ، راقصةَ المعنى ، لينةَ الألفاظ ، مناسبةً لمتطلباتِ الغِناء ، حتى ليذكَر أنَّه كان للوليد ألحانٌ مأثورة يضعها بنفسه لبعض أشعاره ، من مثل قوله :

عَلِّلَاني وَاسْقِيَاني مِنْ شَرَابٍ أَصْبَهَاني
مِنْ شَرَابِ الشَّيْخِ كِسْرَى أَوْ شَرَابِ الهُرْمُزَانِ[2]
إنَّ بِالكَأْسِ لَمِسْكاً أَوْ بِكَفَّي مَنْ سَقَاني
إِنَّمَا الكَأْسُ رَبِيعٌ يُتَعَاطَى بِالبَنَانِ
وامْزِج الكَأْس ولا تُكْثِـ ـرِ مِزَاجَ العَسْقَلاني
أَوْ لَقَدْ غُودِرَ فِيهَا حِينَ صُبَّتْ في الدِّنَانِ
كَلِّلَاني تَوِّجَاني وَبِشِعْرِي غَنِّيَاني
أَطْلِقَاني بِوَثَاقي وَاشْدُدَاني بِعِنَاني

بمثل هذه الأشعار عُرِفَ الوليدُ واشتهر ، وإن شهادة الأقدمين بشعره تجعلنا نشعرُ أنهم كانوا يعتبرونه رائدَ شعرِ الخمرِ واللهوِ ، فصاحب الأغاني يقول : وللوليد في ذكرِ الخمرِ وصفتِها أشعارٌ كثيرة ، قد أخذها الشعراء فأدخلوها في أشعارهم وسلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصّة ، فإنّه سلخ معانيَه كلَّها وجعلها في شعره .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي العصر الاسلامي لشوقي ضيف ٣٨٤ .
(٢) انظر ديوان الوليد ١٢٣ والأغاني ٩/٧ والعقد الفريد ٤٥٨/٤ .

جـ ـ ويلاحظ المُطَّلعُ على أشعار الوليد أنّه لم يكنْ يسيرُ على أسلوب واحد ؛ فمرَّة يكونُ ركيكاً ضعيفاً مهلهلاً ، كقوله :

يَا سُلَيْمَى يَا سُلَيْمَى كُنْتِ لِلْقَلْبِ عَذَابَا
يَا سُلَيْمَى ابْنَةَ عَمِّي بَرَدَ اللَّيْلُ وَطَابَا
أَيُّمَا واشٍ وَشَى بِي فَامْلَئِي فَاهُ تُرَابَا
رِيقُهَا فِي الصُّبْحِ مِسْكٌ بَاشَرَ العَذْبَ الرُّضَابَا (١)

بينما يكون في مرّة أخرى ناصعاً ، جزلاً ، قوياً ، كقوله :

اصْدَعْ نَجِيَّ الهُمُومِ بِالطَّرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ العِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ العَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمُهَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الحِقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشُّرْبِ يَوْمَ جَلْوَتِهَا مِنَ الفَتَاةِ الكَرِيمَةِ النَّسَبِ

وَلَعَلَّ هذا التَّفاوتَ في شِعْرِهِ عائِدٌ إلى طبيعة الوليد اللاهية المستهترة التي كانت تؤثِّر في نظمه ، ممَّا يجعل مستواه متفاوتاً بين الإحكام والركاكة والفصاحة والخروج على قواعد الاستعمالِ الصحيح ، كما في قوله :

أَنَا ابنُ عَظِيمِ القَرْيَتَيْنِ وَعِزِّهَا ثَقِيفٌ وَفِهْرٌ وَالرِّجَالُ الأَكَابِرُ
نَبِيُّ الهُدَى خَالِي وَمَنْ يَكُ خَالَهُ نَبِيَّ الهُدَى يَعْلُ الوَرَى فِي المَفَاخِرِ

والإقواءُ (٢) واضح في البيت الثاني ، وهو على العموم ظاهرةٌ فاشيةٌ في شعر الوليد ، عائدة إلى تسرُّعه وارتجاله الشعرَ ، وعدم توفره على تنقيحه وتقويمه . وقد لاحظَ أبو الفرج ذلك فقال : هو كثيراً ما يذكر سلمى هذه في شعره بأم سلام

---

(١) انظر شعر الوليد ١٦ والأغاني ٣/٤٠ .

(٢) الإقواء في الشعر : اختلاف قوافيه بالحركة الإعرابية ، فالبيت الأول مرفوع القافية ، والثاني مكسورها .

وبسليمى ، لأنه لم يكن يتصنّع في شعره ، ولا يُبالي بما يقوله منه .

وهذا في الواقع ما دفع بعضَ الرواة ، ومنهم أبو الفرج ، إلى إصلاح بعض أبياتِ الوليد لتوافقَ التعبيرَ الشعريَّ الرصين المألوف .

يزيد بن الوليد بن عبدالملك
٨٦ - ١٢٦ هـ/٧٠٤ - ٧٤٤م

هو يزيدبن الوليد بن عبدالملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ولد بدمشق سنة ٨٦ هـ على الأرجح ، وكنيته أبو خالد ، ولقب بالناقص لكونه نقص الجند من أعطياتهم التي زادها الوليد بن يزيد ، وردّها الى ما كانت عليه أيام هشام بن عبدالملك . (١) وهو أول أبناء الخلفاء الأمويين من غير العربيات .

أمّه شاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد - وأم فيرزو بنت شيرويه بن كسرى ، وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك ، وأمُّ أمِّ فيروز بنت قيصر عظيم الروم - ولهذا قال يزيد بن الوليد يفتخر بأرومته :

أَنـا ابْنُ كِسْرَى ، وأَبي مَـرْوَانْ   وَقَيْصَرٌ جَدِّي ، وَجَدِي خَاقَانْ (٢)

وثب يزيد بن الوليد بن عبدالملك على الخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بالبخراء على ثلاثة أميال من تدمر ، فأتي برأسه ، فأَمَرَ بنصبه على رمح على درج مسجد دمشق ، ثم طوّفوا به في مدينة دمشق ، ثم قام خطيباً فقال : أما بعد ، إني والله ما خرجت أشرا ، ولا بطراً ، ولا طمعاً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة

(١) تاريخ الأمم الاسلامية للخضري ٦٢١ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٣ .

في الملك ، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي ، ولكني خرجت غضبا لله ولدينه ، وداعياً إلى كتابه وسنَّة نبيِّه صلّى الله عليه وسلّم ، حين درسَتْ معالمُ الهدى ، وطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبّار المستحلُّ الحرمةَ والراكب البدعةَ ، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه فيجيبه ، فاستخرتُ الله في أمري . ودعوت مَنْ أجابني من أهلي وأهلِ ولايتي ، فأراح الله منه البلاد والعباد ، ولايةً من الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها الناس ! إنَّ لكم عندي إنْ وليت أموركم أنْ لا أضعَ لَبِنَةً ولا حجراً على حجر . ولا أنقلَ مالاً من بلد حتى أسُدَّ ثغرة ، وأقسم بين مصالحه ما تقوون به ، فإنْ فَضَلَ فَضْلٌ رددتُه إلى البلد الذي يليه ، حتى تستقيمَ المعيشةُ وتكونوا فيه سواء . فإنْ أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم ، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم ، وإنْ رأيتم أحداً أقوى مني عليها فأردتم بيعته فأنا أوّل من يبايعه ويدخل في طاعته ، وأستغفر الله لي ولكم .(١)

ثم بويع بالخلافة في أوّل رجب سنة ١٢٦ هـ ، وماتَ يزيدُ بن الوليد بدمشق لعشر بقين من ذي الحجَّة سنة ١٢٦ هـ ، فكانت مدة خلافته خمسة أشهر وعشرين يوماً ، وهو ابن أربعين سنة .(٢) وصلّى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك .

وكتب يزيدُ بن الوليد إلى مروان بن محمّد بالجزيرة ، وبلغه عنه تلكأ في بيعته : أما بعد ، فإني أراك تقدِّم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيِّها شئت والسلام .

---

(١) انظر العقد الفريد ٤/٤٦٤ .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٣ - ٣٠٤ .

ومن ثم قطع اليه البعوث ، وأمر لهم بالعطاء .[1]

ولما بلغ مروان أن يزيد قطع البعوث إليه ، كتب ببيعته ، وبعث وفداً عليهم سليمان بن علاثة العقيلي . فخرج فلما قطعوا الفرات لقيهم بريد بموت يزيد ، فانصرفوا الى مروان بن محمد ، والله أعلم .[2]

ولم يعرف ليزيد شعر غير البيت الذي أوردناه له يفتخر به بأرومته . وبعض خطب ذكرنا له واحدة منها ، فمدة خلافته كانت قصيرة ، فلم يُمتَّعْ بها فهي لم تزد في أحسن الأخبار عن ستة أشهر ، كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي .[3] ويقال إنه مات بالطاعون .

وكانت ولاية يزيد فاتحة الإضطراب في البيت الأموي ، وبداية انحلاله . وقامت في عهده عدة فتن ، منها قيام أهل حمص ليثأروا للوليد وقد أمّروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ، فهزمهم ، فدانوا ليزيد بن الوليد وبايعوه . ومثلهم فعل أهل فلسطين وأهل الأردن ، فلم يتم لهم شيء وانتهوا بالبيعة ليزيد بعد هزيمتهم وتفرقهم . وكان الأمر كذلك في العراق والمشرق .

وكان يزيد بن الوليد يرى رأي القدريَّة. ويقول بقول غيلان. فألحّت القدريَّة عليه وقالوا : لا يحلُّ لك إهمال أمر الأمة ، فبايعْ لأخيك إبراهيم بن الوليد ، ولعبدالعزيز من بعده . فلم يزالوا به حتى بايع لإبراهيم بن الوليد ، ولعبدالعزيز من بعده [4]

---

(١) البعوث : جمع بعث وهو الجيش . وقطع بعثاً : إذا أفرد قوماً يبعثهم في الغزو ويعينهم من غيرهم . انظر العقد الفريد ٤/٤٦٤ .

(٢) انظر العقد الفريد ٤/٤٦٥ .

(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٣٠٤ .

(٤) انظر العقد الفريد ٤/٤٦٥ - ٤٦٦ .

إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك
٩٠ ـ ١٢٧ هـ/٧٠٧ ـ ٧٤٤ م

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أمه بربرية، ومن أجل ذلك لم يتم له الأمر. وكان يَدْخُل عليه قوم فيسلّمون بالخلافة، وقوم يسلِّمون بالإمرة، وقوم لايسلمون بخلافة ولا بإمرة، وجماعة تبايع، وجماعة يأبون أن يبايعوا[1].

وروى العلاء بن يزيد بن سنان قال: حدَّثني أبي قال: حضرْتُ يزيدَ بن الوليد حين حضرته الوفاةُ فأتاه قطنٌ، فقال: أنا رسولُ من وراء بابك، يسألونك بحقِّ الله لو ولَّيت أمرَهم أخاك إبراهيم بن الوليد. فغضب وضرب بيده على جبهته وقال: أنا أولي إبراهيم!

ثم قال لي: يا أبا العلاء! إلى من ترى أن أعهد؟

قلت: أمر نهيتك عن الدخول في أوّله، فلا أشير عليك بالدخول في آخره.

قال: فأصابته إغماءة حتى ظننت أنه قد مات، ففعل ذلك غير مرّة، ثم خرجت من عنده.

(١) أنظر العقد الفريد ٤/٤٦٦.

فقعد قطن وافتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا ناساً فأشهدهم عليه.

قال: والله ماعَهَدَ إليه يزيدُ شيئاً ولا إلى أحد من الناس(1).

فبويع إبراهيم بن الوليد، فلم يتمَّ له الأمر، فمكث أربعة أشهر، حتى قدِمَ مروانُ بن محمد، فَخَلَعَ إبراهيمَ، وقتل عبد العزيزِ بن الحجاج، ووليَ الأمر بنفسه.

ولم يؤثَرْ عن إبراهيم شعر ولانثر يستحقُّ الذكر.

---

(1) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٥ والعقد الفريد ٤/٤٦٥ .

مروان بن محمد بن مروان
٧٢ - ١٣٢ هـ/ ٧٠٠ - ٧٥٠ م

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، آخرُ خلفاءِ بني أميَّة، كنيته أبو عبد الملك، ويُلقَّبُ بالجَعْدِيِّ نسبةً إلى مؤدِّبه الجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ، وبالحمارِ لأنَّه كان لايجفُّ له لَبَدٌ في محاربة الخارجين عليه[١].

ولد مروان بالجزيرة وأبوه متولِّيها سنة ٧٢هـ، وأُمُّه أُمُّ ولد[٢] قيل هي بنت إبراهيم بن الأشتر النخعي، وقال بعضهم: بل كانت أَمَةً لخبَّازٍ لمصعب بن الزبير أَوْ لابْنِ الأشتر، واسم الخباز رُزْبَا، وقال بعضهم: كان رُزْبَا عبداً لمسلم بن عمرو الباهلي[٣].

وبويع مروانُ بن محمّد بالخلافة بعدَ خلع إبراهيم سنة ١٢٧هـ، وكان مروان أحزَمَ بني مروان وأنجدَهم وأبلَغَهم، ولكنه وليَ الخلافَةَ والأمر مدبرٌ عنهم[٣].

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٠٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ٣٠٧ وجاء تاريخ الأمم الإسلامية للخضري أن ميلاده كان سنة ٧٠هـ صفحة ٦٢٤ .

(٣) انظر العقد الفريد ٤/٤٦٨ .

وكانت مدَّة خلافة مروان كلُّها مملوءةً بالفتن والاضطراباتِ، من ذلك خروجُ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً لنفسه. وانتقاض أهل حمص وأهل الغوطة بالشام، وأهل فلسطين، وكانت لهم وقائع هائلة في أزمنة مختلفة من خلافته.

وقد شغلت هذه الفتن الكثيرة في الشام والحجاز والعراق عَمَّا يجري في خراسان، فكان ذلك أعظمَ مساعدٍ لشيعة بني العباس ورئيسهم أبي مسلم الخراساني، على أخذ خراسان ومتابعة أهلها على الرضى من بني العباس، ثم مدّوا سلطانهم إلى العراق، وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ بويع بالكوفة لأبي العبّاس السفّاح، فأرسل عمَّه عبد الله بن علي على رأس جيش لمقاتلة مروان بن محمد، فالتقى به وبجنده على نهر الزاب، وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد، ومن يومها وحتى اليوم لم يتفق أهل الشام وأهل العراق على أمر، وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر، وعبد الله بن علي يتبعه حتى عثر به أخوه صالح بن علي في كنيسة بقرية بوصير المصرية، فقتله وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية، وابتدأ عصر الدولة العبَّاسيَّة سنة ١٣٢هـ.

وَلَدُ مروان كثيرون هم: عبد الملك، محمد، عبد العزيز، عبيد الله، عبد الله، أبان، يزيد، محمد الأصفر، وأبو عثمان. وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، مولى بني عامر بن لؤي، وكان معلماً. وعلى قضائه سليمان بن عبد الله بن علاثه. وعلى شرطته الكوثر بن عتبة وأبو الأسود الغنوي(١).

وكان مروان بن محمد أديباً يتذوق الشعر، ويحسن النقد، فقد روى أبو عبيدة قال: حدّثني يونس بن حبيب قال: لمّا استخلف مروان بن محمّد، دخل

(١) للمزيد انظر العقد الفريد ٤/٤٦٩.

عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة، فتقدم إليه طريح بن إسماعيل الثقفي - خال الوليد بن يزيد - فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قِواماً، ولأمَّةِ محمد المصطفى جنَّةً ونظاماً، ثمَّ أنشده شعره الذي يقول فيه:

تَسُـودُ عِدَاكَ فِي سَـدَادٍ وَنِعْمَـةٍ   خِـلافَتُنَا تِسْعـين عَامـاً وَأَشْهُرَا[1]

فقال مروان: كم الأشهر؟

قال: وفاء المئة ياأمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة، وأسعد عاقبة في النصرة والتمكين. فأمر له بمئة ألف درهم[2].

ثم تقدّم إليه ذو الرُّمَّة متحانيا كَبْرَةً[3] وقد انحلَّتْ عمامتُهُ منحدرةً على وجهه، فوقف يسويها. فقيل له: تقدَّم.

قال: إنِّي أجلُّ أمير المؤمنين أن أخطب بشرفه[4] مادحاً بلوْثَةِ عمامتي.

فقال مروان: ماأمَّلْتُ أنّه أبقت لنا منك ميٌّ ولا صيْدَحُ[5] في كلامك إمتاعا.

قال: بلى والله ياأمير المؤمنين! أَرِدُ منه قَراحاً، والأحسن امتداحاً. ثم تقدم فأنشد شعرا يقول فيه:

فَقُلْتُ لَهَا سِيري أَمَـامَكِ سَيِّـدٌ   تَفَرَّعَ مِنْ مَرْوَان أَوْ مِنْ مُحَمَّدِ

فقال له: مافعلت ميٌّ؟

---

(١) تسوء بدلاً من تسود.
(٢) العقد الفريد ٣١٩/١ .
(٣) أي طعن في السن فتقوس ظهره.
(٤) بشرفه: بساحته.
(٥) مي: صاحبته. وصيدح: ناقته.

فقال: طُويتْ غدائِرهَا ببرد بَليَ، وَمَحَا التُّرْبُ محاسِنَ الخَدِّ.

فالتفت مروان إلى العبّاس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالا؟! يعطى بكل من سمّى من آبائي ألف دينار.

قال ذو الرمة: لو علمت لبلغت به عبد شمس[1].

ويروى له شعر قاله في جاريه له يحبُّها، وقد خلَّفها وراءه في الرملة حين هرب إلى مصر، فكتب إليها من هناك يقول:

وَمَا زَالَ يَدْعُوني إلى الصَّبْرِ ما أَرَى ... فَأَبَى وَيَثْنيني الَّذي لَكِ في صَدْرِي
وَكَانَ عَزِيزاً أَنَّ بَيْني وَبَيْنَهَا ... حِجَاباً، فَقَدْ أَمْسَيْتُ مِنْكِ عَلَى عَشْرِ
وَأَنْكَاهُمَا لِلْقَلْبِ وَالله فَاعْلَمي ... إذَا ازْدَدْتُ مِثْليهَا فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
وَأَعْظَمُ مِنْ هَاذَينِ وَالله أَنَّني ... أَخَافُ بِأَنْ لا نَلْتَقي آخِرَ الدَّهْرِ
سَأَبْكيكِ لامُسْتَبْقِياً فَيْضَ عَبْرَةٍ ... وَلا طَالِباً بِالصَّبْرَ عَاقِبَةَ الصَّبْرْ[2]

وقال صاحب خطط الشام عن هذه الدولة الأموية العربية العرباء: «كانت دولة عربية صرفة، سارت مع المدنية أشواطاً مع اشتغالها بالفتح وقيام الخارجين عليها، ولم يبطلوا في كل دور غزو الروم في بلاهم، وكانوا على الأكثر يسلبون ويقتلون ويغنمون ويخربون حصونها. وكان الروم يغزون الشام وآسيا الصغرى وقد يصلون إلى أنطاكية ودلوك (مرعش).

وكان أكثر ملوك الأمويين من الحزم والعلم وحسن السياسة والإدارة على جانب عظيم، والسواس منهم؛ معاوية، وعبد الملك، وهشام. وليس كالوليد في باب الاضطلاع بعمران البلاد، ولامثل عمر بن عبد العزيز في تطهير المملكة من المظالم وإحياء سنن العدل والمراحم، ولا كسليمانَ في بُعد النظر.

---

(١) انظر العقد الفريد ٣١٩/١ـ ٣٢٠.
(٢) إشارة إلى الآية (وبشر الصابرين).

وما منهم إلا العالمُ والشاعرُ والخطيبُ والسياسي. وقد فتحت عليهم الأقطار، فنشروا فيها اللغةَ والدينَ على أيسرِ سبيل، وهذا ما لم يوفق إلى مثله غيرهم. ووضعوا أسس النظام في الممالك التي دخلوها وعرفوا ما يصلحها. وكانت إدارتهم أشبه باللامركزية في عهدنا.

يبعثون العاملَ فيحلُ المسائل باجتهاده، على رأي أهل الشرف والمكانة في القطر الذي يتولاه، ولايفاوض مقرَّ الخلافة إلا في عويص الأمور.

وقد نُصب علم الأمويين الأبيض في المشارق والمغارب، نصب في بكين عاصمة الصين، كما نصب في بواتيه من جنوب فرنسا. هذا وقد كثر المخلصون لدولتهم إلى أواخر أيامهم، وقل المنتقضون عليهم، المتوثبون على خلافتهم.

وللدول والأفراد أعمار طبيعية، وملك بني أمية لم يطل أكثر من ألف شهر كاملة، لأنهم ملكوا تسعين سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي وهي خمسة أشهر وثلاثة أيام[1].

وقد ذهبت دولة الأمويين بعد أن تركت للناس تلك الصفحات المشرقة من التاريخ العظيم، وكأنها بذلك لم يذهب أفرادها كما يقول في هذا المعنى أحد الأمويين أنفسهم وهو آدم بن عبد العزيز، وقد أدرك خلافة المهدي العباسي:

وَإنْ قَالَتْ رِجَالٌ: قَدْ تَوَلَّى زَمَانُكُمْ، وَذَا زَمَنٌ جَدِيدُ!
فَمَا ذَهَبَ الزَّمَانُ لَنَا بِمَجْدٍ وَلا حَسَبٍ إذَا ذُكِرَ الجُدُودُ
وَمَا كُنَّا لِنَخْلُدَ إذْ مَلَكْنَا وَأَيُّ النَّاسِ دَامَ لَهُ خُلُودُ؟

حقيقة أن الزمن لم يذهب بمجدهم ولاحسبهم، وحقيقة أن الناس لايدوم

(١) انظر خطط الشام لابن عساكر عن هذه الدولة.

لهم خلود. وكم كان بارعاً جداً أحد الأمويين حين قيل له بعد سقوط دولتهم: لقد حطك الزمان وعضك الحدثان.

فقال ـ وما أصدق ما قال ـ : مافقدنا من عيشنا إلا الفضول[1].

---

(١) محرر الرقيق سليمان بن عبد الملك الأموي، لمحمود حسن عواد ٣٤ .

محتوى الجزء الثاني

فهرس أعلام الرجال والنساء

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرست أعلام القبائل والممالك والفرق

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن والمدن

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين

حرف الشين

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الآيات القرآنية الكريمة

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

فهرس المواقع والمعارك والمغازي والأحلاف

فهرس الأقوال المأثورة والأسجاع

فهرس الأشعار والأراجيز

قافية الهمزة

قافية الألف

قافية الباء

قافية التاء

قافية الجيم

قافية الحاء

قافية الدال

قافية الراء

قافية السين

قافية الشين

قافية الصاد

قافية الهاء

قافية الياء